

# **SPECIAL AUTHORS-GENERAL STUDY**

**CORE COURSE  
(ARA 4C 14)**

**MA ARABIC  
IV SEMESTER  
(2019 Admission Onwards)**



**UNIVERSITY OF CALICUT  
School of Distance Education  
Calicut University P O  
Malappuram - 673 635, Kerala**

190115

**UNIVERSITY OF CALICUT**  
**SCHOOL OF DISTANCE EDUCATION**

**SELF LEARNING MATERIAL**  
**MA ARABIC**  
**IV SEMESTER**

**CORE COURSE**  
**(ARA 4C 14)**

**SPECIAL AUTHORS-GENERAL STUDY**

*Prepared by:*

**Sri. NOUSHAD M P**  
Assistant Professor  
School of Distance Education  
University of Calicut – Kerala

*Scrutinized by:*

**Sri. SIDHIQUE M P**  
Assistant Professor  
Department of Arabic  
TMG College-Tirur - Kerala

**DISCLAIMER**

“The author shall be solely responsible for the content and views expressed in this book”

المحتويات

رقم الصفحة	الموضوع	الوحدات
١١	نجيب محفوظ	الوحدة الأولى
١٧	حكاية بلا بداية ولا نهاية	
٨٩	عباس محمود العقاد	الوحدة الثانية
٧٢	أنا	
١٣٩	علي أحمد باكثير	الوحدة الثالثة
١٥٨	أحلام نابليون	

الوحدة الأولى  
حكاية بلا بداية ولا نهاية  
نجيب محفوظ

## الرواية في الأدب العربي

عرفت القصة على نحو ما في الأدب العربي القديم على غرار ما عرفته مختلف الشعوب من حكاية وخرافة وأسطورة. وفي القرآن الكريم قصص كثيرة عن الأنبياء والمرسلين والأقوام البائدة. وأولى بوادى القصص النثرية التي كانت في ما نقله إلى العربية وأضافه ابن المقفع (ت ١٤٢هـ) في كتاب «كليلة ودمنة» ثم جاء الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) فألف كتاب «البحلاء» في شكل نوادر فكهة عن البخل وأصحابه من أهل مرو خصوصاً.

وابتكر بديع الزمان الهمداني (ت ٣٩٨هـ) شكلاً من أشكال القصة القصيرة سماه المقامات، وبطل مجموعة المقامات واحد، ثم تابعه الحريري (٥١٦هـ) وآخرون لم يحظوا بشهرة الهمداني والحريري.

وتكاد السيرة الشعبية أن تكون خليطاً من الروايات والملاحم التي تداخلها الخرافة كما يداخلها الشعر الذي يفتقر إلى الفنية الجيدة.

على أن أهم كتاب عربي قديم في هذا الباب هو «ألف ليلة وليلة» وهو مجموع من التراث ذي القصص (الحكائي) للشعوب غير العربية ممن دخل منهم في الإسلام أو احتك المسلمون بهم كالهنود، وقد عرب هذا المجموع وأضيفت إليه حكايا جديدة حتى صار نسيجه العام عربياً إسلامياً خالصاً. وترك هذا الكتاب أثراً قوياً في الآداب الأوروبية حتى إن رجلاً كقولتير يصرح بأنه لم يكتب القصة إلا بعد أن قرأ «ألف ليلة وليلة» أربع عشرة مرة.

على أن القصة بمفهومها الفني الحديث إنما ظهرت في الأدب العربي في القرن التاسع عشر، وبعد الاطلاع على الآداب الغربية.

أما الرواية التي اكتملت فنياً على يد محمد حسين هيكل من مصر حسبما ذكر قبلاً فإن أكثر كتابها شهرة هو نجيب محفوظ. وقد كتبها في مصر أيضاً كل من توفيق الحكيم «يوميات نائب في الأرياف» وطه حسين «دعاء الكروان» و«الأيام»، كما لمع من أسماء كتابها أيضاً كل من يوسف السباعي وإحسان عبد القدوس ومحمد عبد الحلیم عبد الله وعبد الرحمن الشرقاوي... ثم جمال الغيطاني ومحمد يوسف القعيد وأحمد محمد عطية وإدوار الخراط وغيرهم.

في لبنان كتب جبران خليل جبران رواية «الأجنحة المتكسرة» كما كتب ميخائيل نعيمة عدداً من الروايات التي يغلب عليها الطابع الفلسفي، وهذان كتبا أعمالهما الروائية في المهجر الشمالي. ومن مشاهير كتاب الرواية في لبنان كرم ملحم كرم وتوفيق يوسف عواد الذي كان أبرع كتابها وخصوصاً في روايته «طواحين بيروت» وكتبتها أيضاً سهيل إدريس، ومارون عبود «فارس آغا» كما كتب إلياس خوري «الجبل الصغير» وكتب إلياس الديري «عودة الذئب إلى العرتوق».

وفي سورية كان شكيب الجابري رائد كتابة الرواية المكتملة فنياً حين أصدر روايته «قوس قزح» في أربعينيات القرن العشرين ومن أبرز الروائيين في سورية حنا مينة الذي كتب عدداً كبيراً من الروايات من أهمها «الباطر» و«بقايا صور» و«المستنقع» و«الشرع والعاصفة»... وكتبت وداد سكاكيني «المانوليا في

دمشق»، كما كتب فارس زرزور روايات كثيرة بعضها أقرب إلى التوثيقي مثل «حسن جبل» و«آن له أن ينصاع». ومن كتاب الرواية الذين برزت أسماؤهم في سورية: صدقي إسماعيل في «العصاة» وغيرها، وأديب نحوي في «عرس فلسطيني» و«تاج اللؤلؤ» و«آخر من شبه لهم»... ووليد إخلاصي في عدد غير قليل من الروايات مثل «باب الجمر» و«دار المتعة» و«ملحمة القتل الصغرى».. وألفة أدلبي وحيدر حيدر في «الزمن الموحش» و«وليمة لأعشاب البحر» وخيري الذهبي في «ملكوت البسطاء» و«ليال عربية» و«حسيبة» و«فياض»... وهاني الراهب في «ألف ليلة وليلتان» و«الوباء» و«بلد واحد هو العالم».. وأحمد يوسف داود في «الخيول» و«الأوباش» و«فردوس الجنون» وناديا خوست في «حب في بلاد الشام»، ونبيل سليمان في «ثلج الصيف» و«جرماتي» و«مدارات الشرق»... وعبد الكريم ناصيف في «الحلقة المفرغة» و«تشيقة آل المر».. إضافة إلى أسماء كثيرة أخرى.

وفي العراق برزت أسماء مثل محمود السيد وأحمد عبد المجيد لطفي وعبد الرحمن الربيعي. واشتهر اسم فاضل العزاوي في «القلعة الخامسة» وسواها. ومن الأسماء الجديدة عادل عبد الجبار في «عرزال حمد السالم» وناجي التكريتي في «مزمارة نوار»... إضافة إلى أعداد من الكتاب الآخرين.

وأشهر كتاب الرواية في الأردن غالب هلسا الذي كتب «الخماسين» و«الضحك» و«سلطانة» وغيرها. وهناك أسماء جديدة معروفة مثل مؤنس الرزاز وسالم النحاس وجمال ناجي وسواهم. وأهم كتاب الرواية في فلسطين غسان كنفاني

ومن أعماله «رجال تحت الشمس» و«عائد إلى حيفا».. ثم جبرا إبراهيم جبرا الذي كتب أعمالاً روائية عدة من أشهرها «صيادون في شارع ضيق» و«السفينة» و«البحث عن وليد مسعود»، ثم إميل حبيبي الذي كتب «الوقائع الغريبة في اختفاء أبي النحس المتشائل» و«لكع ابن لكع» وهي أهجية تجمع بين ملامح الرواية ولامح المسرحية .

ومؤخراً نضج فن الرواية في ليبيا على يد أحمد إبراهيم الفقيه الذي كتب ثلاثية نالت جائزة معرض الكتاب في بيروت عام ١٩٩٢.

أما في أقطار المغرب العربي فإن كتابة الرواية قد أجبرت - شأنها شأن القصة القصيرة. على أن يكون بعضها بالفرنسية وبعضها الآخر بالعربية بحكم ما فرضه المستعمر الفرنسي من ثنائية اللغة على تلك الأقطار. وهناك رواية ما قبل الاستقلال في هذه الأقطار وهي عموماً تفتقر إلى هذا القدر أو ذاك من النضج الفني، ورواية ما بعد الاستقلال التي تزدهر وتبلغ حداً جيداً من ذلك النضج.

ففي المغرب كتب عبد المجيد بن جلون الرواية منذ الحرب العالمية الثانية، وكذلك فعل عبد الكريم غلاب. وطبيعي أن ابتداء الرواية آنذاك كان يعكس صور الصراع من أجل الحرية والاستقلال. وفي الستينات والسبعينات يكثر كتاب الرواية المكتملة فنياً، والتي تتناول هموم الناس وقضاياهم الاجتماعية والمعاشية ومشاكلهم الإنسانية المختلفة. ومن ذلك أعمال مثل «أمطار الرحمة» لعبد الرحمن الميرني، و«غداً تتبدل الأرض» لفاطمة الراوي، و«دفنا الماضي»

لعبد الكريم غلاب، و«الطيبون» لربيع مبارك، و«الغربة» لعبد الله العروي و«حاجز تلج» لسعيد علوش، و«أرصفة وجدران» لمحمد زفزاف، و«زمن بين الولادة والحلم» لأحمد المديني، إلى غير ذلك من أسماء وأعمال. وفي الجزائر يبرز عدد من الكتاب الذين كتبوا الرواية بالعربية واهتموا بالقضايا المعاصرة والمشكلات والمصائب التي اعترضت المجتمع والإنسان العربي هناك بعد الاستقلال. ومن هؤلاء عبد الحميد بن هدوقة وواسيني الأعرج.. لكن أكثر هذه الأسماء شهرة وعطاءً روائياً هو الطاهر وطار الذي يعد واحداً من كبار كتاب الرواية الواقعية العربية، ومن أشهر أعماله «الحب والموت في الزمن الحراشي» و«عرس بغل» و«الحوت والقصر» و«تجربة في العشق».

أما في تونس فقد تزعم البشير خريف تيار الواقعية في الرواية، وتابعه محمد العروسي كما في روايته «النضوج المر» في حين زواج رشيد حمزاوي بين الجمالي والاجتماعي في «مات بودوا» ورسم محمد صالح الجابري لوحات تاريخية لصراع الطبقات الاجتماعية في رواية «يوم في زمرا» ورواية «البحر يلفظ فضلاته».

أما الرواية المكتوبة بالفرنسية في أقطار المغرب العربي، فقد توازت مع تلك المكتوبة بالعربية تحت تأثير الشروط الخاصة بأوضاع تلك الأقطار. ولم تبرز هذه الرواية في المملكة المغربية والجزائر بروزاً حقيقياً من الوجهة الفنية إلا في سنوات الخمسينات من القرن العشرين.

أما في شبه الجزيرة العربية فإن الرواية لا تزال ضعيفة جداً هذا إذا استثنى الكاتب عبد الرحمن منيف السعودي الذي لم يعيش في السعودية بل تنقل بين

الشام ومصر، وأصبح واحداً من مشاهير كتاب الرواية العربية. ومن أعماله «الأشجار واغتيال مرزوق» و«شرق المتوسط» وخماسيته الكبيرة «مدن الملح» التي يؤرخ فيها - فنياً - لشبه الجزيرة في العصر الحديث.

وهناك كاتب جديد من البحرين هو عبد الله خليفة وقد أصدر عدة أعمال منها «امرأة» في أوائل التسعينات وروايته ناضجة فنياً وشيقة ومعبرة عن واقع بيئته ومشكلاتها.

إن ما تقدم ذكره حتى الآن من روايات عربية قد اهتم بالرواية التي تتناول القضايا الاجتماعية والنفسية، والمشكلات الاقتصادية أو السياسية والمسائل العاطفية وغيرها مما يشغل عرب هذا القرن من مشاغل مختلفة. على أن هناك نمطاً من الرواية لم يعرض له هو «الرواية التاريخية» ومن أعلامها جرجي زيدان الذي كتب سلسلة كبيرة من الروايات عن تاريخ الإسلام ومن هذه الروايات: «فتاة غسان» و«أرمانوسة» و«عذراء قريش» و«شجرة الدر» وغيرها. ومنهم معروف الأرنؤوط الذي كتب في الاتجاه السابق ذكره. ومن رواياته «سيد قريش» و«فاطمة البتول» و«طارق بن زياد».. وهناك علي الطنطاوي في «قصص من التاريخ» وعبد الحميد جودة السحار في «بلال مؤذن الرسول» و«أميرة قرطبة» و«سعد بن أبي وقاص»، كما كتب محمد فريد أبو حديد روايات عن «عنترة» وغيرها.

ولقد ركز بعض كتاب الرواية على تنسيق الأحداث وعرض جزئياتها وتنميتها وتعقيدها وإدخال عنصر التشويق فيها، كما ركز بعضهم على تصوير

الشخصية المحلية أو الإنسانية ورسم أبعادها الجسمية والاجتماعية والنفسية. وتطورت كل من القصة والرواية في الأدب العربي الحديث من الإبداعية إلى الواقعية فالنفسية، ومن السرد إلى البناء الفني المتكامل. وبرزت في القصص مشكلات اللغة في السرد والحوار، أتكون عامية أم فصحي؟.. على أن معظم القصص والروايات الناجحة تطورت لغتها ولانت فأضحى حوارها فصيحاً مبسطاً، يهتم الكاتب فيه بما يجب أن يؤديه من رسم الشخصية، وكشف أبعاد الصراع، وتطوير الأحداث وتصوير البيئة في آن واحد.

نجيب محفوظ

(١٩١١-٢٠٠٦)

نجيب محفوظ عبد العزيز، أديب مصري متميز، وروائي ذائع الصيت، رائد الرواية العربية من غير منازع. وهو أول عربي نال جائزة نوبل العالمية للأداب عام ١٩٨٨.

ولد نجيب محفوظ عبد العزيز في حي «الجمالية» وهو أحد أحياء منطقة «الحسين» بمدينة القاهرة، وأمضى طفولته في هذا الحي الشعبي البسيط الذي استلهم منه أحداث رواياته التي كتبها، فصعد بها إلى آفاق الأدب الإنساني، ثم انتقل وعائلته من هذا الحي إلى «العباسية» و«الحسين» و«الغورية»، وهي أحياء القاهرة القديمة التي أثارت اهتمامه في أعماله الأدبية، وفي حياته الخاصة، والتحق بمدرسة «بين القصرين» الابتدائية، وبعد أن انتقلت الأسرة عام ١٩٢٤ إلى العباسية، حصل على شهادة «البكالوريا» من مدرسة فؤاد الأول الثانوية،

ثم على شهادة إجازة «الليسانس» في الفلسفة عام ١٩٣٤ من جامعة القاهرة، وعمل بعدها موظفاً في وزارة الأوقاف.

بدأ نجيب محفوظ ينشر قصصه ومقالاته الفلسفية والتاريخية في سن مبكرة، وتحديدًا منذ عام ١٩٣٠، عندما كان في التاسعة عشرة من عمره واستمر في النشر حتى عام ١٩٤٥، وقد أحصى له عبد المحسن طه بدر سبعة وأربعين مقالاً، وأربعاً وسبعين قصة نشرها في مطلع حياته الأدبية، لكنه لم يبدأ بكتابة القصة القصيرة رسمياً إلا عام ١٩٣٦، وإن كان قد نشر أول قصة له في «المجلة الجديدة» لسلامة موسى (١٨٨٧.١٩٥٨) في الثالث من آب/أغسطس ١٩٣٤ بعنوان «ثمن الضعف»، وقد استمر بكتابة القصص والروايات حتى عام ١٩٩٤، وتجلت موهبته القصصية والروائية في ثلاثيته الشهيرة «بين القصيرين» و«قصر الشوق» و«السكرية»، التي انتهى من كتابتها عام ١٩٥٢، لكنه لم يتمكن من نشرها حتى عام ١٩٥٦ بسبب ضخامة حجمها، وقد صوّر فيها حياة ثلاثة أجيال: جيل ما قبل ثورة ١٩١٩، وجيل الثورة، وجيل ما بعد الثورة، كما رصد من خلالها حياة هذه الأجيال وأذواقها وأفكارها، ومواقفها من المرأة والعدالة الاجتماعية، والقضية الوطنية.

نشر نجيب محفوظ أكثر من خمسين كتاباً ما بين روايات طويلة وقصص قصيرة ومسرحيات، ومقالات ودراسات ومذكرات وتحليلات سياسية. فمن رواياته التاريخية «عبث الأقدار» و«رادوبيس» و«كفاح طيبة». ومن رواياته الاجتماعية النفسية «خان الخليلي» و«زقاق المَدق» و«بداية ونهاية». ومن

رواياته التي اعتمد فيها على تيار الوعي أو (المونولوج الداخلي) «اللس والكلاب» و«السُّمان والخريف»، و«الشحاذ». لكنه عمد في السنوات الثلاث الأخيرة من حياته إلى كتابة القصص القصيرة التي أطلق عليها عنوان «أحلام فترة النقاهة»، وقد كتب ما يقارب السبعين من هذه الأحلام.

ويذكر المخرج التسجيلي المصري هاشم النحاس أن محفوظ أول أديب يكتب للسينما إذ شارك في كتابة ٢٥ فيلماً وأنتج من إبداعه ٤٠ فيلماً؛ وتنوعت هذه الأعمال بين أفلام كتبها مباشرة للسينما وأخرى شارك مع آخرين في إعدادها وثلاثة مأخوذة عن إحدى رواياته أو قصصه القصيرة، وكان المخرج المصري الراحل صلاح أبو سيف (١٩١٥. ١٩٩٦) قد نصح نجيب محفوظ بكتابة السيناريو في منتصف الأربعينات وقدّما معاً عدداً من كلاسيكيات السينما المصرية ومن بينها «مغامرات عنتر وعبلّة» و«المنتقم» و«ريا وسكينة» و«الوحش» و«الفتوة». وعلى فترات متباعدة كان محفوظ يشارك في كتابة سيناريو أو حوار أحد الأفلام ومنها: «جميلة» و«الناصر صلاح الدين» و«الاختيار» للمخرج المصري يوسف شاهين.

وحين بدأ المخرجون ينتهون إلى رواياته قرر ألا يكتب السيناريو ابتداءً من عام ١٩٦٠، وكانت رواية «بداية ونهاية» التي أخرجها أبو سيف أول تعامل للسينما مع روايات نجيب محفوظ وبعدها توالى الأفلام ومنها «القاهرة ٣٠» لأبي سيف أيضاً و«اللس والكلاب» و«ميرامار» لكمال الشيخ و«الكرنك» و«أهل القمة» لعلي بدرخان و«المدنبنون» لسعيد مرزوق و«الحب فوق هضبة الهرم» لعاطف

الطيب و«السمان والخريف» لحسام الدين مصطفى و«ثرثرة فوق النيل» لحسين كمال و«بين القصرين» لحسن الإمام، واختيرت الأفلام السابقة ضمن قائمة أفضل مئة فيلم مصري، وأضيف إليها فيلم «بين السماء والأرض» الذي أخرجه أبو سيف عام ١٩٥٩ عن قصة قصيرة لمحفوظ.

كما عُرضت بعض أعماله تلفزيونياً في مسلسلات درامية ناجحة زادت من شهرته مثل مسلسل «قسمتي ونصيبي» إخراج رضا النجار، وثلاثية محفوظ الشهيرة التي لاقت نجاحاً كبيراً كعمل تلفزيوني «بين القصرين»، و«قصر الشوق»، و«السكرية».

ترجمت رواياته إلى أكثر من خمس وعشرين لغة عالمية، كالإنكليزية والفرنسية والألمانية والصينية والإيطالية والسويدية والروسية والبولونية والإسبانية واليابانية وغيرها، ونُشرت في مختلف أنحاء العالم، وتمنح الجامعة الأمريكية في القاهرة جائزة سنوية باسم «جائزة نجيب محفوظ»، كما أُطلق اسمه على أحد شوارع القاهرة.

هوجم محفوظ من بعض المثقفين والروائيين، ومن أبرزهم الكاتب المصري يوسف إدريس الذي صوّر حصول محفوظ على جائزة نوبل أنه مكافأة على مواقفه المؤيدة لاتفاق كامب ديفيد، كما يرى بعضهم أن مضامين رواياته التي لا تتوافق مع التوجهات العربية والإسلامية، كانت من أسباب منحه الجائزة؛ ويعزو هؤلاء هذا المنح إلى رواية محفوظ «أولاد حارتنا» التي عُدت عام ١٩٥٩ محاولة فلسفية للدفاع عن الطائفة اليهودية أمام سياسات الرئيس الراحل

جمال عبد الناصر، وقد تم تهريب الرواية إلى بيروت حيث صدرت، بعدما منع الأزهر طباعة الرواية، لكن آخرين كانوا يرونه أهلاً لنيل جائزة نوبل بكل ما في الكلمة من معنى، فهو شيخ الروائيين العرب إذ حظيت رواياته حتى قبل نيله الجائزة باهتمام عالمي ملحوظ.

عمل محفوظ في عدد من الوظائف الحكومية، فعُيّن سكرتيراً برلمانياً في وزارة الأوقاف من عام ١٩٣٨ حتى عام ١٩٤٥، ثم مشرفاً على مكتبة الغوري في الأزهر، ثم مديراً لمؤسسة القرض الحسن بوزارة الأوقاف حتى عام ١٩٥٤، ثم تدرج في المناصب فعمل مديراً لمكتب وزير الإرشاد، فمديراً للرقابة على المصنفات الفنية، وفي عام ١٩٦٠ مديراً عاماً لمؤسسة دعم السينما، وفي عام ١٩٦٢ مستشاراً للمؤسسة العامة للسينما والإذاعة والتلفزيون، وفي عام ١٩٦٦ عُيّن رئيساً لمجلس إدارة المؤسسة العامة للسينما، إلى أن أُحيل على التقاعد عام ١٩٧١، فانضم إلى مؤسسة «الأهرام» الصحفية، ليعمل محرراً فيها.

تزوج عام ١٩٥٤ وأنجب بنتين هما: أم كلثوم، وفاطمة.

رصد نجيب محفوظ في أعماله حياة الطبقة الوسطى في أحياء القاهرة، فعبر عن همومها وأحلامها وتطلعاتها وقضاياها، وعكس قلقها وتوجساتها إزاء القضايا المصرية. كما صور حياة الأسرة المصرية في علاقاتها الداخلية وامتداد هذه العلاقات في المجتمع. وإذا كان بعض رواياته قد اتسم بالواقعية الحية، فإن بعضها الآخر قد اتخذ طابعاً رمزياً مثل «أولاد حارتنا» و«الجرافيش» و«رحلة ابن فطوطة».

كان يرى نفسه واحداً من أولئك «الحرافيش» البسطاء المسحوقين الذين عاشوا في الحارة المصرية في ثقافتها ومفاهيمها وعاداتها وتقاليدها طوال خمسة وتسعين عاماً، محللاً أوضاعهم الاجتماعية، محبباً لهم، مما جعله يهوى مجاورتهم.

## حكاية بلا بداية ولا نهاية نجيب محفوظ

١

هتف المنشد في نغمة بدائية:

«يا سيدي الأكرم على بابك»

فردد المريدون:

«الله.. الله.. الله..»

تابعت عيناه المشهد من خصاص نافذة بهو الاستقبال. تابعتا موكب أهل الطريقة وهم ينشدون ويصفقون. على أنغام الناي ودق الدفوف وتحت البيارق ينشدون، تزاحموا حول الضريح وأمام البيت الكبير حتى امتلأت بهم الحارة. وتسلفت إليه في موقفه وراء النافذة نسائم دافئة من الحديقة مترعة بأخلاق من روائح الفل والياسمين والحناء والقرنفل. لبث بمكانه في بدلته السوداء الأنيقة مغطى الرأس بعمامة مقلوزة، ينظر ويصغي باهتمام.

«يا سيدي الأكرم على بابك»

«الله.. الله.. الله..»

وارتفع صوت مكتسح النبوة يطالب الجميع بالسكوت فساد الصمت.

وراح يخطب قائلاً:

«هنيئنا لأهل مصر. هنيئنا لمصر. اختارك الأكرم مأوى ومستقرا لشخصه ولذريته. هنيئنا لك يوم قصدك قادما من المشارق. على قدميه جاء. يستأنس وحوش

البراري. يخترق الجبال، يسير فوق الماء، يفجر العيون في الصخر. وهلّ على القاهرة السعيدة كالبدر، وتجول في أطراف متباعدة حتى استقر به المقام في هذه البقعة الطاهرة حيث يقوم مسجده وضريحه. هنيئًا يا مصر، وهنيئًا يا حارتنا، حارة الأكرم وموطن ذريته ومريديه. منذ قرون خلت، انبثق في هذا المكان نور ما زال يجذب إليه فراشات من طالبي الهداية والغفران، وترك لكم المسجد والبيت الكبير. البيت الكبير مركز الروح والنور والهدى تدور حوله كواكب الأكرمية ما بين سوريا والعراق وتركيا ولبنان وفلسطين والجزيرة والهند وفارس وتونس والجزائر ومراكش وطرابلس. بيت هو القلب الخفاق لعالم روحي شامل. يا سيدي الأكرم تحية وسلاما. يا من جبت الأقطار كلها واخترت لمقامك هذا القطر، هذه العاصمة، هذه الحارة، هذا البيت. يا صانع الكرامات تحية وسلاما. ولآخر خلفائك وذريتك مولانا محمود الأكرم تحية وسلاما».

تعالت الهتافات من الأركان، ثم أنشد المنشد وردد المريدون:

«الله .. الله .. الله»

«يا سيدي الأكرم على بابك»

تحول عن النافذة. بوجه أسمر مستطيل ولحية سوداء قصيرة مدببة. تطلع إلى شيخ في الستين يقف وسط الجهو الكبير تحت نجفة برنزية على هيئة مئذنة. أنعم فيه النظر فتلقى نظرتيه بخشوع وقال:

- تحية وسلاما يا مولانا محمود الأكرم.

فتمتم الرجل باسمًا:

- طاب يومك يا شيخ عمار.

مضى .والآخر يتبعه . إلى كنبه تركية مفروشة بالسجاد الشيرازي على مقربة من باب السلامك . جلس ودعا الشيخ إلى الجلوس . تتابعت نسائم الصيف العطرة متهوية في تضاعيف أصيل غابت شمسه وراء أشجار التوت المعشقة بالعصافير . قال الشيخ محمود:

- من يرى موكبنا لا يتطرق إليه شك في استقرارنا .

فقال الشيخ عمار بحماس:

- ما زالت الدنيا بخير .

هز الرجل رأسه في أسى متسائلا:

- ماذا جرى لحارتنا؟

- لا شيء ، سحابة صيف ، عبث أطفال ..

- إنك لا تؤمن بما تقول يا شيخ عمار ، هل سبق أن نال لسان من الطريقة؟

- إنه جيل جديد عجيب يمتطي مركبة الشيطان .

قطب محمود الأكرم قائلا:

- يسخرون من الطريقة ، ومن المريدين ، ومني شخصيا ، ويرسلون النكات في

مقاهي الحارة بكل وقاحة .

- وباء هذا الزمن ، ماذا جرى لهذا الجيل؟ كيف هانت عليه مقدساته؟! ولكنه

عبث أطفال ليس إلا ..

- ألم يسمعهم المريدون؟

- بلى يا مولاي .

ماذا فعلوا؟

- نصحوهم بالتي هي أحسن ، وركبهم الغضب مرات ، ولكن أحدا منهم لم ينس

أن الحارة أسرة واحدة .

- وقال محمود الأكرم بحدة:
- لولا الأكرمية ما كان للحارة شأن...
  - هو الحق يا مولاي، وقد هيجني الغضب مرة كدت ..
  - ولكنه قاطعه قائلاً:
  - لا يليق العنف بأهل الطريق!
  - ولكن للصبر حدودًا.
  - أسأل الله ألا تدفعنا الأحداث إلى تجاوز القصد.
  - رفع بصره إلى الساعة الكبيرة في الجدار الأوسط ثم تساءل:
  - متى يجيئون؟
  - لعلمهم في الطريق إلينا..
  - ألا يوجد بينهم زعيم أو محرض أو ما شاكل ذلك؟
  - ليس هناك تنظيم أو زعامة، ولكن ثمة شابا يتسم بوقاحة مركزة يُدعى علي عويس.
  - ضيق الشيخ عينيه متفكرا وقال:
  - علي عويس؟!.. إني أعرف هذا الاسم أو على الأقل بعضه.
  - إنه ابن المرحوم عويس سواق الكارو.
  - استقام ظهر الرجل بغتة وتساءل:
  - شقيق المدرّسة؟!
  - شقيق زينب عويس المدرسة.
  - نظر الشيخ محمود إلى حذائه الأسود صامتا، فقال الشيخ عمار:
  - لعله ليس من الحكمة أن تفتح المدارس لكل من هب ودب.
  - فتمتم الشيخ محمود وكأنما يحدث نفسه:

- إذن فهو شقيق زينب عويس!
- يغادر كل صباح بيتا قديما أعد مدخله قديما موقفا للكارو ليذهب إلى الجامعة!..
- يقال إن شقيقته شقت طريقها بإرادة من حديد.
- إنها عانس، مدرسة أطفال، ذات دخل ضئيل. وفي هذه الجحور يترسب الحقد يا مولاي، ويتستر على نفسه السوداء بالسخرية والنكات الجارحة.
- ليتك دعوت شابا آخر..
- إنه أسلظهم لسانا!
- كان أبوه مريدا لأبي، وكان محمود السيرة على رغم ضعفه وفقره.
- قلت لهم اختاروا من بينكم نخبة لمقابلة مولانا فكان أجراهم على القبول. رفض البعض، وتردد البعض الآخر. ولكنني أعتقد أنه سيحييهم منهم نفر لعلمهم أصلهم.
- طليعة الخاطئين..
- تهند الشيخ عمار قائلا:
- لم تعرف حارتنا أمثالهم من قبل..
- هو زمن الغرور والوقاحة.
- يخيل إليّ أن جامعاتنا معاقل أجنبية!
- حدجه الشيخ محمود بنظرة عابسة فتراجع الرجل في استحياء قائلا:
- إلا من هداه الله وحفظه..
- رحم الله أبي.

\*\*\*

- لقد جئتكم بالمعلمين، ولكنك ترغب في دخول مدارس الدنيا.

- لا بأس من ذلك يا أبي.
- كل علم فهو من عند الله.
- الحمد لله.
- ولكن العبرة بالجهد وعليه يتوقف الطريق.
- سمعا وطاعة يا أبي.
- لكي تكون خليفة كما ينبغي لك.
- أجل يا أبي.
- إن علوم الدنيا لها نهاية أما جهاد الطريق فلا نهاية له.

\*\*\*

ولما خرج من أعماق صمته قال الشيخ عمار:  
- ليرحم الله أباك.  
وطيلة الوقت لم ينقطع إنشاد المنشدين وترديد المريدين، ولكنه انخفض درجات كأنما يجيء من بعيد. تابعه الشيخ محمود بشيء من الحزن ثم قال:  
- يا للذكريات! عرفنا ذات يوم أسماء جذابة كأرشميدس ونيوتن، وحقائق غريبة كالجزء والحركة، ولم أتصور وقتذاك أنها ستطاردنا بعنف كالزمن.  
دخل خادم يستأذن للقادمين.. أشار الشيخ محمود للشيخ عمار فقام ليغادر المكان في أثر الخادم ولكنه أضاع النجفة قبل أن يعييه الباب. دخلت مجموعة من الشبان، عشرة بالتمام. دون العشرين سنا، يرتدون البنطلونات والأقمصة نصف كم ولا تخفى على عين قدم ملابسهم، وقف الشيخ لاستقبالهم فتمت المصافحة بطريقة حديثة لم يتوقعها ولم يألفها. مد يده منتظرا تقبيلها ولكن

شدت عليها الأيدي باحترام دون تقبيل. بدأ التعارف فقدم كل نفسه . الجميع طلبة بالجامعة ، بالأداب خاصة، ما عدا واحدا بالهندسة، وآخر بالعلوم هو على عويس، تفحصه بنظرة عميقة بقدر ما سمح الموقف الخاطف. لمح قسمات غير غريبة كنغمة قديمة عزفت بعد نسيان ، ونظرة حركت باطنه بقوة مذهلة ، فسرها بالحنق فاستعاذ بالله من الشيطان في سره ولكنها كانت ألصق بالقلق والحيرة.

قال ياسما :

-حللتهم أهلا وسهلا.

فأجاب أكثر من صوت :

شكرا يا صاحب الفضيلة.

قلب عينيه في الوجوه الغالب عليها الشحوب وقال :

-لا تعجبوا لدعوتي إياكم، فهذا البيت مفتوح لجميع أبناء الحارة، وبمعنى آخر هو بيت الجميع .

فقال أحدهم :

- فرصة طيبة وهبة سعيدة .

لاحظ أن الآخرين جالوا بأبصارهم في المكان وصاحبهم يتكلم فشعر بحدة التناقض بين رثائهم وفخامة الجدران المحلاة بالأبسطة المزركشة والحصر الملونة وزينة الأرابيسك، والسقف الأبيض العالي تتدلى من وسطه النجفة البرنزية ومن أركانه الفوانيس الأندلسية ، بدوا كحشرات حادة تغوص في شبك البساط الكبير الدسم .

قال الشيخ :

- نحن قوم مهمتنا في الحياة التواضع لله وحب الناس.

- ما أجمل أن نسمع ذلك!
- وإذا كان الحوار مفيدا بين الناس في كل حين، فما أوجبه إذا نشب بينهم ما يدعو إلى سوء التفاهم .
- صدقوا على قوله بإحناءات من رءوسهم العارية فقال:
- وطريقي أن أدخل الموضوع رأسا، بلا لف ولا دوران ثم أتركه يتفرع كيف شاء بعد ذلك .
- استقرت في أعينهم نظرات استطلاع وتوقع فقال :
- بلغني يا سادة أنكم تخوضون في كرامتنا وتهزءون بنا؟
- فأجاب أحدهم :
- لا يخلو الخبر من مغالاة .
- أتتكرون ذلك؟
- فأجاب آخر :
- لعل مزاحنا علا أكثر مما ينبغي .
- قال الشيخ محمود ممتعضا :
- لو جاء ذلك من خارج حارتنا ما أكثرنا له، بل حتى وهو من صميم حارتنا كان يمكن أن ألقاه بالصبر والحلم لولا أن بعض المريدين هموا مرة بالدفاع عن مقدساتهم فالمني ذلك جدا، إذ إننا قوم مهمتنا الأولى في الحياة هي حب الناس لا الاعتداء عليهم، وبخاصة إذا كانوا من أبنائنا، لذلك قررت أن أدعوكم لتتضح لأعيننا المواقف والسبل، ولنتعاون على تحكيم الحكمة والرشاد فيما بيننا .
- قال صوت :
- سلوك حميد خليق بفضيلتكم .
- قلب عينيه في وجوههم مرة أخرى ثم تسائل :

- ألا تعرفون ماذا يعني الأكرم وطريقته لحارتنا؟
- ساد الصمت قليلا حتى خرج منه على عويس قائلا:
- الحق أن نوايانا حسنة وإن يكن مزاحنا عاليا، ولكي نعرفنا حقيقتنا فاعلم يا سيدي أننا طلاب علم، تحب الحقيقة أكثر من من أي شيء في الوجود، يؤسفنا أننا أزعجناك.
- عاوده القلق لدى سماع صوته، ولكنه كبح انفعالاته وقال :
- نحن لا يزعجنا شيء . حتى الموت نفسه لا يزعجنا. ونحن طلاب الحقيقة منذ الأزل وإلى الأبد .
- فقال على عويس:
- لعله اختلاف في وجهة النظر.
- لم يطالبكم أحد بالدخول في طريقنا.
- الآراء المتناقضة يا سيدي لا يمكن أن تعيش جنبا إلى جنب في سلام.
- فتساءل الشيخ بحرارة:
- ألا تعلمون أنه لولا الأكرم، لولا الأكرمية، لما كان لحارتكم ذكر ولا لأهلها شأن أو أمل.
- فقال عويس بثبات:
- الدنيا تتغير بلا توقف ولا رحمة يا مولانا.
- ولكن الحقائق باقية خالدة.
- التغير هو الشيء الوحيد الخالد يا مولانا!
- التغير؟!
- التغير في كل يوم، في كل ساعة، في كل لحظة. . .
- أراك تتعلق بظاهر كاذب خداع.

- معذرة يا سيدي فالظاهر الكاذب هو الجمود...  
ابتسم الشيخ مداراة لضيقه وقال:  
-لا وقت الآن لمناقشة الظاهر والباطن وإلا طال النقاش بنا دهرًا. بيد أنه واضح  
أنكم لا تؤمنون بطريقتنا؟  
لم ينبس أحد منهم بكلمة فقال الشيخ :  
- الصمت جواب، فهل تؤمنون بطريقة أخرى؟  
فاجاب احدهم:  
- لنا في الحياة سبيل آخر غير الطرق !  
- إجابة مفاجئة ، ترى ماذا تأخذون على طريقتنا؟  
فسأله على عويس:  
-هل يتسع با سبدي صدرك لصراحتنا؟  
- إنه أوسع مما تتصور.  
فقال أحدهم:  
- الحياة في حارتنا معاناة اليمة..  
وقال آخر:  
- إنها صحراء مخيفة مليئة بالأكاذيب.  
وقال على عويس:  
- صغار المريدين، وهم الكثرة الغالبة، حفاة خانعون.  
فقال الشيخ بعجلة:  
-إنهم راضون، والرضا مطلب روى مضمون به على غير أهله..  
- لا يملكون حيال قوتكم إلا الرضا وإلا ماتوا جوعًا، ولكن لا شك في أنهم  
يمرون حيارى بهذا البيت الكبير الغارق في الرفاهية..

- قال الشيخ بحدّة لأوّل مرّة :  
- بيت أبائي وأجدادي منذ أقامه القطب الأوّل.  
فقال الشاب بجرأة جنونية:  
- أقيم بأموال المريدين كسائر العمارات الشاهقة في وسط المدينة . .  
قام الشيخ محافظا على هدوئه ما أمكن. تقدم خطوات مستقبلا باب اليهو  
المفضى إلى الحديقة كأنما ليرطب انفعالاته تتم دون أن يلتفت إليهم:  
- قاتل الله الحقد والحسد .  
فقال الشاب ثملا باستهتاره:  
- إنهما وقود الحق إذا اختل الميزان.  
فقال الشيخ بازدياء:  
- وقودنا الحب وحده.  
- ذلك يا سيدي أنك لم تذق عض الجوع ولا ضراوة الكدح ولا رهبة القوة  
الغشوم. .  
وتحول الشيخ إليهم بنظره وهو يقول:  
- إذن فهذه هي المسألة!  
- المسألة؟!  
- إنكم تريدون نقودا؟!  
- بمعنى ما ولكننا لا نريد رشوة. .  
- ماذا تريدون؟ .. صارحوني كما وعدتم.  
أجاب أحدهم .  
- ليس في عقولنا مطالب أوضح مما نطقت به شكاوانا.  
وقال آخر:

- يريحنا أحيانا أن نطالب بنقيض ما هو قائم!  
فعبس الشيخ قائلا:  
- لا يخلو كلامكم من خدر هو التمويه نفسه . حسن، إني أشم رائحة فوضوية!  
فقال على عويس:  
- لا تهمنا الأسماء، وفي الوقت نفسه فهي لن تخيفنا...  
- لعلكم محلمون بالقتل؟  
- القتل؟!  
- بدأتم بالسخرية وستنتهون بالدم...  
- أحلامنا تحوم حول هدف واحد هو التقدم..  
- يا فتى، إني جامعي مثلكم!  
- نعرف ذلك يا سيدي .  
- فعاد إلى مجلسه وهو يقول:  
- فلنتحدث كزملاء.  
- هذا شرف كبير لنا يا سيدي.  
- فابتسم مستردا بذلك هدوءه وقال:  
- إنكم شباب في مقتبل العمر، أمامكم فرص لا تحصى للتعلم من الكتب  
والحياة والزمن، فأى خطأ تعثرون به قابل للإصلاح ؛ لذلك لا يزعجني كثيرا  
أنكم لا تؤمنون بشيء...  
- لا نؤمن بشيء؟!  
- أتؤمنون بشيء؟  
- إن من يعمل فلا بد أن يؤمن..  
- كثيرون يعملون كالألات.

- ولكننا نعمل بحماس صادق.
- فلعله الطموح؟
- هز على عويس رأسه هزة غير القانع ثم تساءل:
- ألا يستحق العلم أن نؤمن به يا مولاي؟.
- إنه معرفة باهرة، وهو من أحب القراءات إلى نفسي.
- وما رأيك فيه؟
- إنه باب من أبواب العبادة.
- وقوته على السيطرة والتغيير؟
- خير كثير وشر كثير .
- هو خير خالص ، أما الشر فيجيء من أوضاع إنسانية معوجة ...
- فما الذي يوجه الإنسان نحو الخير؟
- وعي حكيم في مجتمع سليم .
- قال الشيخ بنبرة راسخة قوية:
- لا إيمان حقيقي إلا بالله ولا خير حقيقي إلا بالله وفي سبيل الله .
- وساد صمت فترامي من الحديقة نقيق، وخشخشة أوراق، على حين ارتفعت من الحارة ضجة عابثة ضاحكة. جعل الشيخ ينقل عينيه بينهم . لم يستطع تجنب النظر إلى عويس ، وقال :
- لعلكم تؤمنون بالإنسان، هكذا يقال كثيرا في هذه الأيام، ولكن ما قيمة الإيمان بالإنسان بغير الإيمان بالبطولة؟
- أجب أحدهم:
- لا قيمة لشيء بغير البطولة.
- أي ضمان للبطولة . وهي تضحية بالنفس والمال . بغير إيمان كامل بالله؟!!

- من المؤمنين من لا بطولة لهم والعكس صحيح!

- على أي أساس تقوم بطولاتهم؟

- إيمانهم بأنفسهم وبعلمهم!

- غير كاف وحده.

- التربية الرشيدة.

- ولا هذه.

فقال آخر:

- قد نستعين في ذلك بالعقاقير كما نستعين بها على مقاومة الأمراض!

ابتسم الشيخ على رغمه ولكنه قال بامتعاض:

- حبوب للتضحية . حبوب للشجاعة .. حبوب للأمانة .. ما شاء الله!

فقال على عويس منفعلا:

- لا تسخر منا يا سيدي ، إن جميع ما حولنا يثير الحزن الشديد . لقد ضقنا بكل

شيء ونريد لكل شيء أن يتغير ، وقد ورثنا هذا العالم عن آباء وأجداد ظنت بهم

الحكمة يوما ما فحق لنا أن نتنكر لهم ولتراثهم.

فتمتم الشيخ ممتعضا.

- أسفى على الآباء والأجداد.

- نحن أجدد بالرتاء منهم. .

تفكر الرجل قليلا ثم قال:

- الآن عرفت لم تسخرون من الطريقة وأهلها. . .

فقال أحدهم:

.إنك يا مولانا رجل مثقف، وليس جمعك بين البدلة والعمامة عبثا، وإن خيرا

كثيرا يرجى منك لحارتنا. . .

- ترى ماذا يرجى مني؟  
- لا شيء يخفى على فطنتك...  
- أعطني مثالا يا بني..  
فقال على عويس:  
- أن تمزق ستار الأكاذيب الذي يغشى حارتنا.  
- الأكاذيب؟!  
- كالتناقض بين شعار الزهد والممارسة الفعلية للتسلط واقتناء العمارات  
الشاهقة!  
وقال آخر:  
- والكف عن التغني بالخرافات.  
- الخرافات؟!  
فقال على عويس:  
- معذرة عن صراحتنا ولكننا بتنا نكره الكذب حتى الموت.  
- زيدوني صراحة!  
- نحن مقتنعون بأن شيئا لا يخفى عن فطنتكم..  
أعقب ذلك صمت ثقيل.. طال الصمت فلم يجرؤ أحدهم على خرقه.. وبذل  
الشيخ جهدا جبارا ليخفي انفعالاته. ونهض باسماء. قال:  
- ها قد تم التعارف بيننا، وذلك من فضل الحوار كما قلت في بدء الاجتماع.  
فقال أحدهم:  
- نرجو أن تغفر لنا صراحتنا.  
فقال الرجل بهدوء:  
- ليغفر لنا الله جميعا.

صافحهم واحدا واحدا . غادروا اليهو . ولما خلا المكان اكفهر وجهه . وروح عن  
انفعاله بالحركة ذهابا وجيئة . لم ينتبه إلى عودة الشيخ عمار حتى مثل الرجل  
بين يديه . وضع يده على كتفه وهو يقول:

- كما أخبرتني وأكثر .

تمتم الرجل:

- أبالسة يا مولاي .

- يريدون سلب أموالنا والقضاء على نفوذنا وإهدار قيمنا ..

- وهم يتكاثرون وتتسلل زندقتهم إلى النفوس الضعيفة ..

- وابن سواق الكارو صاروخ مدمر .

- قلت إنه أسلطهم لسانا .

- بل هو شر من ذلك ..

- والعمل يا مولاي؟

ابتسم الشيخ محمود قائلا:

نحن قوم الحب غايتهم الأولى والأخيرة .

فابتسم الشيخ عمار بدوره قائلا :

- الآن عرفت سبيلي يا مولاي ..

- سأفعل ما يمليه الحب علي ، حبنا لمقدساتنا . وحبنا للمريدين الأبرياء!

وتبادلا نظرة طويلة .

٢

جلس على الديوان تحت النجفة يرنو إلى الحديقة بعينين نصف مغمضتين .  
إلى جانبه استكنت العمامة فبدأ شعره الأسود غزيرا مفروقا بعناية لم يتطرق

إليه أثر الشيب . ومن الحارة ترامت نداءات باعة الصباح مترنمة . وفي الحديقة تألقت أوراق التوت والحناء والأعنان تحت دفقات حارة من أشعة الشمس . استغرق في تأملات حتى انتبه على حفيف ثوب ، نظر نحو جارية سوداء طاعنة في السن جدت في البحث عنه بعينين عمشاوين .. ناداها برقة :

- أم هاني ..

اتجه وجهها النحيل الضامر نحو الصوت ثم همست :

- امرأة تريد مقابلتك .

جاءت امرأة في أواسط العمر، صافية السمرة، تعكس عيناها السوداوان نظرة جادة متجهمة تستقر في أعماقها كأبة ثابتة. لبس العمامة ووقف في دهشة أوشكت أن تكون انزعاجا لولا نجاحه في ضبط مشاعره . قال :

- زينب! .. أهلا .. تفضلي .

مد لها يده فصافحته بعد تردد ودون أن يند عن وجهها أي تعبير إنساني .

كيف حالك؟ .. أهلا أهلا، تفضلي بالجلوس .

- جلست على مقعد قريب من الديوان . ظل واقفا وهو ينعم فيها النظر ثم قال -

- لم أرك منذ عمر طويل، عمر طويل حقا، ولكني تابعت نجاحك بإعجاب ..

قالت بلهجة قاطعة في التركيز على الهدف الذي جاءت من أجله :

أرجع إليّ أخي!

حدق فيها متسائلا وقال:

- ماذا عن أخيك؟ لقد اجتمعت به مع بعض زملائه في هذا المكان منذ أيام

قلائل...

لازمت الصمت كأنها لم تسمع شيئاً، فواصل حديثه:

- دعوتهم بعد أن بلغني عنهم ما بلغني، لا شك في أنك سمعت بما يقال. وتناقشنا طويلاً، والتزمت في حديثي معهم بالرفق والسماحة وسعة الصدر، ولم أضن

عليهم بالنصح الرشيد ..

فقالت من دون أدنى تأثر بكلامه:

.أرجعه إليّ من فضلك!

- ماذا تعنين؟

.أنت تعرف ما أعنيه تماماً ..

- صدقيني ..

فقاطعته بهدوئها المبيت :

-لقد ألقى القبض على الجميع فجر اليوم .

-علمت بذلك الساعة فقط ولكني لم أفهم معنى لقولك بعد .

فقالت دون مبالاة بأقواله :

- لذلك أكرهت نفسي على هذه الزيارة .

الحق أنى نسيت لدى رؤيتك كل شيء .

- إن الأخطاء ينسى بعضها بعضها ..

فقال محتجاً :

- يا للعجب، إنك تسيئين بي الظن!

- نعم..
- مغالاة جاوزت كل حد.
- أرجع إليّ أخي.
- أي تهمة وجهت إليهم؟
- يقيني أنهم أبرياء.
- إذا كان بريئاً فسوف يرجع إليك دون شفاعاة .
- لست أطلب شفاعتك، ولكنى أطلبك بإصلاح خطئك .
- قطب قائلاً :
- اقتلعى هذا الوهم من رأسك .
- ليس وهما ما أعتقد، إنك أكبر من أي وهم !
- سامحك الله .
- إنه يسامح الولايا والضعفاء والمخدوعين والمغلوبين على أمرهم ، ولكنه لا يسامح الأشرار والمنافقين.
- صدقيني ..
- فقاطعته :
- لا أستطيع أن أصدقك.
- لا دخل لي فيما حصل لأخيك.
- أنت أبلغت عنه أو أحد رجالك بإيعاز منك.
- هز رأسه هزة المتسامح وقال :

- لم يكن بحاجة إلى من يشى به، ارتفعت أصواتهم في كل مكان، ودوت ضحكاتهم بالآراء الهدامة..

- ليس فيما قالوا جريمة، ولكن انقلب الحال بعد مجيئهم لمقابلتك ...  
- ماذا تعين؟

- أحلام شباب لا تؤذى أحدا من الأبرياء، ولكن مادت الأرض عندما تطرق الحديث إلى شخصك .

- كلا ، ولكنهم لا يؤمنون بالله، لا يؤمنون بشيء .  
- أتؤمن بالله أنت؟

آيتها الجارة .. اتقى الله ..

- ماذا لديك من درجات الإيمان التي تحفظها عن ظهر قلب؟!

- لا تحكي على رجل لم تريه منذ عمر طويل .

- كثيرون . حتى من مريديك . يعرفونك على حقيقتك ..

- لا تعرضي بقوم يدينون لي بالولاية .

- إنهم يطيعون نداء المصالح .

- ليسعك حلبي إلى ما لا نهاية .

- لم يغضبك كفره المزعوم ولكن أغضبك رأيه في عماراتك الشاهقة في وسط المدينة ...

- ليغفر الله لك سوء ظنك ...

فعادت تقول يهدونها الميت :

- أرجع إلى أخي .  
يتعذر على التدخل في مثل تلك الأحوال.  
- ما دام في قدرتك أن ترسله إلى السجن فلن يتعذر عليك إخراجه.  
جلس الشيخ على الديوان . ابتسم ابتسامة من يأسى على نفسه . قال معاتباً :  
- ليغفر الله لك .  
ثم واصل حديثه :  
- أعتقد أن الإجراءات التي اتخذت معهم لا تعدو أن تكون نوعاً من الزجر ليس إلا ، ومن أجل خاطرِكَ سأبدل سعياً حميداً ولكني لست واثقاً من النتيجة .  
أرجو أن تعدل عن سوء ظنك بي ، إن اتهامك فوق احتمالي ، ولا يليق بمركزى سواء في الطريقة أو في الحارة ، ولقد حرمت على أتباعي حق الدفاع عن مقدساتهم إيثاراً للحب والسلام .  
- إني عاجزة عن تصديقك ، لديّ من الأسباب ما يحملني على إساءة الظن بك دائماً وإلى الأبد ، ولكني ما كنت أتصور أنك ستلاحقني بالأذى جيلاً بعد جيل!  
-إني بريء مما ترميني به.  
-إني أصدق قلبي وهو خير دليل .  
- صدقيني .  
كلا ، ولكن أرجع إليّ أخي .  
- وعدت بالسعي .  
- سيعرف أهل المقبوض عليهم الرجل المسئول عن ذلك أجلاً أو عاجلاً .

فقال بحدة:

- جيل شرير من الأبالسة ، أوغروا الصدور بضلالهم ولا أحد من العقلاء يضمّر لهم أي عطف .

- إنهم أفضل مما تظن .

- أهذا رأيك؟

- يودون الخير من أعماق قلوبهم .

- هل حدثك أخوك عن آرائهم؟

- أعرف أحلامهم .

- يا لخيبة الأمل، كدت أطالبك بالمعونة على تهذيبه.

- لقد أحسنت تربيته .

- إذن كيف نشأ على الحقد والحسد والتعلق بآتفه ما في الحياة؟!

- آتفه ما في الحياة؟!

- زينة المال الكاذبة وما يتبعها من شهوات .

تنهدت زينب وقالت :

- يا لك من رجل تفوق جراته الخيال !

فرّق بينهما سمت . أراح رأسه بالنظر إلى الحديقة . تلقى دفقة من انفعالات

طارئة . وكأنما يخاطب نفسه :

- يا للذكرى، ها هي ذي نفحة من الماضي تهب كأنما تهب من بستان ، حاملة

عرف عرق خاص، لعله عرق الإبطين، ناشرة صورا مطوية في قلب الزمن، تثير

الحنين بقدر ما تثير الشجن .

- ماذا تعني؟

عاد يحدق فيها ثم قال :

- ما زلت جميلة كما كنت..

فهتفت بحدة .

- يا لك من رجل مريض!

- ليكن لسانك نفحة من ذكريات لا تصلا للطعن والقتل .

- كأنك إبليس بلحمه ودمه .

فقال باسماء في غموض:

- هيهات أن تعرفي عذابات رجال الطريق.

- ولكنني أعرف المنافقين .

فقال متوعلا في الانفعالات الطارئة :

- القلب نبع يفيض بمنصهر المعادن النفيسة والخبيثة ، والسرور توءم الحزن.

- إنك تهذي.

ولكنه باخ. آفاق تماما. تراخت شفتاه امتعاضا . قال بفتور :

- ارجو الا يخيب مسعاي إرجاع الجميع إلى بيوتهم .

- أرجو ألا أضطر إلى المجيء مرة أخرى .

- بوسعك أن تفعل شيئا لتجنيب حارتنا ويلات نزاع يوشك أن ينقلب داميا .

- بوسعك أنت أن تفعل هذا خيرا مني .

تساءل عابسا :

-أتجربن مجراهم؟! أطمعين أنت أيضا في مالي الحلال وولايتي المستمدة من  
كرامات جدى الأكرم؟!!

- إني أصغر شأننا من أن أنهك إلى ما ينبغي لك .

- بفضل طريقتنا يؤمن أحقر رجل في حارتنا بأنه أصل الوجود وغايته؟  
فقامت وهي تقول :

- هل أغنانا ذلك عن تعاستنا شيئا؟!!

فقام أيضاً وهو يقول محتدا :

- إنك على وشك الزيغ يا زينب.

- إني منتظرة وعدك.

- كان أبوك مريدا صادقا .

- رحمه الله

- مات سعيدا كما يجدر بمؤمن.

- ولكنه عاش عيشة مريرة!

أهم ما في الحياة هو الموت !

مضت نحو الباب وهو تقول :

إني منتظرة وعدك..

\*\*\*

في هذا البيت المقدس! وفي هذه الحجرة المباركة، عليك لعنة الله...

\*\*\*

همّ بقول شيء قبل أن تختفى ولكنه أطبق فاه، ثم ذهب إلى النافذة فأزاح الستارة وألقى نظرة يتابع مسيرها ..

٣

دخل بهو الاستقبال فرأى الشيخ عمار في انتظاره.. صافحه دون أن يخفى دهشته وهو يتساءل :

خير.. ما جاء بك في هذه الساعة وقد أوشك الليل أن ينتصف؟  
فأجابه الرجل وهو يغض البصر :

- لا غرابة أن نوجد في هذا البيت في أي ساعة من نهار أو ليل ...  
- جواب حسن

جلسا والشيخ يمسح وجهه بمنديله ويقول :

- في الخارج عاصفة ترابية أخشى أن تدفن الحارة دفنا، في هذا الجو يضيق الإنسان بالحياة وتضيق الحياة بالإنسان، وعجيب أن نكون من تراب وجزع هذا الجزع للفتحة منه، وفي كل خطوة يصادفك شاب من أولئك الشبان، لقد بذلنا لهم مسعى طيبا ولكنهم لا يبديون شاكرين، كلا، إنهم أبعد ما يكون عن الشكر، وما أجدر اللثام بأن يظنوا الاستجابة الطيبة ضعفا، وذاك الشاب المتهور حدجني اليوم بنظرة متحدية، وقديما قيل : اتق شر من أحسنت إليه! للعتة ا لم تعد الحارة بالحارة التي أولتتنا الإمامة ولا الزمان بالزمان الذي طاب لنا! أكنت تنتظرني يا شيخ عمار؟

غمغم الرجل :

- نعم يا مولاي ...

- ماذا أرى؟! .. إن وراء نظرة عينيك أنباء لا تعد بخير؟ ..

- حفظك الله من كل سوء يا مولاي.

-ماذا حدث؟ هل وقع انقلاب خطير في نظام الكواكب؟!

- الدنيا بخير، ولن ينال من كمالها عبث الأبالسة ...

تساءل الشيخ بضيق:

- ماذا وراءك يا رجل؟

- نحن قوم خلقنا الله لنواجه الشدائد بقلوب أشد منها.

فقال بجزع :

- هات ما عندك ، كلما استفحلت المصيبة كان الإيجاز أليق بها؟

فقال الشيخ عمار بعناد:

- ليس من الوفاء أن نخفى عنك أمرا باتت تلوكه السنة الكثيرين .

قال بنبرة غاضبة:

- تكلم

- ثمة نشرة مطبوعة كتبت بمداد حقد أسود .

- نشرة مطبوعة؟

- نعم .

-للتشهير بنا؟

- ما يشهرون إلا بأنفسهم.
- وأخرج من جيب جلاببه نشرة على هيئة كتاب بغير غلاف مطبوعة بالرونو، وسلمها إليه مطرقا. تلقاها الشيخ متجهما، تفحص صفحاتها الأولى، فرّها بسرعة ، ثم عاد إلى صفحاتها الأولى.
- ياله من عنوان غريب: "ماذا يعرف عن الأكرمية" ، ولكن منذا الذي لا يعرف كل شيء عن الأكرمية؟!
- نظر في عيني الرجل متظاهرا بالاستهانة ثم سأله :
- أقرأتها؟
- نعم يا مولاي .
- مهارات؟!
- نفثات شيطان رجيم.
- هل وزعت على نطاق واسع؟
- على جميع من يعرفون القراءة في حارتنا .
- متى حدث ذلك؟
- لم أدر بها إلا اليوم .
- لقد تم الإفراج عن الأبالسنة منذ عشرة أيام .
- أطرق الشيخ عمار صامتا فتساءل الشيخ محمود ساخرا:
- هل يحرمنا ما جاء بها من الحياة أو يصد الحياة عنا؟!
- معاذ الله يا مولاي

- نحن نعرف أعداءنا كما نعرف أصدقاءنا .  
ومضى يقرأ بسرعة وهو صامت وتند عنه كلمات من أن لأن .  
-توجد مقدمة، ما شاء الله، كما يليق بالكتب العلمية، ماذا تقول المقدمة؟...  
"الحقيقة هي الحقيقة، لا تحتاج إلى أسباب تبرر نشرها على الناس، علينا أن نتقبلها دون تحريف وبشجاعة تليق بالبشر وإن تغير أسلوب حياتنا ليتوافق معها. فنحن لا ننشرها بقصد الإساءة إلى أحد، ولكن إثارة للحق ونشدانا للخير". ما شاء الله، أي حقيقة يا أوغاد؟ أبواب ثلاثة؟ أي أبواب أيها اللئام؟  
الباب الأول عن "البيت الكبير"، والثاني عن "الأكرم صاحب الطريقة الأول"  
والثالث عن "السلوك في الأسرة الأكرمية" ما شاء الله .. ما شاء الله ..  
وراح يقرأ مستغرقا صامتا والرجل يراقبه بإشفاق ، وعلى حين بغتة هتف:  
- اللعنة ..الجحيم.. .  
ورجع إلى الأسطر وقتا آخر ثم صاح بحنق .  
- الحمقى يتناسون أن الآلات الحادة قادرة على تحطيم الجماجم الخاوية إلا من ظلمات الكفر ...  
وواصل القراءة بوجه مكفهر وشفيتين قلقتين حتى هتف :  
- أشهد الله أني قوة إذا شاءت اقتلعت أعداءها الجبناء من جذورهم المغروسة في الطين ..  
وانكب على النشرة بنظرات مفترسة وأسارير تنضح بالعنف حتى قال بصوت متحشرج :

- إذن فلتتوقف الأرض عن الدوران أو فلندبر في عكس اتجاهها ..
- رمى بالنشرة أرضاً. انتتر واقفا . وعلى رغم غضبه الأحمر بدا منهار القوى مهدم  
البنيان . هرول إلى مدخل الحديقة , ضرب الأرض بقدمه . ثم رجع إلى موقفه  
مسددا بصره إلى الشيخ عمار الذي وقف بدوره تأدبا، وقال :
- أى وقاحة ، أي جنون ، أى تجديف ، أى دعاة؟!  
وكور قبضته ثم استرسل:
- الهذيان لغة دارجة، درجة الحرارة الطبيعية هي درجة الموت ، التاريخ قتل  
غيلة، المسك سم زعاف، الأضرحة الطاهرة متاحف حشرات محنطة، لا أنت  
أنت ولا أنا أنا ولا تعجب للدواب إذا زحفت علينا لتعلمنا كيف يكون السلوك  
في هذه الحياة للعينة!
- قال الشيخ عمار بإشفاق :
- نحن في موقف يقتضينا أقصى ما نملك من حكمة .
- والجنون لماذا خلق إذن؟
- مولاي، علينا بالحكمة التي نبشر بها وإلا أفلت منا الزمام .
- أيها العجوز ، لقد كنت الذي يحرضني وكنت الذي يحذرك .
- هذا موقف جديد لم يسبق لنا مواجهته من قبل .
- فلوح بيده وهو يصيح :
- الويل له .. الويل لهم .
- نحن لا نعرف المجرم إلا ..

- إلا؟
- إلا بالظن .
- لا تغالط ضميرك.
- عيون رجالنا في كل مكان فلننتظر.
- سواد الكتاب برهان قاطع على مداد الحقد الذي استمد منه!
- الحكمة.. الحكمة ..
- وندعه يقوم بيننا ساخرا مجدفا؟!
- لنلتق الضربة بعقل ولندير بعقل آخر .
- لو تفشيت هذه الأكاذيب لقضت علينا.
- الأكاذيب لا تقضي على إنسان ولكن قد يقضى الإنسان على نفسه.
- صاح بغضب :
- أكافح أنا أمواج الغرق العاتية على حين تجلس أنت على بر السلامة تتغنى  
بالأقوال الحكيمة؟!
- أضرع إليك باسم صاحب الضريح ألا تقدم على خطوة إلا بعد امتحان وتدبر  
وتفكر.
- لقد أذهلتك الضربة .
- فقال عمار بهدوه :
- سنضرب ضريتنا، ولكن علينا أولاً أن ندرأ عنا الشبهات .
- وكيف يتأتى لي أن أمشي في الحارة مرفوع الرأس بعد اليوم؟!

- المؤمنون بنا أضعاف الكافرين .
- ولكن الكافرين أقوى على الشر ..
- لم يئن أوان المعركة بعد، علينا ألا ننفرد برأي، وعلينا أن نرد على النشرة بالعلم واليقين فلن يبدد العراك ظلماتها .

فقال الشيخ متأوها :

- إجراءات من طبيعتها أن تطول أكثر من ليلتي الحالكة !

فقال الرجل بدهاء :

- المعركة قل جلاء الحق اعتداء، ومن شأن الاعتداء العاشم أن يكسبهم عطفاً لا يستحقونه، وسوف يشجعهم ذلك على مقابلة الاعتداء بمثله وهم عدد لا يستهان به، ورجالنا ورجالهم في النهاية ينتمون إلى هذه الحارة التي كتب عليها العناء ..

فتسائل في جزع:

- متى وكيف نبداً ؟

فأجاب الرجل بعد تردد:

- هنالك رجل لا غنى عنه في هذا المأزق .

قطب الشيخ متمتما :

- الشيخ تغلب الصناديقي؟

- نعم .

فقال ممتعضاً :

- لقد هجرنا منذ عهد بعيد، ورأيه فينا غير خاف على أحد! .
- أعلم ذلك يا مولاي ولكنه ما زال إماما من أئمة الطريقة ولن يتردد في الدفاع عنها بعلمه الغزير .
- تنهد ثم قال :
- عليك بإقناعه بالمجيء إليّ ..
- سأذهب إليه مع الصباح الباكر .
- اذهب إليه في الحال ..
- مولاي .. لقد انتصف الليل .
- اذهب إليه في الحال، وإن بدا منه اعتراض فذكره بأبي إمامه وصديقه .
- أحنى الرجل رأسه ومضى والآخر يقول :
- قل له إن رياحا مليئة بالأوبئة انقضت على الطريقة تروم اقتلاعها من جذورها المقدسة .

٤

لاح في مدخل الجهو . تقدم متوكئا على عصاه بعد أن أوصله الشيخ عمار ثم ذهب، في جلباب أبيض بسيط ناصع البياض، تطوق وجهه الضامر الوضىء لحية بيضاء مسترسلة حتى منتصف الصدر. وعلى رغم طعونه في العمر تألقت عيناه بحيوية جذابة ونشاط روجي أضفى على أساريره جمالا يجمع بين النضارة والعتاقة اختصت به الشيخوخة المستكنة في أحضان البراءة والتقوى . هرع الشيخ محمود إليه فصافحه بحرارة وهو يدارى حرجه بابتسامة، ثم مضى به

إلى الديوان فأجلسه وجلس إلى جانبه. أرتج عليه القول لحظات ثم قال :

- حللت أهلا وسهلا في بيتك بعد غيبة طويلة !

فقال الشيخ تغلب ببساطة :

- كتبت علينا التلبية عند النداء .

- لم يرتج الشيخ محمود للإجابة تماما ولكنه قال :

- أعترف بأن غيبتك إنما ترجع إلى تقصيرنا .

فقال الرجل بصراحة :

- هذا حق!

- ابتسم الشيخ على رغم غمه وكمده وقال :

- كأنك أصغر مني سنا، إنك رجل سعيد، إنني أغبطك!

- خفف الله عنك .

- دعني أشكر لك تفضلك بالمجيء في هذه الساعة من الليل.

فقال الشيخ تغلب بنفس البساطة والصرامة :

- كنت من دعوتك لي على انتظار!

صدمه قوله. أذى مشاعره، ولكنه تساءل:

- حقا؟!

- نعم.

- لعل النشرة بلغتك؟

- نعم.

فقال بكآبة جديدة :

- لا أجد لها أثرا في وجهك الكريم!

- اى اثر توقعت؟

- الأثر المنشود لدى إمام من أهل الطريقة .

فارتفع صوت تغلب الصناديقي وهو يقول :

- لم يعد للطريقة أهل!

فانقبض قلب الشيخ محمود وقال :

- الوقت غير مناسب لإثارة الخلافات القديمة .

فقال العجوز بحدة :

- لم يبق من الطريقة إلا الأغاني والأذكار والندور والعمارات !

- بقى الإيمان وهو كفيل بتجديد الحياة في أي لحظة.

- ليست الولاية أن ترث العرش ولا أن تقرأ كتب الأقدمين والمحدثين، ولكنها

طريق طويل شاق لا يقدر عليه إلا أهل الإيمان الحق.

\*\*\*

- تزوج ، وابدأ الطريق، وإلا فاتك قطار الرحمة إلى الأبد ..

\*\*\*

- لم نتخل عن الإيمان ساعة، وهو يتبعنا كظل من العذاب، ولكننا وقعنا في

أحابيل زمان عجيب .

- أي زمان يمنع الرجل الصالح من التطلع إلى الأفق الأبدى؟!!

تنهد الشيخ محمود قائلاً :

- ليتنا ننسى خلافاتنا في هذه الليلة المكشرة عن أنياب الشر.
- أنسيت أنني لم أرك مذ كنت شاباً وها أنت ذا تناهز الأربعين؟
- قاطعتنا ونبذت عشرتنا يا شيخ تغلب .
- ذلك أني أضن بوقتي على غير الاجتهاد.
- لا يجوز أن تتقطع الأسباب بيننا ..
- رحم الله أباك .. أما أنت فلم تذكرني إلا حين هبت الأعاصير على مجدك!
- فامتعض الشيخ محمود وقال مصححاً:
- بل على الطريقة يا شيخ تغلب ....
- الطريقة؟! لقد تقوضت على يدك .
- لن أناقشك ولكني أطالبك بواجب الدفاع عنها .
- ثم بتوكيد :
- إنك رجل القلم، مؤلف أشعار الأكرمية وفلسفتها والعالم بأسرارها وأول من يحق له الدفاع عنها.
- أقرأت النشرة؟
- قرأت نشرات الأبالة المدسوسة فيها .
- هز العجوز رأسه وقال :
- تريد أن أرد عليها؟
- هذا ما أطلبك به ..

- لا رد عندي عليها!

- ماذا؟!

ندت عن الشيخ محمود صيحة توجع وقطب غاضبا ولكن الآخر قال بهدوء:

- ليس عندي ما أرد به عليها.

-ماذا تعنى يا شيخ تغلب؟

- أعنى ما قلت حرفيا ..

- أتعنى أن ما جاء بها حق؟!

- أجل يا مولاي .

ضحك ضحكة جافة باردة وحملق في وجه العجوز بذهول :

- إنك لا تعنى ما تقول ..

- قلت إننى أعنيه حرفيا .

ضرب يدا بيد وصاح:

- إلى بعقل جديد لأقترب من هذه الأحاجي!

- يلزمك عقل جديد حقا .

- عما قليل سيعتلي الجنون عرش الطبيعة!

- لم يجدّ جديد يدعو إلى ذلك ..

- لقد اختلفوا الأكاذيب بغية القضاء علينا.

- لم يخلقوا أكاذيب، ولكنهم عرفوا السبيل إلى مخطوطات قديمة بدار الكتب.

- زيفها ولا شك أعداء الأكرمية؟

- بل وضعها يريدون من أصدق المريدين القدامي.
- يريدون صادقون؟! . أنت تقول ذلك؟
- نعم ..
- أكنت على علم بها من قبل؟
- نعم، ولكني تكتمتها لاعتقادي بأنه قد يساء فهمها .
- لا أصدق أنهم كانوا مريدين صادقين.
- فقال الرجل بنيرة تنم على الاحترام:
- كانوا ثلاثة، الشيخ أبو كبير أولهم وقد عكف على دراسة بيوت الأكرمية، والشيخ الدرمللي ثانيهم، وكان حجة في معرفة رجال الكرمية، والشيخ أبو العلاء ثالثهم وقد ولع بتأريخ أهواء القلوب .
- فصاح الشيخ محمود :
- أوغاد كذابون!
- بل يريدون صادقون. كان الأولان تلميذين للقطب الأكبر عبد الله الأكرم، أما الثالث فكان مريدا لوالدك رحم الله الجميع .
- لن أصدق أن الشمس تشرق من المغرب ولو أجمع على ذلك المريدون ...
- إلى الشيخ أبو كبير يرجع ما ورد في النشرة عن البيت الكبير.
- فقال الشيخ محمود بحنق :
- هذيان ما يقول، من يصدق أن بيتنا هذا ما هو إلا فرع من فروع لا حصر لها من بيوت الطريقة، لا أنه الأصل الذي انبثق منه النور؟!

- لم يقصد الحط من بيتكم، كلا، عنى بدراسة بيوت الطريقة الأكرمية فسافر من أجل رسالته إلى الشام وشمالى إفريقيا وإيران ثم قرر الحقيقة التى لا ضمير منها وهى أن هذا البيت الكبير ما هو إلا مقام أنشأه الأكرم، بيت من مئات البيوت التى سبقته إلى الطريقة، بل هو آخر بيت وصل إليه النور والهدى.

- يا للفضاعة! ..

- قل يا للحقيقة!

- جدي هو مؤسس الطريقة وبيته هو الأصل والمركز.

- إنك غاضب للكبراء لا للطريقة ، طريق الله مفتوح للجميع، وشرف العزة فيه للواصلين مهما يكن موقعهم.

فهتف محمود وكأنما يخاطب نفسه:

- الهواء يختفى ليحل محله الحزن، ولن يوجد بعد اليوم مبرر لكى يحافظ العاقل على عقله ولا لبراء المجنون من جنونه.

- تأمل ولا تحزن، كم صادف أبو كبير فى تجواله من بيوت ظن أصحابها أنهم الأصل والمركز .

- ود أن نضيع فى زحمة لا نهائية !

- النور لا يضيع أبدا ولا يفنى ...

- إنك تسلبني العزة لتبني بلاغة لفظية .

- إنك تعاني لأنك لم توجه إلى الطريق قلبك ... لم يشغله إلا الجاه، جاه وريث البيت الكبير. أما الأكرم نفسه ففنع بأن يقبس من النور شعلة أصلها فى هذه

الحارة التي أصبحت بفضلها مباركة..

قطب الشيخ محمود وقال:

- سوف يحتاج الناس لرؤيتنا إلى مجهر كبير!

- المهم أن يروا شيئاً يستحق الرؤية . .

قام الشيخ محمود فذهب إلى باب السلامك ثم رجع وهو يتنفس بعمق. وترامى من الحارة صوت يصيح كالمستجير: "يا سيدي الأكرم على بابك" فضحك الشيخ ضحكة قصيرة لم تنبسط لها أساريره إلا لحظة ثم عادت إلى اكفهرارها، أما الشيخ تغلب فقال:

- وإلى الشيخ الدرمللي يرجع ما ورد في النشرة عن القطب الأول، جدك الإمام الأكرم.

فقال الشيخ محمود بحدة:

- ذاك الذي رام نسف الأكرم نسفا.

- ليس في وسع إنسان أن ينسف مولانا الأكرم .

فقال الشيخ محمود برجاء:

- إذن فأنت تؤمن بكذب ما جاء عنه في النشرة؟!!

- كلا!

تلقي الطعنة في صميم قلبه وهتف:

- يا للفضاعة يا شيخ تغلب! ألم تعد تؤمن بأن الأكرم جاء مصر بين يدي سلسلة من الكرامات؟!!

- فلاذ الرجل بصمت قاس مغلق المنافذ حيال أي رحمة .
- أتصدق أن القطب الأعظم جاء مصر هاربا عقب ارتكاب جريمة شنغاء!؟
- لم يخرج العجوز عن صمته الرهيب القاتل.
- وأن اسمه الذي عرف به ها هنا وهو الأكرم محور عما شهر به في الخارج وهو  
المجرم!؟
- أصر العجوز على صمته فقال الشيخ محمود يائسا:
- وأنه جاء الحارة أشعث أغبر عاري الجسد لا يختلف شيئا عن الحيوان  
الأعجم!؟
- وتبادلا نظرة طويلة وهو يلهث ثم سأله متحديا :
- أتصدق ذلك من مولاك الأكرم!؟
- عند ذلك تمتم الشيخ تغلب الصناديقي:
- ما أجمل الهدى بعد الضلال! ما أجمل الاستقرار بعد التشرذم! ما أجمل الجلال  
بعد الهيمنة ! إنه مولاى الأكرم الذي بلغ بجده المراد وكفى!
- صاح الشيخ محمود:
- كذب، افتراء، إلحاد، حسد، حقد... من أولئك الثلاثة خلفت ذرية الأبالسة التي  
تعيث في حارتنا فسادا...
- مأساتك الحقيقية هي الكبرياء والغرور....
- أبالسة من ذرية شياطين...
- لم تحسن معاملتهم كما ينبغي لرجل من رجال الطريق.

فهتف مكورا قبضته في غضب:

- أنصاف مجانين يحلمون بإبادة الصالحين من البشر.

- ماذا صنعت من أجلهم؟!

- قدمت الحلم حيث كان يجب أن أقدم العصا!

- ثم دسست من وشى بهم إلى السلطة!

- لقد ترامت أصواتهم المزعجة إلى مراكز الأمن دون حاجة إلى وشاية.

- لقد زاروني، حدثوني عن العلم الذي يؤمنون به فحدثهم عن العلم الذي أومن

به، تبادلنا الاحترام طيلة الوقت، قلت إن العالم من رجال الله إلا إذا أراد أن

يكون من رجال الشيطان، قالو ليس من أهل الطريق من يلهج بالفسق

والجشع، فقلت ولا من العلماء من يهب قدراته للدمار!

وراح الشيخ محمود يحادث نفسه:

- كذب، افتراء، حقد أسود.

- قرب التفاهم بيننا حتى فرقت بيننا الشرطة!

فصاح الشيخ محمود بغضب:

- الويل، لن يبدد ظلمات الأكاذيب إلا الضربات الحاسمة.

- العراك سلوك غير جدير بأهل الطريق!

- إن صدق ما قال أبو كبير والدرملي فلا طريق هناك ولا طريقة...

- بفضل اكتشافاتهم وضح الطريق...

فقال الشيخ محمود ساخرا:

- إنى أرتدى البدلة وما على إلا أن أنزع العمامة ..
- لقد وضعتك الحقائق في موضع الامتحان، فاختر لنفسك ما يحلو لها!
- لا اختيار هناك، إنه طريق ذو اتجاه واحد .
- ثم خاطب نفسه :
- ويل لي من العذاب الذي يتبعني كالظل! .. ويل لي! .. وطوبى للذين يعيشون بلا ضمائر! ..
- فصل بينهما صمت كالجدار، وطال الصمت حتى قال الشيخ تغلب :
- وإلى الشيخ أبو العلاء يرجع ما ورد في النشرة عن السلوك .
- فصرخ الشيخ محمود:
- ذلك الداعر!
- قال العجوز بإشفاق لأول مرة :
- كان خادما في البيت الكبير قبل أن تولد .
- داعر ماجن سافل!
- الحق أنه اجتهد فصار من المريدين .
- كلماته تقطع بأنه قواد أو منحرف .
- لم يقصد الإساءة، صدقني!
- ذاك الوحش الذي يتلذذ بتمزيق الأعراض!
- كان يؤمن بأن الطريقة حب خالص؛ فتابع الحب في جميع أحواله!
- ذلك الداعر!؟

- كان الحب همه الأول والأخير، وأمن بأن في قلب كل إنسان بذرة حب إلهية مهما يكن من مساراتها فهي تتجه في النهاية إلى الحبيب الأوحدا!
- يا شيخ تغلب إن هي إلا أكاذيب افتريت بقصد القضاء على أسرتنا المجيدة!
- لو وهبت الطريق قلبك ما أكربتك الوسوس ولا اهتزت شعرة في رأسك لأقاويل الناس.
- يا ويلي من الذين ينثرون لي الحكم وأنا أحترق في الجحيم!
- لو عاصرك الرجل لوجد عندك مادة لكتاب قائم بذاته .
- فقال غاضبا متحديا :
- إني رجل محمل بالخطايا ولكني أنتهى إلى أسرة طاهرة مقدسة، وما أصحابك إلا دجالون مجرمون.
- لقد صارحتك بما عندي، هو الحق والصدق، ليس فيه ما يزري بقيمة حقيقية، ولا ما يسد الطريق في وجه مؤمن، وكما ترى لم يتزعزع لي إيمان بالطريقة ولا بصاحبها رضي الله عنه .
- سأقدم لك الدليل على كذبهم.
- و مضى نحو الباب المفضى إلى الداخل ونادي بأعلى صوته:
- يا أم هانئ .. يا أم هانئ..
- ثم التفت إلى العجور قائلا:
- إذا ثبت كذب أحدهم انهار البناء من أساسه.
- ولكن الشيخ تغلب قام وهو يقول أسفا:

-أستودعك الله، لا أحب أن أقوم بينك وبين مربيتك. إن وجدت جديدا فاستدعني، ودعني أقول لك مرة أخرى: "تأمل ولا تحزن وابدأ طريقك"  
قال العجوز ذلك ومضى نحو الباب الخارجي:  
على حين تحول الشيخ إلى الداخل وهو يصيح:  
يا أم هانى .. يا أم هانى.

٥

انتظرها في الردهة المفضية إلى بهو الاستقبال ، ثم قادها من يدها إلى المكان الذي أخلاه الشيخ تغلب الصناديقي . انسابت آثار النوم في تجاعيد وجهها وعينها الكليلتين وجعلت تتنأب بصوت كالأنين وهي تتساءل :

-كم الساعة الآن؟

-نحن في أواخر الليل يا أمه .

- وماذا يبقيك مستيقظا حتى الآن؟

- إنها ليلة لم تخلق للنوم فيما أرى ..

- لم والعياذ بالله؟

-فتفكر حائرا من أين يبدأ ثم تمتم :

- دعوتك لأمر مهمة، فأصغى إليّ جيدا وافتح لي قلبك بلا تردد ..

- ليكن ما دعوتني من أجله .

- الخبير يتوارى هذه الأيام في بطون الزواحف السامة .

- ماذا بك يا بني؟

- لقد عاصرت أبي وأمي وعمتي ، رببتنا جميعا وأرضعتنا .
- ليمد الله في أعمار الباقيين وليرحم من انتقلوا إلى جواره .
- فجلس إلى جانبها وهو يقول :
- أطالبك بالصدق والصرحة ولو زلزل ذلك السماوات السبع ، سنعود معا في رحلة طويلة إلى الماضي .
- الماضي؟!
- أجل، الماضي، الماضي الذي يتواري بمكر أحيانا كاللص ولكنه لا يموت ، ثم يبعث بغير دعوة ولا رغبة ..
- لا أفهم، عم تتكلم يا بني؟
- لا شك في أنك تتذكرين عمتي ..
- طبعاً، يرحمها الله .
- حدثيني عنها .
- أنت تعرف كل شيء عنها، ليرحمها الله .
- دعيني مما أعرف وحدثيني عما لم أعرف .
- ارتسم القلق في صفحة الوجه الضامر وقلقت شفتها دون أن يند عنها صوت.
- إنها لم تمت كما قيل يا أمها!
- ليرحمها الله .
- لم تمت، لا فائدة من الإنكار . عشرات وعشرات من أبناء حارتنا يعرفون اليوم الحقيقية فلا جدوى من إخفائها .

هتفت المرأة مستغربة :

- أبناء حارتنا؟!

- نعم، إنهم يقرءون مغامراتها بشغف شيطاني ويتندرون بها ..

- لا أفهم شيئا.

. ألم تسمعى عن الشيخ أبي العلاء؟

- رضي الله عنه .

-فلتمزقه أيدي الأبالسة في الجحيم الأبدى .

- يا رب السماوات !

تكلمي يا أم هانى.

-لم تفسد الطيبات التي أنعم الله بها عليك؟

- أستحلفك بالله .. بأبي ... بمولانا الأكرم .

- لا تحفر في الماضي الذي مضى .

- أحق ما يقال من أنها عشقت في شبابها ضابطا إنجليزيا؟

- يا أَلطاف الله !

- وأنها هربت إليه بليل ثم رحلا معا إلى إنجلترا؟

تراجعت العجوز في فزع، تمتمت :

- من؟! ... كيف؟! ... ارحم نفسك يا بني .

- هل مرقت من دينها حفيذة القطب الأعظم؟

- اللهم ارحمنا .

- كذبيني إن استطعت .
- أغمضت المرأة عينها في حزن ويأس .
- أكان بعض كبار الإنجليز يدعون إلى بيتنا هذا على عهد أبي؟
- كان له أصدقاء منهم ولا عيب في ذلك .
- ولكن أحد أولئك الأصدقاء الكرام انقض على أخته فطار بها .
- قلبي يتقطع يا بني .
- تمنيت أن تكذبيني، ولكن الحقيقة كالموت لا مهرب منها ولا نجاة .
- وهز رأسه في يأس ثم عاد يقول :
- وقيل وقتذاك في الحارة إنها سافرت للعلاج، ثم أذيع بعد ذلك أنها غرقت في  
البحار فأقيم مأتم أمه المريدون وغيرهم من أبناء حارتنا الطيبة الساذجة . كان  
أي شيء يجوز على حارتنا التي لم يعد يجوز عليها شيء .
- أطرقت المرأة حتى خيل إليه أنها نامت أو ماتت لم يجد في قلبه قدرة على العطف  
، ولكنه قال :
- لا تؤاخذيني على إزعاجك ، أنت أم الأسرة وسرها، وحولك تتفجر أحداث  
مفجعة فلا مفر من أن يصيبك رشاش منها !
- وكان يغوص في ظلمات اليأس بلا توقف ، بيد أنه لم يجد بدا من السير في طريق  
الأحزان حتى نهايته قال لها :
- حديثي الآن عن أختي رشيدة!
- رفعت المرأة رأسها في فزع.

- لا تجزي فلا يخفى اليوم سر .
- لتبعد عنا الشياطين!
- لكنها تزحف علينا من جميع الجحور .
- كف عن هذا العذاب .
- لقد خلقت هذه الليلة للعذاب .
- كأني لا أعرفك يا بني .
- ولا أكاد أعرف نفسي ولا طريقي ولا حارتي، ولكن قيل إنى مجرم من سلالة مجرمين .
- بنى !
- حدثيني الآن عن أختي رشيدة، لا تخافي عليها، إنها تعيش اليوم في كنف زوج كبير المقام في أقاصي الصعيد، ولكن سيرتها الخفية يقرؤها المطلعون من أبناء حارتنا .
- كيف تفتح أبواب الجحيم بيدك؟
- لقد فتحها الزبانية .
- انتحبت أم هاني بحرارة فقال :
- لا تبكى، لا فائدة، ولكن تكلمي .
- فهتفت :
- ليقطع لساني إن نطق بسوء .
- لقد لعبت البنت لعبة غير لا ثقة مع خادم، كذبيبي إن استطعت !

- اللهم احفظنا.
- لعبة ليست غريبة في هذا البيت ، فقد لعبتها أنا مع أخريات ! هكذا يتلقانا الشيطان جيلا بعد جيل .
- يا رب عفوك ورضاك!
- لا شك في أن أبي حزن حزنا بليغا، أخته فابنته ثم ابنه، لعله تساءل طويلا عن سر عذابه، ترى ماذا كان يقول في خلوته؟
- كما يجدر بالمؤمن الصادق .
- ولا شك في أنه عاني كثيرا قبل أن يعثر لها على زوج مناسب! تهمدت المرأة قائلة :
- لقد قصرت عمرى يا بنى ..
- كلانا يتلقى الضربات يا أماه .
- وغشمهما صمت غير قصير، ثم قادها إلى الداخل كما جاء بها وهو يقول :
- سامحيني، ، لقد حملتك من العذاب ما لا طاقة لك به .
- ولما رجع إلى البهو وجد الشيخ عمار في انتظاره . وقفا متقابلين يتبادلان النظر، ثم قال الشيخ عمار :
- أن لك أن تنام يا مولاي .
- ضحك الشيخ ضحكة لا حياة فيها، فقال الشيخ عمار :
- فلنفكر مليا ثم نشرع في العمل بلا تردد .
- فلوح الشيخ محمود بيده في غضب وصاح :

- يا شيخ عمار . . لا تحدثني بلغة الحكماء، فلسنت حكيمًا. إني مجرم تجرى الجريمة في عروقه منذ القدم، شد على قبضتك . . اشحذ سلاحك . سدد ضرباتك . نحن نخوض معركة حياة أو موت تحتاج إلى الدهاء والقسوة والعنف لا المأثورات الجميلة . إنك ثعلب ماكر وإني لفي حاجة إلى كل نقطة مكر في صدرك . لا تعن بالمحافظة على المظاهر الرقيقة فقد فاحت روائح الباطن الكريهة . إلىّ بجميع الشياطين التي تقيم في هذا البيت واستعر من تستطيع من شياطين الحي كله . كفاك خداعا بالفضائل الكاذبة . . واستخرج من قبور قلبك الرذائل الرائعة المخلوقة أصلا للكفاح والنصر. لتتصرف بسرعة . . وبقوة . . وبلا رحمة، ليكن سلوكنا كما ينبغي لأناس سادوا بعد هرب موفق من مسرح جريمة بشعة . . . ثم هاموا على وجوههم كالوحوش يأكل بعضهم بعضا . ولما شيدوا من أسلاب الضعفاء قصرًا جعلوه ميدانًا للألعاب الخسة والفسوق . . يا شيخ عمار هلم إلى ساحة الغدر والجريمة والعنف.

الوحدة الثانية  
أنا  
عباس محمود العقاد

## مفهوم السيرة الذاتية

يختلف مفهوم السيرة الذاتية بين اللغة والاصطلاح؛ يُقصد بها لغةً: الطريقة أو السنّة، والحالة التي نشأ عليها الإنسان، أمّا اصطلاحًا فهي سرد الأفراد لقصص حياتهم الخاصّة، وتعرض السيرة الذاتية قصة حياة صاحبها؛ فهي ولادة الماضي فقط، إذ يسترجع المؤلّف ويتذكّر ذكرياته ومن ثمّ يقوم بتدوينها، والسيرة الذاتية بالأدب تتراوح بين تفاصيل حياة المؤلّف؛ فهي إمّا أن تسرد حياة الشخص بأجزاء بسيطة أو تعرض يومياته، أو تهتم بسرد اعترافاته الشخصية؛ لذلك فإنّ فنّ السيرة في الأدب العربي جمع بين التاريخ وبين الشخصية نفسها، وبذلك أشار بعض علماء النفس والاجتماع إلى أنّ السيرة الذاتية تمنح المؤلّف فرصة إعادة رسم تاريخه الخاص.

### السيرة الذاتية في الأدب القديم

بدأ فنّ السيرة الذاتية كغيره من الفنون الأدبية، كالرواية والمقالة، والقصة، والمسرحيّة؛ ومع وجود هذا الفن في الأدب القديم إلّا أنه قد عُرِف دون تحديدٍ لمعالمه ومقوماته الفنيّة، وكانت السيرة الذاتية تعرض الحسنات والسيئات في حياة الشخص، لذا؛ اهتمّت بالانفعالات الشعوريّة والمواعظ والمذكّرات، وكانت في أغلبها على شكل رسائل ووصايا.

ويرى علماء الأدب أنّ السيرة الذاتية ظهرت كجنس أدبيّ مستقلّ في اليونان، في القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد، والبعض الآخر زعم أنّ فنّ السيرة يعود إلى أوروبا.

لقد كانت اعترافات "أوغسطين" تستحقّ بجدارة لقب أقدم سيرة ذاتية، وإنّ أقدم رواية إنجليزية للسيرة الذاتية هي كتاب مارغري كيمب؛ حيث تطورت السيرة الذاتية في بداية القرن السابع عشر، وزدادت الأعمال الأدبيّة التي تدخل في نطاقها، وبذلك تراوحت إلى أشكال مختلفة منها: اليوميات والذكريات، مثال ذلك في الأدب الغربيّ هي القصة التي كتبها "لوسي هتشنسون"، والتي عرضت الصورة الواضحة للعهد الذي كُتبت فيه، وقدمت أوصاف الشخصيات المهمّة في العهد آنذاك، واستمر تطور ظهور السير الذاتية، فبعض الأعمال برزت وأصبحت أعمالاً كلاسيكيّة في الأدب العالمي، مثل مذكرات "إدوارد جيبون"، وغيرها الكثير.

أمّا عن تاريخ السيرة الذاتية في الأدب العربي؛ فقد ظهرت منذ العصر الجاهلي، وكان الشعر الغنائي هو نوع الفن الذي عُدّ مَهْدُ السيرة الذاتية، وعندما جاء الإسلام أصبحت الحاجة أكبر إلى تدوين وقائع التاريخ، ومواقف الشخصيات التاريخية، فبرزت السيرة الذاتية واشتهرت حينذاك، كـ "سيرة معاوية وبنو أميّة" و "سيرة ابن اسحاق" وغيرهم الكثير، بيدَ أنّ تطوّر السيرة الذاتية في الأدب اكتسب موضوعيّة أكبر وأدقّ في العرض والتحقيق، فظهرت كتب "الطبقات" و "التراجم"، وهي الكتب التي تلت عصر الرواية والتدوين، إذًا فالسيرة الذاتية استمرت بالتطور والانتشار عبر العصور، وكان الأدباء والمؤرّخون يُدوّنون أحداث عصورهم، ويعرضون مواقف حياتهم المختلفة.

وفي كتاب "ترجمة ابن سينا" في القرن الخامس الهجري، وصف ابن سينا حياته في الكتاب؛ إذ فصّل أخباره وقدّم سيرته للقارئ، وفي أوائل القرن السادس الهجري ظهر الغزالي، وهو أحد مُترجمي الصوفيّة، وفي نهاية هذا القرن ظهر كتاب "التبيان" لعبدالله بن بلقين، ونشر هذا الكتاب كاملاً في أواسط القرن العشرين، ولا تقتصر السيرة الذاتية وكُتُبها على هذه الأمثلة، بل هناك الكثير من المؤلفين والكُتُب التي تعمّقت في فن السيرة وعرض الكثير من الأخبار. وخالصة القول: إنّ السيرة الذاتية من العهد القديم كانت تعيش فترات انتقالية عبر فترات زمنيّة متعاقبة.

### السيرة الذاتية في الأدب المعاصر

في بداية العصر الحديث أي ما يُقارب نهاية القرن التاسع عشر الميلاديّ، جاء المحدثون وسلكوا طريقة الأدباء القدماء في السيرة الذاتية، بيد أنّ بداية هذا العصر اشتهر بظهور حركات التحرّر في الساحات العربية، ومن أهمها "الحركة الفكرية" التي دعا إليها رفاة الطهطاوي، فألّف كتابه "تخليص الإبريز في تخليص باريز"، وكان هذا الكتاب بمثابة البداية التي شجّعت إلى كتابة فن السيرة الذاتية في الأدب المعاصر، واستطاع هذا الفن أن ينقل بمصداقية وثقة حقيقة الصدام بين الغرب والشرق، بيد أن أدباء الأدب العربي المعاصر لم يكتفوا بسلك طريقة الأدباء القدماء العرب في السيرة الذاتية بل إن بعضهم تأثروا بالنهضة الأوروبية الحديثة.

إن كُتِبَ السيرة الذاتية هي الكتب التي تتَّسم فيها ملامح الشخصية العربيَّة، وفي بداية القرن العشرين تبلُّور هذا الفن وساعد على إظهار ملامح الشخصيات القومية في الأدب العربي، وتمثيل الشعور القومي في روح الشعوب النامية والمثقفة، وتبعًا لذلك دعا أدباء المدرسة الحديثة إلى البحث عن أدب صادق ينبع من آلام الشعب وآماله، والابتعاد عن التقليد وتبعية الموروثات والاقْتباسات، فبرزت كتب التراجم الذاتية؛ وهي الكتب التي عكست الفكر العربي المعاصر ونقلت أزمة الإنسان العربي، من خلال أحاديث الأدباء والكتَّاب وأقوالهم عن حياتهم النفسية والأدبيَّة والثقافية وعن إنتاجهم الفكري، ممَّا جعل فن السيرة الذاتية والترجمة الذاتية في الأدب العربي يبلغ قمَّة تطوره عبر العصور.

وقد ساعد هذا التطوُّر إلى ظهور فنِّ الرواية والاعتماد على هذا الفنِّ بشكل كبير في فنِّ السيرة، إذ جاءت كتب السير والتراجم الذاتية في قالب روائيٍّ، وكان من أكثر مَنْ برعوا في هذا الفن: عباس محمود العقاد في كتابه "أنا" ميخائيل نعيمة في كتابيه "مرداد" و"لقاء"، وطه حسين في كتابه "الأيام"، وتوفيق الحكيم في كتاب "عودة الروح"، وغيرهم الكثير، إلَّا أنَّ كتاب الأيام لطف حسين كان هو النصُّ التأسيسيَّ والأهمَّ والأوَّل لكتابة السيرة الذاتية في الأدب المعاصر، والقارئ لهذا الكتاب يلمح أنَّ الكاتب قد تحدَّث عن طفولته وشبابه، وتميَّز في

تصوير المعاناة التي واجهها، ولم يقتصر ظهور فنّ السيرة على الترجمة الحرفيّة للأدباء، بل ظهرت لها أشكال مختلفة، كاليوميّات والمذكّرات والاعترافات.

تنقسم السيرة الذاتية إلى نوعين: سيرة ذاتية، وسيرة غيرية وهي السيرة التي يكتبها شخص عن شخص آخر، ويعتمد فيها على توقّر المعلومات بين يديه، أو عن علاقة شخصية ربطت بينه وبين الشخص الذي يكتب عنه، وبذلك تعدّدت مضامين السيرة الذاتية وموضوعاتها، وأصبحت أكثر اتّساعاً في تناول مناحي الحياة، فكانت السيرة الذاتية والغيرية كلتاهما يمضي مع التاريخ، ومثال ذلك سيرة حنا إبراهيم، فهو يكتب ويُؤرخ لحرب ١٩٤٨ الميلادية، وحرب ١٩٦٧ الميلادية، وقدّم صورة واضحة لليهود آنذاك، ويستمر الأسلوب نفسه عند غيره من الأدباء العرب في الأدب المعاصر مثل: أحمد أمين، ومريد البرغوثي، وغيرهم.

### عباس محمود العقاد

عباس بن محمود بن إبراهيم بن مصطفى العقاد، ولد في أسوان، وأصل أبيه من دمياط، وكان جده يعمل في صناعة الحرير بالمحلة الكبرى فسمي عقاداً، وكان بعدئذٍ صرافاً لبلدة «أسنا» لكن والده جاء أسوان أميناً للمخطوطات، فتزوج ابنة عمر آغا الكردي أحد قادة محمد علي باشا الذين أرسلهم لتأديب ملك «سندي» على عصيانه.

حصل على الابتدائية سنة ١٩٠٣ م، وفي أثناءها زار مدرسته الإمام محمد عبده، فرأى دفتره، فبشره أن سيكون كاتباً، وعُين في سنة ١٩٠٤ م بمديرية قنا، وكانت اللوائح لا تسمح بتثبيته، ثم نقل إلى الزقازيق، ثم ترك وظائف الدولة وعمل في الصحافة، وعُين بمجلس الفنون والآداب، وفي مجمع اللغة العربية بالقاهرة،

ومجمعي بغداد ودمشق، وأجريت له عملية جراحية في إحدى عينيه سنة ١٩٥٦م وهي سنة قبوله في المجمع، ومنح جائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٦٠.

لقي عدداً من الشخصيات التي تركت في نفسه حافزاً للعلم والقراءة، منها: أحمد الجداوي وكان من تلاميذ جمال الدين الأفغاني صديق أبيه، والشيخ محمد عبده، والشيخ عبد العزيز البشري، وجورجي زيدان، وعبد الحليم المصري، وأحمد الكاشف، وإبراهيم عبد القادر المازني، وعبد الرحمن شكري، ولقي مي زيادة، وعرف في صالونها أحمد لطفي السيد، وخليل مطران، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وإسماعيل صبري، ومصطفى عبد الرازق، وطه حسين، ومصطفى صادق الرافعي، ومحمد مندور، وعامر العقاد، ومحمد خليفة التونسي، وظاهر الجبلاوي.

تألفت للعقاد رؤية لأحوال الأمم الحضارية، والعلاقة بين الغرب والشرق، فكان الغرب عنده متقدماً مادياً والشرق متقدماً روحياً لقوله:

«إني لا أقيس المدنية الغربية بعدد اختراعاتها، ولكن بالملكات التي أنتجتها، فهل بين هذه الملكات ما هو أعظم وأجلُّ وأرفعُ من الملكات التي أبدعت صناعات المدنيات الغابرة وعلومها وفنونها؟ إن كان ثمة فرقٌ فهو يسير جداً بالنسبة إلى غطرسة المدنية الغربية ودعاواها. وأنا أعتقدُ اعتقاداً جازماً أن القمة الروحية التي ارتقى إليها نساك الشرق وفلاسفته لم يبلغها غربي ممن نعرفهم ونقرأ كتاباتهم، وأن هذا التقصير عيب كمين فيهم. و يكفي أن أوروبا لم تنبت نبياً، وأنها عالة على الشرق في كل ما تدين به.»

ولعل بشرى الإمام محمد عبده جعلته يقرأ كتباً كثيرة منها: «المستطرف في كل فن مستظرف»، وديوان الهاء زهير، وقصص ألف ليلة وليلة، ومنها مجلد من دائرة معارف البستاني، ومنها صحيفة «الأستاذ» لعبد الله نديم، وقد عارضها العقاد بصحيفة أسماها «التلميذ» كتبها بخط اليد ابتداءً، وكانت ساخرة بجدية عالية فقد كتب النديم في الأستاذ مقالاً بعنوان: «لو كنتم مثلنا لفلعلم فعلنا» فأجابه العقاد في التلميذ: «لو كنا مثلكم ما فعلنا فعلكم» فهي صحافة حوار الأجيال.

وفي حياة العقاد معارك أدبية جعلته نهم القراءة والكتابة، منها: معاركة مع الرافعي وموضوعها فكرة إعجاز القرآن، واللغة بين الإنسان والحيوان، ومع طه حسين حول فلسفة أبي العلاء المعري ورجعته، ومع الشاعر جميل صدقي الزهاوي في قضية الشاعر بين الملكة الفلسفية العلمية والملكة الشعرية، ومع محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس في قضية وحدة القصيدة العضوية ووحدتها الموضوعية ومعارك أخرى جمعها عامر العقاد في كتابه: «معارك العقاد الأدبية».

وقد قال الشعر ولم يتجاوز عشر سنوات، فكانت أول قصيدة مدح بها العلوم، إذ قال فيها:

عِلْمُ الْحِسَابِ لَهُ مَزَايَا جَمَّةٌ

وَبِهِ يَزِيدُ الْمَرْءُ فِي الْعِرْفَانِ

والتَّحْوُّ قَنْطَرَةَ الْعُلُومِ جَمِيعِهَا

وَمُبِينٌ غَامِضِهَا وَخَيْرٌ لِسَانٍ

وكذلك الجُغرافيا هادية الفتى

لمسالكِ البلدانِ والوديانِ

وله دواوين شعرية منها: «يقظة الصباح» و«هج الظهيرة» و«أشباح الأصيل» و«شجان الليل» نشرها مجموعة سنة ١٩٢٨م في أربعة أجزاء، وله «ما بعد البُعد».

وكان شعر العقاد ضارباً في الصنعة والعلم والتجريب بحظ وافر، إذ كان ينقح أشعاره بالحذف والتغيير والتبديل، وكان شعره موصوفاً بالغموض والترفع والعقلانية والتجديد في إطار من المحافظة على نحو ما يقول الأستاذ أحمد إبراهيم الشريف في كتابه المدخل إلى شعر العقاد.

إذا كان ما تقدم حسواً من حياته الحافلة فإن كتبه كثيرة ولها أبواب وفنون، فقد كتب في فن السيرة، له ولغيره من الشخصيات التاريخية.

أما القسم الأول فقد كتب فيه: «حياة قلم»، وكتاب «أنا»، و«عالم السدود والقيود»، و«سارة»، و«في بيتي»، ويمكن أن يضاف إلى هذه الكتب ما كتبه عامر العقاد في كتابه: «لمحات من حياة العقاد المجهولة»، لأنه جمع أكثرها مما كتب العقاد بقلمه من دون أن ينشر، وهو أقرب الناس إليه وأكثرهم ملازمة له.

وأما القسم الثاني فله جهتان: جهة العبقريات وجهة الشخصيات، إذ أحيا العقاد فن كتابة سيرة الآخر بقلم آخر، فاختر عبقرياته وشخصياته من التاريخ، فكتب: «عبقرية محمد»، و«عبقرية الصديق»، و«عبقرية عمر»، و«عبقرية الإمام علي»، و«عبقرية خالد».

وله: «أبو الأنبياء»، و«حياة المسيح»، و«عثمان بن عفان»، و«فاطمة الزهراء والفاطميون»، و«الحسين أبو الشهداء»، و«معاوية بن أبي سفيان»، و«جحا الضاحك المضحك»، و«أبو نواس»، و«ابن الرومي»، و«أبو العلاء»، و«ابن رشد»، و«عبد الرحمن الكواكبي»، و«الإمام محمد عبده»، و«سعد زغلول»، و«محمد علي جناح»، وغيرهم.

في الإسلاميات كتب كتباً كثيرة، منها: «الله»، و«إبليس»، و«الفلسفة القرآنية»، و«مطلع النور أو طوابع البعثة المحمدية»، و«الإنسان في القرآن»، و«المرأة في القرآن»، و«التفكير فريضة إسلامية»، و«الإسلام دعوة عالمية»، و«حقائق الإسلام وأباطيل خصومه»، و«الإسلام في القرن العشرين»، و«الإسلام لا شيوعية ولا استعمار»، و«ما يقال عن الإسلام».

وأتقن العقاد عدداً من اللغات الأجنبية منها الإنكليزية، وله كتب تتعلق بالترجمة منها «ألوان من القصة في الأدب الأمريكي»، وله كتب سياسية منها «الصهيونية العالمية». ومن كتبه: «رجال عرفتهم» بناه على مقدمة، ودرس فيه عدداً من الشخصيات منها: علي يوسف، ومصطفى كامل، ومحمد فريد، ومصطفى لطفي المنفلوطي، ويعقوب صروف، وجميل صدقي الزهاوي.

وكان للعقاد فلسفة في كتابة التراجم عموماً ذكرها بقوله: «فالقاعدة في اختيار ترجمة ما للكتابة فيها أن تكون كتابتها لازمة لإبراز حقِّ ضائعٍ أو حقيقة مجهولة، وتستوي في ذلك سير العلماء والنوابغ».

ومن كتبه أيضاً كتاب «ردود وحدود»، وهو مقالات للعقاد تخيرت مما نشره في الرسالة لأحمد حسن الزيات، والكتاب يعكس صور النشاط الثقافي للعقاد بتعدد توجهاته.

ويمكن القول إن العقاد تناول المجتمع: ديناً وثقافة ونظماً وقانوناً، والناس والكتب والأدباء والوطن والعرب والأمم بريشة قلمه فصب حبر نفسه عليهما، واستولى عليهما بقبضة عملاق.

### كتاب أنا

هو ترجمة حياته ومجموعة من المقالات التي نشرها في مجلة الهلال مسلسلاً وتستطيع أن ترى أن كتاباته عن نفسه وترجمة حياته تختلف عما كتبه الكثيرون من رجال الفكر والأدب والإجتماع عن حياتهم فبعض هؤلاء العلماء والأدباء كتب ترجمة لحياتهم في أسلوب تاريخي وبعضهم في صيغة مذكرات أو ذكريات، وآخرون صوروا حياتهم فيما يشبه الاعترافات مع الاكتفاء بالأهم والمهم من الأحداث وأدوارهم فيها أما كتابة العقاد عن نفسه، في كتابة لها طابع جديد في كتابة التراجم كتابة ليست شخصية بحتة، ولا سرداً لأحداث مرة مرت به، أو عاش فيها وكان له دور من أدوارها فحسب، بل هي كتابة عالم باحث وإذ كتب عن نفسه تناول ألواناً من المعرفة وعالج أنواعاً من التفكير، وتعقب كل

حدث أو شأن من الشؤون بالتعقيب العلمي، أو التعليل النفسي، أو التأمل الفلسفي، وعندما نقرأ أنا لعقاد تعترف بمقدرته في الكتابة".  
الفكرة بتأليف هذا الكتاب نشأت بعد أن اقترح عليه "طاهر الطناحي في السنة ١٩٤٦م أن يكتب كتابا عن حياته، فأجابته العقاد قائلاً: سأكتب هذا الكتاب وسيكون عنوانه "عني"، وسيتناول حياتي من جانبين الأول حياتي الشخصية والجانب الثاني: حياتي الأدبية والسياسية والإجتماعية « ومات العقاد نتيجة تدهور صحته فيما كان الكاتب يتم تجميعه من مقالاته القديمة، وقد أثار الكاتب أن يعنونه با أنا"

تشتمل هذه الترجمة على جانبين من حياة العقاد حياته الشخصية وحياته الأدبية ويبين في حياته الشخصية عنه وعن أبيه وعن أمه وعن بلده وعن أستاذه وما إلى ذلك.

تحتوي هذه السيرة تسعة فصولاً. وفي الفصل الأول يبين عن نفسه وعن أبيه وأمه وطفولته وذكريات العيد وغيرها. ويبين في الفصل الثاني عن أستاذه وأشياء جعلته كاتباً وعن سبب تركه وظيفة الحكومة. ويذكر أولاً في نظام التعليم في الجامعة الأزهر وكان نظاماً يسمح للطلبة أن يختاروا أستاذهم ويجلسوا في الحلقة التي تروقههم أن يجلسوا فيها. وقد اختار فيها أستاذاً معروفين في صناعة التأليف. وفي الفصل الثالث يتضمن ستة أبواب من قصة قلمه إلى ما لم يكتب وما يريد أن يكتب ويبين فيها عن منهجه في كتابة المقالات وفي تأليف

الكتب، وفي الفصل الرابع يبين عن أحواله وكيف يتميز من سائر الناس وكان في صباه يتميز من سائر الأطفال، وفي الفصل الخامس يكتب عن أصدقائه وأعدائه وعن تجاربه في السجن لا يميل إلى التوسط في الصداقة ولا في العداوة فيقول: لا أعرف إنسانا نصفه صديق ونصفه عدو وإنما أعرف صديقا مائة في المائة أو عدو مائة في المائة.» وفي فصل السادس يقول عن إيمان وتمنياته وفلسفته في الحب وعن قيمة حياته التي يحبها الآن. وفي فصل السابع يبين كيف نال المرتبة الأعلى النفسي بالقراءة وكرهته الطبيعية بفصل الصيف. أول يقول عن رحلته في عالم الخيال. وفي الفصل الثامن يبين فترته الأربعين والخمسين والستين والسبعين. وفي الفصل التاسع والأخير يبين عن مكتبته وعن كتبه وعن أحوال بيته.

#### أهم مؤلفات عباس محمود العقاد

استطاع الكاتب عباس محمود العقاد أن يترك أثراً لغوياً رفيع المستوى وثروة أدبية من خلال كتبه الآتية:

سلسلة العبقريات. الله. هذه الشجرة. الفلسفة القرآنية. اللغة الشاعرة. أفيون الشعوب. أشتات مجتمعات في اللغة والأدب. أنا. سارة. شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة. رجعة أبي العلاء. أبو نواس. ألوان من القصة القصيرة في الأدب الأمريكي. إبليس.

#### سلسلة العبقريات

لمس كتاب سلسلة العبقريات نور الشمس عام ١٩٤٢ ميلادي، وهو مؤلف من ستة مجلّدات، ابتداءً المجلد الأوّل بالحديث عن عبقرية محمد الرسول -صلى

الله عليه وسلّم-، وبين عظمته وأظهر عبقريته كرجل سياسي وقائد حرب ورجل دعوة، ويتبين للقارئ شدة غيرة عباس محمود العقاد على النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم ينتقل بعدها لعبقرية أبي بكر، ويتبعها بعبقرية عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان وبعده علي بن أبي طالب، ويختتمها أخيراً بعبقرية خالد بن الوليد القائد الإسلامي العظيم.

استطاع العقاد في سلسلته أن ينحو منحى آخر في تناول الصحابة العظام؛ إذ إنّه لم يعمد إلى ترجمة سيرتهم ولا ذكر مواقفهم، بل تناولهم من الناحية النفسية ولم يتناول أعمالهم بل تناول الدوافع لتلك الأعمال، ويظهر للقارئ في سلسلة العبقريات أنّ العقاد لم يأت على ذكر أخبارهم إلا بما يتناسب مع حديثه بحيث يدعم فكرته بعملهم، ثمّ مال إلى فكرة أخرى برزت لديه حين قارن بين أبي بكر وعمر فكلاهما من الرجال الأخيار، ولكنّ أبا بكر هو مثال الرجل الذي اقتدى بالنبي قولاً وفعلاً، أمّا عمر فهو رجل الاجتهاد، ثمّ عطف على المقارنة بين الحكم الإسلامي والجاهلي في معاملة الأسرى وغير ذلك.

إنّ سلسلة العبقريات هي أحوج ما تحتاج له الأمة، حيث تتناول الصحابة من الناحية النفسية فيستطيع القارئ الوصول إلى عمر وفهمه، والاطلاع على ما في نفس أبي بكر، وفهم أسباب صمت النبي -عليه الصلاة والسلام- في أنّ وكلامه في آخر، لقد أضافت سلسلة العبقريات ثروة عظيمة في المجال الإسلامي وهو أحد الكتب التي تتناول شخصيات تاريخية بطريقة واعية يُمكن لأي رجل مهما كانت ديانته أن يُقدم على قراءتها.

الله

نشر عبّاس محمود العقاد كتابه "الله" في عام ١٩٤٧ ميلادي، يتناول الكتاب فكرة الألوهية منذ بداية الحياة البشرية، وكيف أنّ الإنسان يحتاج في داخله

إلى إله يكون دائماً منقاداً إليه، ويحكي في هذا الكتاب فكرة تعدد الآلهة القديمة التي كان الناس عليها حتى ظهور الأنبياء والدعوة إلى إله واحد قادر على كل شيء، يطرح العقاد في كتابه فكرة هامة وهي أنّ كل إنسان قادر على الوصول إلى ربه الواحد بفطرته السليمة دون أن يسهم أحد في توجيهها وتشويهها.

ثم يأتي الكتاب على ذكر بعض الديانات القديمة مثل: الهندية والمصرية والصينية واليونانية وأيضاً المجوسية، وفي نهاية الكتاب يأتي العقاد على ذكر أهم البراهين التي تعتمد على الفلسفة والمنطق التي تثبت أنّ لهذا الكون رباً واحداً لا شريك له، تبرز قيمة كتاب الله من خلال طرح العقاد لفكرة الدين وكيف تطوّرت من بداية ظهورها وحتى اختتمها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالإسلام، يتناول كتاب العقاد فكرة الدين بطريقة موضوعية تجعل من الكتاب مشروع قراءة لأي شخص مهم كانت ديانته.

### هذه الشجرة

استطاع كتاب هذه الشجرة أن يخرج إلى العالم بحلته عام ١٩٤٥ ميلادي، ويتناول كتاب هذه الشجرة فكرة المرأة ولكن من ناحية أخرى قلّمًا يتناولها الكتاب، إذ ينظر العقاد أنّ الرجل هو صاحب الإرادة والقوة والعقل والتدبير، والمرأة هي الضعيفة التي لا تبرز قوتها إلا في الإغواء، ثمّ ينظر للمرأة على أنّها كائنٌ مسلوب الإرادة لا تقوى إلا على الإغراء في سبيل تحقيق مطالبها وما تريده. يستشهد العقاد على نظريته بقصة بداية الخلق عندما أغوت حواء آدم أن يأكل من الشجرة، ويبيّن في كتابه أنّ كلّ ما هو ممنوع مرغوب للمرأة، وذكر أنّ المرأة إنّما تستمر في الإنجاب مع تحمل الألم؛ لأنّها تستمتع بالألم بل هي متبلدة الأحاسيس، إنّ كتاب هذه الشجرة كان حملة هجومية على المرأة وقد خرج من

دائرة الموضوعية واستقرّ في الدّاتية حتى أخرج المرأة إلى عالم الهوان وجعل الرّجل وحده رأسًا في عالم القوي.

### الفلسفة القرآنية

ظهر كتاب الفلسفة القرآنية عام ١٩٤٧ ميلادي، ويذكر العقاد في كتابه الفلسفة القرآنية أنّ فلسفة الحياة كلها قد عالجتها آيات القرآن الكريم، وأنّ العقيدة الإسلامية هي الفلسفة التي اعتنقها المؤمنون في تفسير قضايا الحياة الجليلة، وقد عاد العقاد في التّاريخ إلى الوراء ليذكر أهم القضايا الفلسفية وكيف عالجه القرآن الكريم بحكمة بالغة عظيمة وبدليل منطقي باهر، ومن القضايا التي أشار إليه العقاد في كتابه فلسفة العلم وفلسفة الأخلاق، ثم تطرّق إلى مسائل الحكم والطبقات التي يعيش بها المجتمع، وكيفية علاج كل طبقة لتندمج مع الأخرى بالشكل السليم.

ثمّ عطف بحديثه على مسائل الإرث والزواج والمرأة في المجتمع الإسلامي، وتعمّق أكثر في مسائل ما وراء العقل من الأمور الغيبية كالروح والإله والملائكة وكيف عالج القرآن كل تلك الأمور، إنّ قيمة كتاب الفلسفة القرآنية تبرز كونه واحدًا من أهم الكتب التي ربطت الفلسفة في القرآن، والعلم الدنيوي بالعلم الآخروي، وكيف يقف الإنسان في منتصف كل تلك العلوم ليُعالج القرآن قضاياها كما لم يفعل أي كتاب آخر.

### اللغة الشاعرة

صدر كتاب اللغة الشاعرة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٢ ميلادي، ويذكر العقاد في كتابه ذلك أنّ اللغة العربية هي اللغة الشاعرة والتي تحمل في طيّاتها أنواعًا من الموسيقى المختلفة، ولكلّ مخرجٍ من مخارج الصوت حرف من حروف اللغة وذلك ما لم يتحقق في كثيرٍ من اللغات، واللغة العربية تحمل بين طيّاتها

مترادفات جليلة كثيرة، وقد ناقش في ذلك الكتاب مجموعة من التشككيات التي ضرب بها المستشرقون اللغة العربية، وردّ تلك الشبهات على أصحابها. تبرز قيمة كتاب اللغة الشاعرة في التعريف باللغة العربية عن كُتبٍ سواء كان ذلك لأبنائها أم لغيرهم، وهو يدعم كل نظرياته بالأدلة الدامغة ولا يأت على الكلام جزافاً بل يُنظم مفرداته بحيث يجعل ذلك الكتاب سهل التناول من طبقات المجتمع الثقافية المختلفة.

### أفيون الشعوب

نُشر هذا الكتاب بعد وفاة العقّاد سنة ١٨٤٤م، يرّد العقّاد في هذا الكتاب على الشيوعية، ويواجه من خلاله الفيلسوف الألماني كارل ماركس مستفيداً من عبارته الشهيرة "أفيون الشعوب" التي كان قد لخص من خلالها رؤيته تجاه الأديان، فهي على حد قوله تخدر الناس وتلهيهم عن شقاء الحياة واستغلال أصحاب رؤوس المال، فتنسيم المطالبة بحقوقهم، والتفكير فيما يحيط بهم؛ وذلك طمعاً في حياة أفضل في ملكوت السماء أو الجنة.

والعقاد له رأي مضادّ قويّ تجاه هذا الأمر، حيث يرى أنّ مذهب ماركس الشيوعية هو الهُراء لا الأديان؛ فالدين يولّد شعوراً بالمسؤولية لدى الفرد ويجعله في حذر من اقتراف الذنوب، أما إنكار الدين فيؤدي لتخدير ضمائر الناس وعدم مبالاتهم.

وقد كان هذا الكتاب من أهم مؤلفات عباس محمود العقّاد؛ لأنه يمثل هجوماً قوياً من جانبه ضد الشيوعية ومبادئها؛ حيث عدها مذهباً هداماً خطراً على المجتمع مُفَنِّدًا دعواتها بشكل مفصّل، كما ندد بوصف الماركسيين مذهبهم بالعلم وتوارهم وراء ه كمنذهب علمي فيستخدمونه كمصطلح يوهمون الناس بفاعليته وما هو بعلم إنما وهم أعماهم عنه الحسد والاندفاع نحو الغرائز.

## أشتات مجتمعات في اللغة والأدب

إن كتاب أشتات مجتمعات في اللغة والأدب من أبرز الكتب التي صنفت للدفاع عن اللغة العربية ضدّ كل ما قد يُوجّه إليها من اتهامات بالقصور والضعف، وهو من أهم مؤلفات عباس محمود العقاد، وفي هذا الكتاب فصول متفرقة يجمع بينها غرض واحد هو تصحيح بعض الأخطاء في النظر إلى العربية، والحكم على مكانتها بين اللغات العالمية التي تصلح لأداء رسالة العلم والثقافة والأخطاء التي يقف العقاد في كتابه عليها أخطاء متكررة تعرض لها الناظرون في هذه اللغة مرة بعد مرة منذ ابتداء حركة الترجمة الحديثة من اللغات الأوروبية، وتتلخص كلها في اتهام كفاية اللغة العربية للقيام بأمانة تلك الرسالة، وذلك كله قد طرأ بسبب نقص في الاستعداد للترجمة.

ويستهلّ العقاد فصول كتابه بالحديث عن صفة من صفات اللغة العربية وهي القدم، من خلال تحليل تاريخي لأبعاد اللغات وانقسامها وتفرّعها، كما يناقش الكثير من ميزات المتعلّقة بالكتابة واستيفائها لمخارج الحروف وغيرها، بالإضافة إلى عوامل الإعراب وأثر النّحاة في حفظ اللغة. ولعلّ أسلوب الكتاب الذي يقوم على المنطق والبُرهان في الدفاع عن اللغة العربية هو ما جعل هذا الكتاب من بين أهم مؤلفات عباس محمود العقاد.]

## سارة

صدر كتاب سارة سنة ١٩٣٨م، وهو من أولى تجارب العقاد في مجال الفنّ القصصيّ، اختلف النقاد والدّارسون في حقيقة شخصيتها الرئيسة سارة أحقيقة هي أم وحي خيال، إلا أن العقاد وقبيل وفاته كان قد صرح بكونها شخصية حقيقية وأن الرواية تسرد تجربة حياة له في قصة غرام حكمت بالفشل، وتوزعت الرواية بين ١٦ فصلاً قصيراً يشكل كل منها مرحلة من مراحل

تجربته، ولعلها كانت تجربة فريدة وغريبة من نوعها محاطة بالغموض والشكوك والمغامرات، يتقمص فيها العقاد شخص البطل همام وكأنما يسعى لكتمان تجربته بطريقة ما.

وهي على الرغم من بنيتها السردية الرتيبة التي تشبه القص الإخباري، إلا أنها تعد محاولة روائية قيّمة، وتحكي الرواية قصة امرأة شابة يتعرف عليها البطل همام في نزل مفروش فيعجب بها وبأسلوبها في الحديث واللباس، وتتطور العلاقة بينهما إلى لقاءات ومسامرات فيسر همام بهذه العلاقة فيحدث عنها أصدقاءه الذين يحاولون بدورهم حمايته منها لاعتقادهم بها أنها امرأة لعبوب غير صادقة معه، وأنه في حياتها كعابر سبيل حتى ساوره الشكّ وافترقا، وهذا الكتاب باعتباره محاولة روائية عربيّة جديدة في طليعة النّهضة الروائيّة جعله يُصنّف من بين أهم مؤلفات عباس محمود العقاد.

### شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة

صدر هذا الكتاب سنة ١٩٤٣م، يخوض العقاد في كتابه شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة لونا من النقد الأدبي، وقد استهل كتابه بمقدمة تفسر سبب اختياره لعمر بن أبي ربيعة وكتابته عنه في الوقت الذي أخرج فيه كتاباً عن عمر بن الخطاب، ورد ذلك إلى مقولة كان الناس يتداولونها إذ ولد عمر بن أبي ربيعة في اليوم الذي توفي فيه عمر بن الخطاب فقالوا: أي حق رفع وأي باطل وضع، نافياً موضوعية هذه المقولة مبرزاً عظمة ابن ربيعة الأدبية والشعرية.

وقد عرض من خلاله لتفاصيل حياة عمر بن أبي ربيعة وللآراء النقاد والدارسين في شخصه وشعره وقد كان العقاد موضوعياً في تناوله لحياة عمر بن أبي ربيعة كما كان دقيقاً في وقوفه على شعره كما تطرق العقاد للتمييز بين لونين من الغزل كانا قد نشأ في العصر ذاته وهما الغزل العذري والغزل الصريح وشعراء

كل منهما والعوامل التي أدت إلى ظهور كل لون منهما، كما تطرق إلى نشأة عمر ابن أبي ربيعة وأثر حياته وتكوينه في شعره وميله نحو الغزل الصريح على وجه التحديد.

### رجعة أبي العلاء

صدرت نسخة هذا الكتاب عن المكتبة العصرية للطباعة والنشر سنة ٢٠٠٠م، اهتمّ محمود العقاد في كتبه بدراسة وتحليل كثير من الشخصيات الأدبية والتاريخية التي تركت بصمة واضحة في سجل الثقافة والمعرفة، ولعل أبا العلاء المعري، قد كان من أبرز تلك التي وَقَفَ عندها العقاد وقفة مطولة في واحد من أهم مؤلفات عباس محمود العقاد الأدبية والنقدية، وتوزع مضمونه بين ٢٤ فصلاً، تظهر عناوينها ميل العقاد للمعري وإعجابه به كشاعر وفيلسوف، كما أنه قد اتخذته رفيقاً في جميع أطوار فكره، وجرى معه في كل أدوار عمره، وكتب عنه في المطالعات عدة فصول هي أدق وأعمق ما كتب عن المعري في عبقريته وفلسفته وتحليل ملكاته.

وتعدّ دراسة العقاد للمعري دراسة قديمة نافذة، تتجلى فيها عبقرية العقاد في البحث والتحليل وتتكشف فيها عبقرية المعري النفسية، أو ما يسميه العقاد بشيمة السميت والوقار، وقد اعتمد العقاد في عرضه لحياة أبي العلاء المعري وشعره وفلسفته بأسلوب قائم على المنطق والتحليل والاستنباط، ولقد أخذ على العقاد بأنه في كتابه قد أظهر شخصيته هو لا شخصية أبي العلاء، وأبدى رأيه هو لا رأي شيخه في الحياة، وأنه أنطق الرجل بالقرآن وما كان ديدنه ذلك، هذا بالإضافة إلى أنه قد اتهمه بشرب الخمر انطلاقاً من وصفه له في شعره وهذا لا يكون بالضرورة.

## أبونواس: الحسن بن هاني

توزعت مادة الكتاب في تسعة فصول قام من خلالها بدراسة شخصية أبي نواس وشعره دراسة دقيقة تفصيلية من خلال تحليله للسمات النفسية والشخصية التي أثرت في الجوانب الفنية لهذا الشاعر الشهير. وقد استعان العقاد بأساليب التحليل النفسي الحديث ليفهم أبعاد شخصية أبي نواس؛ الذي وصفه بالترجسي العاشق لذاته، والذي عرف بالمجون والإباحية، ومخالفته للمألوف من القواعد بين الناس.

فيقترب بشكل كبير من حياته الخاصة، مستعيناً بأدلة من شعره. كما يتطرق لعاداته الشاذة وميوله المنحرفة؛ ليسبر غور تلك الشخصية، ويفهم كافة ظروف إنتاجها الفني، فيعرض صوراً شعرية تحكي عن أحواله وإدمانه للخمر وعقيدته الدينية، كذلك يعرض للخلفية السياسية والثقافية السائدة في عصره، حيث يزداد فهمنا لطبيعة أعماله، فقد كان العقاد فناً رسم بقلمه شخصية شاعر أثرى الحياة الأدبية آنذاك، ولعل أسلوبه الأدبي الموشح بالمنطق جعل هذا الكتاب من بين أهم مؤلفات عباس محمود العقاد.

## ألوان من القصة القصيرة في الأدب الأمريكي

صدر هذا الكتاب سنة ١٩٤٨م، يكشف كتاب ألوان من القصة القصيرة في الأدب الأمريكي عن الجانب المشرق لثقافة العقاد، واطلاعه الواسع على الآداب والثقافات العربية وغير العربية أيضاً، وقد توزع مضمونه في خمسة فصول استهلها بحديث عام عن ألوان الأدب التي سادت في أمريكا، من نثر وشعر، وتعمق في عرضه وتناوله للفنون النثرية لا سيما فن القصة القصيرة بشكل عام، ثم تناول بالتفصيل هذا الفن في الأدب الأمريكي وعوامل نشأته فيه وأثر اختلاط الأجناس والشعوب في ظهورها على النحو الحالي.

كما تطرّق في فصل خاصّ لأبرز روادها، وقد وقف على حياة كل منهم وأثر نشاته في تشكيل السمات الفنية الخاصّة به، بالإضافة إلى عرض نماذج من القصص الأمريكيّة والتعليق عليها ونقدها، ولعلّ الهدف الذي دفع العقاد للوقوف على القصّة في الأدب الأمريكيّ يتمركز حول ذلك الأثر الذي تركه البيئة في العقلية الأدبية وإبداعها، وإن كانت النماذج المترجمة لا تفي بقيمة هذا الفن وتقتصر عن إبراز جوانبه بشكلٍ واضح، وعلى الرّغم من هذا المآخذ، إلّا أن كتابه هذا يُصنّف من بين أهمّ مؤلفات عباس محمود العقاد.

### إبليس

يعدّ كتاب إبليس من أهمّ مؤلفات عباس محمود العقاد التي تناولت جانبًا من الغيبيات والنقلية بأسلوب فلسفي جديد يحث القارئ على التأمل في تفاصيل الحدث المروي بما يستدعيه من أساليب بيانية تقوم على العرض المنطقي للتفاصيل والأحداث والبراهين والأدلة العقلية والنقلية، وقد أراد العقاد في هذا الكتاب أن يطرح طرحًا جديدًا لقضية الشر الذي يُمثله الشيطان؛ فقرّر منذ اللحظات الأولى للكتاب أن ظهور إبليس على وجه الأرض كان كلّ الخير، خيرٌ حين بدأ التمييز بين الخير والشر؛ حيث لم يكن بينهما تمييز قبل معرفة الشيطان بأفعاله، ووساوسه، وصفاته، وخفايا مقاصده الدنيئة.

فنحن أمام دراسة وافية من الدراسات المتميزة حول قوة الشر منذ قديم الأزل إلى منتصف القرن العشرين؛ ماذا كان قبل الشيطان، ولماذا سقط الشيطان في غيابات الشر ودروبه، وكيف كان في الحضارات السابقة، وما نظرة الأديان الثلاثة إليه، وإلّا آلت الأحوال به في هذا العصر، تلك هي الأسئلة التي حاول العقاد أن يجيب عليها في هذا الكتاب.

أنا

عباس محمود العقاد

---

## الفصل الأول

### (١) أنا

الكاتب الأمريكي «وندل هولمز» يقول: إن الإنسان — كل إنسان بلا استثناء — إنما هو ثلاثة أشخاص في صورة واحدة. الإنسان كما خلقه الله ... الإنسان كما يراه الناس ... والإنسان كما يرى هو نفسه ...

فَمَنْ من هؤلاء الأشخاص الثلاثة هو المقصود بعباس العقاد؟! ومن قال إنني أعرف هؤلاء الأشخاص الثلاثة معرفة تحقيق أو معرفة تقريب؟! من قال إنني أعرف عباس العقاد كما خلقه الله؟ ومن قال إنني أعرف عباس العقاد كما يراه الناس؟ ومن قال إنني أعرف عباس العقاد كما أراه، وأنا لا أراه على حال واحدة كل يوم؟ هذه هي الصعوبة الأولى، ولا أتحدث عن غيرها من الصعوبات. ولكنني أضربها مثلاً واحداً من أمثلة كثيرة، ثم أختصر الطريق، وأنتقل إلى الموضوع من قريب.

إنني لن أتحدث — بطبيعة الحال — عن «عباس العقاد» كما خلقه الله...  
فإنه — جل جلاله — هو الأولى بأن يُسأل عن ذلك ...

ولن أتحدث — بطبيعة الحال — عن «عباس العقاد» كما يراه الناس،  
فالناس هم المسئولون عن ذلك ...

ولكن سأتحدث عن عباس العقاد كما أراه.

وعباس العقاد كما أراه — بالاختصار — هو شيء آخر مختلف كل الاختلاف  
عن الشخص الذي يراه الكثيرون من الأصدقاء أو من الأعداء ... هو شخص  
أستغربه كل الاستغراب حين أسمعهم يصفونه أو يتحدثون عنه، حتى ليخطر  
لي في أكثر الأحيان أنهم يتحدثون عن إنسان لم أعرفه قط، ولم ألتق به مرة في  
مكان.

فأضحك بيبي وبين نفسي وأقول: ويل التاريخ من المؤرخين ...

أقول: ويل التاريخ من المؤرخين؛ لأن الناس لا يعرفون من يعيش بينهم في قيد  
الحياة، ومن يسمعهم ويسمعونه، ويكتب لهم ويقرأونه، فكيف يعرفون من  
تقدم به الزمن ألف سنة، ولم ينظر إليهم قط، ولم ينظروا إليه؟!

فعباس العقاد هو في رأي بعض الناس — مع اختلاف التعبير وحسن النية —  
هو رجل مفطر الكبرياء ... ورجل مفطر القسوة والجفاء ...

ورجل يعيش بين الكتب، ولا يباشر الحياة كما يباشرها سائر الناس.

ورجل يملكه سلطان المنطق والتفكير، ولا سلطان للقلب ولا للعاطفة عليه!

ورجل يصبح ويمسي في الجد الصارم، فلا تفتقر شفتاه بضحكة واحدة إلا بعد استغفار واغتصاب.

هذا هو عباس العقاد في رأي بعض الناس.

وأقسم بكل ما يقسم به الرجل الشريف أن عباس العقاد هذا رجل لا أعرفه، ولا رأيته، ولا عشت معه لحظة واحدة، ولا التقيت به في طريق ... ونقيض ذلك هو الأقرب إلى الصواب.

نقيض ذلك هو رجل مفرط في التواضع، ورجل مفرط في الرحمة واللين، ورجل لا يعيش بين الكتب إلا لأنه يباشر الحياة؛ رجل لا يفلت لحظة واحدة في ليله ونهاره من سلطان القلب والعاطفة، ورجل وسع شذواه من الضحك ما يملأ مسرحًا من مسارح الفكاهة في روايات شارلي شابلن جميعًا ...

هذا الرجل هو نقيض ذاك ...

ولا أقول: إن هذا الرجل هو عباس العقاد بالضبط والتحقيق، ولكني أريد أن أقول: إنهم لو وصفوه بهذه الصفة لكانوا أقرب جدًّا إلى الصواب، ولأمكنني أن أعرفه من وصفه إذا التقيت به هنا أو هناك، خلافًا لذلك الرجل المجهول الذي لا أعرفه بحال!

### مكان التواضع واللين

إنني لا أزعم أنني مفرط في التواضع.

ولكنني أعلم علم اليقين أنني لم أعامل إنسانًا قط معاملة صغيرٍ أو حقير، إلا أن يكون ذلك جزاء له على سوء أدب.

وأعلم علم اليقين أنني أمقت الغطرسة على خلق الله؛ ولهذا أحارب كل دكتاتور بما أستطيع، ولو لم تكن بيني وبينه صلة مكان أو زمان، كما حاربت هتلر ونابليون وآخرين.

وأنا لا أزعم أنني مفرط في الرقة واللين.

ولكنني أعلم علم اليقين أنني أجازف بحياتي، ولا أصبر على منظر مؤلم أو على شكاية ضعيف.

فعندما كنت في سجن مصر رجوت الطبيب أن يختار لي وقتًا للرياضة غير الوقت الذي تُنصَب فيه آلة الجلد لعقوبة المسجونين.

فدُهِش الطبيب، ظن أنه يسمع نادرة من نوادر الأعاجيب ...

وقال لي في صراحة: ما كنت أتخيل أن أسمع مثل هذه الطلب من العقاد «الجبار».

وأُصِبت في السجن بنزلة حنجرية حادة حرمتني النوم وسلبتني الراحة، ولم تزل هذه النزلة الحنجرية عندي مقدمة لأخطر الأمراض كما حدث قبل نيف وعشرين سنة، ونجوت منها يومئذ بمعجزة من معجزات العلاج والعناية وتبديل الهواء، ومن أجل هذه النزلة الحنجرية ألبس في الشتاء تلك الكوفية التي علقها الصحف الفكاهية في رقبتى لا تحل عنها في صيف أو شتاء، ولا في صبح أو مساء، حتى أوشكت أن تكون من علامات تحقيق الشخصية قبل الملامح والأعضاء.

وكانت زلزلة السجن التي اعتُقلت بها على مقربة من أحواض الماء، شديدة الرطوبة والبرودة، يحيط بها الأسفلت من أسفلها إلى أعلاها، ولا تدخلها الشمس إلا بإشارة من بعيد.

فعرض المحامون أمري على المحكمة وحوّلتها المحكمة إلى النيابة، ودرسته النيابة مع وزارة الداخلية ومصحة السجون، وتقرر بعد البحث الطويل نقلي إلى المستشفى، وإقامتي هناك في غرفة عالية تشرف على ميدان واسع وحديقة فسيحة، وتتصل بالداخليين والخارجين أثناء النهار، ويتردد عليها الأطباء والموكلون بالخدمة الطبية من الصباح إلى الصباح.

فرج من الله، وأمنية عسيرة التحقيق تمهدت بعد جهد جهيد! فصعدت إلى المستشفى وأنا أعتقد أن الخطر الأكبر قد زال أو هان، ولكني لم ألبث هناك ساعة حتى شعرت أن الزلزلة المغلقة أهون ألف مرة من هذا المكان الذي أصغي فيه إلى أنين المرضى، وشكاية المصابين والموجعين، ثم غالبت نفسي ساعة فساعة، حتى بلغت الطاقة مداها ولما يطلع الفجر من الليلة الأولى، وإذا بي أنهض من سريري وأنادي حارس الليل ليوقظ ضابط السجن ويعود بي إلى الزلزلة من حيث أتيت، ولتفعل الزلزلة الحنجرية وعواقبها الوخيمة ما بدا لها أن تفعل.

أنا أعلم من نفسي هذا، وأعلم أن الرحمة المفرطة باب من أبواب العذاب في حياتي منذ النشأة الأولى، وأعلم ما أعلم عن تلك العواطف التي يتحدث بها بعض الفضوليين ولا يعرفون منها غير التصنع والتمثيل، وتدميع العيون،

وتبليل المناديل، ثم أسمع جبلاً من هذه الجبال البشرية يذكر الرحمة وما إليها، كأنها حلية لا يزين الله بها إلا أمثاله، ولا يعطل الله منها إلا أمثال عباس العقاد ... فماذا يكون حكيمي بعد هذا على آراء الناس في الناس؟!

لن يكون إلا قلة اعتداد برأي من الآراء يحسبونها الكبرياء وليست هي الكبرياء، ولكنها موقف من لا يبالي أن يعتقد من يشاء ما يشاء.

### كرامة الأدب والأدباء

إلا أن الناس معذورون بعض العذر في شبهة الكبرياء هذه، وإن كانوا لا يطالبون أنفسهم بأقل مجهود في تصحيح هذه الشبهات.

فقد أراد الله — وله الحمد — أن يخلقني على الرغم مني متحدثاً «تحدثاً خصوصياً» لكل تقليد من التقاليد السخيفة التي كانت ولا تزال شائعة في البلاد المصرية والبلاد الشرقية على العموم.

أنا أطلب الكرامة من طريق الأدب والثقافة، وأعتبر الأدب والثقافة رسالة مقدسة يحق لصاحبها أن يُصان شرفه بين أعلى الطبقات الاجتماعية، بل بين أرفع المقامات الإنسانية بغير استثناء.

أفي ذلك عار؟! أفي ذلك موجب للحقد والضعينة؟!

كلا! بل فيه مآثرة وفيه فضل جديد على عالم الأدب في هذا الشرق المسكين الذي كان أدباؤه لا يرتفعون عن منزلة المضحكين، والندماء المهرجين على موائد الأغنياء والرؤساء، فإذا ارتفعوا عن هذه المنزلة قليلاً أو كثيراً، فهم لا يرتفعون بفضل الأدب والفن، بل بفضل وظيفة يعتصمون بها، أو شهادة علمية ينتحلون

سمعتها، أو ثروة يُحسبون من أهلها، ثم يُحتَرَمون لأجلها على الرغم من كونهم  
كتابًا وشعراء!

وها هو ذا إنسان يعرف حقه في الكرامة، ولا يعرف حقًا لتلك الأصنام  
الاجتماعية تفرضه عليه.

صنم المال، وصنم العناوين العلمية، والشارات الرسمية، وصنم المناصب،  
وصنم الألقاب، كيف تتجاهلها يا هذا؟! وكيف تطلب الكرامة لنفسك من غير  
طريقها؟!

إن الأصنام لا تقنع بما دون العبادة، فكيف بالإعراض وقلة المبالاة؟! وكيف  
بالتحطيم والكفران؟!

جهنم الأرباب جميعًا قليلة — قليلة جدًا — في جانب هذا الذنب العظيم ...  
وإذا بهذه الأصنام جميعًا تدعوني إلى دفع الجزية المفروضة عن يد ونحن  
صاغرون، وإذا بها جميعًا تعود خالية الوفاض غير محفول بما تعمل وما تقول.  
قالت: أتريد لك حقًا وكرامة؟

قلت: نعم ...

قالت: إذن كن غنيًا وإلا فليس لك كرامة ...

قلت: كلا ... سأكون غنيًا عن الغنى، ولي الكرامة التي أريدها ...

قالت: إذن كن صاحب لقب وعنوان ...

قلت: كلا ... سيعرفني العالم والأديب، وسأصعد في هذه السماء صعودًا حيث  
تزحف الألقاب والعناوين.

قالت: إذن كن صاحب منصب، كن صاحب أحساب وأنساب، كن شيئاً في طريقي، ولك المسعدة مني بعد ذلك في كل طريق.

قلت: سأمضي في كل طريق أريد المضي فيه، ولا حاجة بي إليك.  
ثم دارت الأيام، والتقيت بالأصنام.

قالت في شماتة وهي تتساءل: كيف الحال؟

قلت: عال ... أنت تعلمين على الأقل أنني لم أدفع الجزية المفروضة، وأنت تعلمين على الأقل أنني لم أخسر شيئاً يعني.

قالت: نعم ... ولكنك تعبت كثيراً، وخرجت آخر المطاف بسمعة الكبرياء والجفاء ...

قلت: يغفر الله لك أيتها الأصنام! أتعنين السمعة على الألسنة، والإشاعة في المجالس، وسوء القالة بين الفارغين؟! هذه أيضاً صنم من الأصنام التي لا أعرف لها جزية تُؤدَّى، فاكتبي جزيتها وجزيتك في حساب واحد، وانتظري بالأجل إلى يوم الدين!

ولا عجب أن تغضب الأصنام غضبتها التي تضيق بها اللحوم والدماء، ولكن العجب أن يغضب عبَّادها المساكين الذين لا يظفرون منها بطائل، وأعجب منه أن يغضب عبادها الحانقون عليها المتلهفون على الخلاص منها؛ لأنهم نسوا هذا، وأصبحوا يذكرون أن واحداً أفلح حيث يفشلون، فلماذا تمرد فاستطاع وهم يتمردون فلا يستطيعون؟!

ذلك هو الثأر الذي لا يُغفَر!

وذلك وأمثاله هو الأصل الأصيل في شبهة الكبرياء، أسوقه على هذا النحو الذي لا يشبه الاعتذار، وأفسره بهذا التفسير الذي لا يتضمنه طلب البراءة؛ لأنني أكره الاعتذار عن الحسنات حينما يتفاخر الناس بالسيئات والوصمات، وبحسبي أنني نازل عن حقي في الثناء؛ لما صنعت من جميل لكرامة الأدب والأدباء.

### العزلة والانطواء

وعذر آخر للناس — وإن كان لا ذنب لي فيه — أن يذهب بعضهم من النقيض إلى النقيض في فهم رجل يعيش بينهم على قيد الحياة. عذر هؤلاء أنني مطبوع على العزلة والانطواء على النفس في أحسن الأحوال وأسوئها على السواء.

ولا حيلة لي في ذلك؛ لأن أسبابه عميقة، يرجع بعضها إلى الوراثة، وبعضها إلى الطفولة الباكرة، وبعضها إلى تجارب الدنيا التي لا تُنسى. ورثت حب العزلة من كلا الأبوين.

وعرض لي حادث دون السابعة من عمري أتمثله الآن كأني حضرته منذ يومين، وهو حادث الوباء الذي كان معروفاً باسم الهيضة، أو الهواء الأصفر في أسوان. أقفرت المدينة شيئاً فشيئاً من سكانها.

مات كثيرون منهم ورحل آخرون، وخلا الشارع الذي أقيم فيه؛ فأغلقت الحكومة أبوابه، ولطختها بالعلامة الحمراء التي معناها أن هذا البيت قد زاره الوباء.

ومن لحظة إلى لحظة يتراءى في الشارع نعش عارٍ يمشي من ورائه رجلان أو ثلاثة، وقد يكون بينهم وبين حمل هذا النعش مسافة الطريق، وتوصيلة أخرى من توصيلاته التي لا تنقطع طول النهار.

وبيتنا وحده فيه إصابتان ...

وليس في الشارع — إذا خرجت إليه — طفلٌ واحدٌ يحوم بين تلك البيوت المغلقة بالعلامة الحمراء.

وإذا نزلت إلى شارع النيل حيث كان يطيب لي التجوال على غير هدى، وجدته مقفراً من الناس، ومن حين إلى حين تعبر في النيل سفينة شاردة لا تجترئ على ملامسة الشاطئ؛ خوفاً من العدوى، ويصبح منها صائح كلما لمح على المورد زميلاً يسأله عن الخبر: كم المحصول اليوم؟

فيجيبه: مصري كامل ... أو مجيري ... أو بنتو ... أو نصف جنيه فقط في أسلم الأيام.

ما هذا المحصول؟! وما هذه العملة التي يحسبونه بها؟!

إنها تهكم المصائب الوجيع!

إنه عدد الموتى في ذلك اليوم: جنيه مصري كامل: أي مائة ميت، ونصف جنيه: أي خمسون، ولم أسمع قط ذكر الريال إلا في ختام الموسم الشنيع: موسم الحصاد!

صورة لا أنساها، ولا ألتفت إليها إلا تمثلت وحشتها وبلواها، وإليها — ولا شك — يرجع شيء من هذه الوحشة التي تحبب إليّ الخلو والانفراد ...

وتزيد علمها تجارب الدنيا التي لا تنسى، وخلصتها: أن العواطف المزيفة أروج في هذه الدنيا من العواطف الصحيحة؛ فلا أسف إذن على رأي الناس في الناس، ولا اعتداد إذن بما يُقال ومن يقول ...

### الصدقة والعداوة

ما أسلفته لا أذكره على أنه فضائل محمودة، ولا على أنه رذائل مذمومة ... ولكنه صفات حقيقية وكفى.

ومن هذه الصفات الحقيقية التي أعهداها في نفسي أنني لا أميل إلى التوسط في الصداقة ولا في العداوة، فلا أعرف إنساناً نصفه صديق ونصفه عدو، وإنما أعرفه صديقاً مائة في المائة، أو عدواً مائة في المائة، ولا تهمني مع ذلك عداوته إذا حفظها لنفسه ... ولكنه إذا تعقبتني بها وأبى إلا أن يكشف عنها فهي الحرب التي لا توسط فيها كذلك: إما كاسر وإما مكسور، إلا أن يريحني احتقاره من عناء هذا وذاك ...

ومن هذه الصفات، أنني أمام الألفة أو العادة ضعيف لا أقدم على التبديل إلا بعد عناء طويل.

ومثل من أمثلة ذلك أن البيت الذي أسكنه قد تغير له أربعة من الملاك، وأنا الساكن فيه لا أتغير.

وإنني في مصر الجديدة، ودكان حلاقي في شارع محمد علي إلى الآن؛ لأنني منذ عشرين سنة كنت أسكن هناك.

وإني كنت أشكو مرض الكلى قبل نيف وعشرين سنة، فأشار عليّ الطبيب باتباع نظام مخصوص في الطعام يناسب الحالة التي أشكوها، وقد زالت تلك الحالة بعد سنة واحدة، ولكني لا أزال إلى الساعة أجري على النظام الذي ألفتُهُ من جرائها، ولا أستطيع أن أعود إلى كل طعام!

ومن هذه الصفات أن الظنون عندي قوية السلطان، وعلّة ذلك عندي معالجة التفكير المنطقي في كل شيء، فليس أسهل في المنطق من فتح أبواب الاحتمالات، أما إغلاقها — أو الجزم بنفها — فلا يكون إلا ببرهان قاطع، والبراهين القاطعة قليلة.

ومن هذه الصفات أن التجديد والمحافظة عندي يلتقيان في معظم الأمور، وعلّة ذلك على ما أعتقد أنني نشأت بأسوان، وهي أعرق مدينة بين مدن مصر القديمة بموروثاتها التي لا تبلى، وهي في الوقت نفسه مدينة أوروبية في الشتاء، أو كانت كذلك يوم نشأت بها نشأتي الأولى، فأوروبا كلها كانت تتراءى هناك كل شتاء بملاهيها، وأزيائها، وعاداتها، ومؤلفاتها، وفنونها، واختلاف أقوامها.

وأنا أحب الأطفال جدًّا، وكان في منزلنا جماعة من الأطفال أكبرهم في السادسة من عمره، وهم جميعًا أصدقائي، وكثيرًا ما يصعدون إلى مسكني يسألونني، ويتحدثون معي ما شاء لهم الحديث.

أنا يأسرني الفن الجميل، حتى إنني أبكي في مشهد عاطفي أو درامي مُتقَن الأداء، وأذكر أنني بكيت في أول فيلم أجنبي ناطق، وكان يُمثِّله المُمثِّل القديم «آل جولسون»، وكان مع «آل جولسون» طفل صغير يُمثِّل دور الطفل الذي حُرِّم

من أمه، وظل هدفاً للإهمال حتى مات ... وتأثرت من الفيلم وبكيت، ولم أستطع النوم في تلك الليلة، إلا بعد أن غسلت رأسي بالماء الساخن ثلاث مرات متتالية ... وأنا أستعين بغسيل الرأس بالماء الساخن على إبعاد الأفكار السوداء عني عندما تتملكني.

ومن صفاتي التي لا يعرفها الناس، أنني إذا عُوِّمِلت بالتسامح لا أبدأ بالعدوان أبداً، وإذا هاجمني أحد فلا أرحمه، وقد قالت سارة عني ذات مرة: «إن من يظهر طرف السلاح للعقاد يا قاتل يا مقتول!»

ولديّ صفةٌ عجيبةٌ أعتز بها أيما اعتزاز، وهي أن لديّ حاسة سادسة لا تخطئ، ففي أحد الأيام — كنت بأسوان — سألت أخي فجأة عن صديق لي لم أكن قد رأيته منذ مدة، وفي المساء جاءني برفقة تنعى ذلك الصديق، وقد تبينت بعد ذلك أنه توفي في اللحظة نفسها التي تذكرته فيها، وقد تكررت مثل تلك الحوادث كثيراً حتى عرف عني أصدقاؤني هذه الصفة.

وأنا وفيّ جداً لأصدقاؤني من الأحياء والأموات، كما أنني وفيّ لذكرياتي، وأعتز بها كل الاعتزاز، وقد كنت شديد التعلق بوالدتي، وعندما كنت أزور أسوان كان أول ما أفعله هو أن أنزل من القطار وأهرع إلى غرفة والدتي، وألتصق بها ... فلما توفيت إلى رحمة الله لم أدخل غرفتها حتى الآن؛ كي لا أراها فارغة منها، حتى الشوارع التي كنت أغشاها مع صديقي المازني — رحمه الله — لم أستطع أن أغشاها بعد مماته، وصرت أتجنب ما يُذكّرني بفجيعتي فبهما حتى لا أحزن من جديد.

## وُلِدَتْ فِي أُسْوَانَ

وُلِدَتْ فِي أُسْوَانَ يَوْمَ ٢٨ يُونِيُو سَنَةِ ١٨٨٩، وَلي إِخْوَةٌ أُشْقَاءٌ وَغَيْرُ أُشْقَاءٍ، فَقَدْ كَانَ وَالِدِي مُتَزَوِّجًا قَبْلَ وَالِدَتِي، ثُمَّ مَاتَتْ زَوْجَتُهُ، وَبَعْدَهَا تَزَوَّجَ أُمِّي ... وَكَبِيرُ أُشْقَائِي أَحْمَدُ، وَكَانَ يَعْمَلُ سَكْرَتِيرًا لِمَحْكَمَةِ أُسْوَانَ، وَهُوَ الْآنَ عَلَى الْمَعَاشِ، وَعَبْدُ اللَّطِيفِ وَهُوَ تَاجِرٌ، وَلي شَقِيقَةٌ وَاحِدَةٌ نَحْبُهَا جَمِيعًا، وَهِيَ مُتَزَوِّجَةٌ تَعِيشُ فِي الْقَاهِرَةِ إِلَى جَوَارِي، أَمَّا إِخْوَتِي غَيْرُ الْأُشْقَاءِ، فَهَمَّ جَمِيعًا أَكْبَرُ مِنِّي سَنًا، وَبَعْضُهُمْ يَعِيشُ فِي الْقَاهِرَةِ، وَبَعْضُهُ الْآخَرُ بِأُسْوَانَ.

بَدَأَتْ حَيَاتِي الْأَدْبِيَّةَ وَأَنَا فِي التَّاسِعَةِ مِنْ عَمْرِي، وَكَانَتْ أَوَّلُ قَصِيدَةٍ نَظَمْتُهَا فِي حَيَاتِي هِيَ قَصِيدَةُ مَدْحِ الْعُلُومِ، وَقَلْتُ فِيهَا:

عَلَّمَ الْحَسَابَ لَهْ مَزَايَا جَمَّةَ

وَبِهَ يَزِيدُ الْمَرْءُ فِي الْعُرْفَانِ

وَالنَّحْوُ قَنْطَرَةُ الْعُلُومِ جَمِيعَهَا

وَمُبِينٌ غَامِضِهَا وَخَيْرٌ لِسَانِ

وَكَذَلِكَ الْجُغْرَافِيَا هَادِيَةٌ الْفَتَى

لِمَسَالِكِ الْبُلْدَانِ وَالْوُدْيَانِ

وَإِذَا عَرَفْتَ لِسَانَ قَوْمٍ يَا فَتَى

نَلْتَ الْأَمَانَ بِهِ وَآيَ أَمَانِ

وتدرجت في المدارس، ثم جئت إلى القاهرة للكشف الطبي عندما التحقت بإحدى وظائف الحكومة عام ١٩٠٤، وكان عمري إذ ذاك ١٥ سنة، وكانت وظيفتي في مديرية قنا، ولم تكن اللوائح تسمح بتثبتي؛ لأنني لم أكن قد بلغت بعد سن الرشد، ثم نُقلت إلى الزقازيق، ثم كنت أول من كتب في الصحف يشكو الظلم الواقع على الموظفين، ثم سئمت وظائف الحكومة، وجمت إلى القاهرة، وعملت بالصحافة، وأخيرًا عُيِّنت عضوًا بمجلس الفنون والآداب ... كما عُيِّنت بالمجمع اللغوي.

## (٢) أبي

هل يعرف أحد من أين لي باسم «العقاد»؟  
لا أحد طبعًا ... وهناك غير هذا أشياء كثيرة لا يعرفها الناس عني، أشياء قد تبدو غريبة، لكنني أقولها في هذا المقام.  
أما اسم «العقاد» فأذكر أن جدّ جدي لأبي كان من أبناء دمياط، وكان يشتغل بصناعة الحرير، ثم اقتضت مطالب العمل أن ينتقل إلى المحلة الكبرى حتى يتخذها مركزًا لنشاطه، ومن هنا أطلق عليه الناس اسم «العقاد»، أي الذي «يعقد» الحرير ... والتصقت بنا، وأصبحت علمًا علينا ...

...

قد تعجب إذ تعلم أن جدنا الأكبر من دمياط، مع أن الجميع يعرفون أنني من أسوان، وأن عددًا من أبناء أسرتنا لا يزال يعيش في أسوان حتى اليوم.  
وإني أتمثل «أبي» الآن في الصورة التي رأيتها ألفي مرة بل أكثر من ألفي مرة؛ لأنني كنت أراها كل يوم منذ فتحت عيني على الدنيا، إلى أن فارقت بلدتي بعد اشتغالي بالوظائف الحكومية ...

وتلك هي صورته على مصلاه، يؤدي صلاة الصبح، ويجلس على سجادة الصلاة من مطلع الفجر إلى ما قبل الإفطار؛ ليتلو سورة خاصة من القرآن الكريم، ويعقبها بتلاوة الدعوات.

وكان يؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها، ولكن جلسته في الصباح الباكر هي التي انطبعت في ذاكرتي إلى هذه الساعة؛ لأنها كانت أول ما أستقبله من الدنيا كل صباح.

ومن أجل الصلاة حدث بيني وبينه خلاف يُوصَف بالعصيان؛ فإنه — رحمه الله — كان يدين بالجد في الواجب، أو بالشدّة في الجِد، وكان يرى للطفل ما يراه للشيخ، إذا كان الأمر أمر فريضة، أو عمل محمود، أو عرف مأثور ... من ذلك أنه كان يراني فيما دون الثامنة من عمري أجلس في المنزل بين قريباتي وخالاتي وجارات المنزل، فيصيح بي مستغضبًا: عباس ... ماذا تصنع هنا بين النساء؟ ... تعال معي فاجلس بين أمثالك ...

ومن هم أمثالي؟! شيخ فيما بين الأربعين والسبعين، كانوا يسمرون معه في «المنذرة»، ويقضون الوقت في أحاديث الشيخ عن السياسة تارة، وعن قضايا الأسر الكبيرة تارة أخرى، وقلما يمزحون أو يتفكهون إلا تابوا إلى وقارهم كالمعتدين ... وكانت السهرة تنقضي على أحسن حال إذا حضرها شيخ متحدث معلوم فيه بعض الغفلة ... فيناوشونه بالأسئلة المحرجة، والدعابات المتناقضة ... ثم يعودون إلى ما كانوا فيه.

...

وقد أفادتني هذه الجلسات كل فائدة تأتي من التوقر قبل سن الوقار، وقلما يخلو من بعض الأضرار.

ولكن فائدتها الكبرى كانت — ولا ريب — معرفتي بالقاضي أحمد الجداوي — رحمه الله — فإنه كان من أدباء الفقهاء الذين عاصروا السيد جمال الدين، وأخذوا عنه دروس الحكمة والغيرة القومية، وكان قوي الذاكرة، واسع المحفوظ من المنظور والمنثور، يستظهر مقامات الحريري، وبديع الزمان، ودواوين الشعراء الفحول، ويطارح خمسة أو ستة من الأدباء في وقت واحد فيسكتهم دائماً، ولا يسكتونه مرة واحدة. فكانت معرفتي به إحدى الدواعي التي حفرتني للمطالعة، والإقبال على الكتب والدواوين.

ومن أمثلة الجد الشديد في السيد الوالد — رحمه الله — أنه كان ينظر إلى «الصور» كأنها ألعايب فارغة لا تليق بالعقلاء، فلم يتخذ له صورة قط، ولم يوافقني على شراء صورة من صور الفصول المدرسية التي كانت تُرسم للمدرسة كل عام.

على هذه السُّنة من الجد الشديد أراد — رحمه الله — أن أوأظب على الصلاة في أوقاتها قبل العاشرة من عمري، فكان أثقل ما أعانيه في ذلك يقظة الفجر في الشتاء، وهو الوقت الذي يرين فيه النوم على الأطفال، فلا يستيقظون إلا بعد جهد عنيف.

وصبرت على هذا الجهد العنيف مرتين أو ثلاث مرات أو أربع مرات، ثم تمردت دفعة واحدة، وقلت لمن جاء يوقظني: «أذهب عني، فلست بالمستيقظ... ولست بالمصلي اليوم!»

وسمع أبي ما قلت فصاح بي: «ماذا تقول؟ ... أتقول إنك لا تصلي؟» ووثب إلى  
عصاه ...

فذهب بي الإصرار مذهبه، وقلت: «نعم!»

فصمت ولم يزد، وأعرض عني أيامًا لا يكلمني حتى تناسينا هذا الخلاف، وكنا مع  
ذلك نجلس إليه جميعًا على الطعام في الصباح والمساء، وأحيانًا في طعام  
الغداء.

...

وموضع الشدة في هذه المسألة أنني لم أكن أنفر من الصلاة، ولا من الفرائض  
الدينية، بل كنت أخف إلى المسجد بعض الأوقات، وأنشد على المئذنة أناشيد  
الجمعة الأولى، وظللت أنشدها بعد ذلك وأنظمها، ولا أذكر للمؤذن أنني نظمتها؛  
لئلا يستصغرها ويرفض إنشادها، ولكن الشدة صدمتني لأنها كلّفتني ما لا أطيعق  
قبل الأوان، وجاءتني في معرض الإكراه والإلزام، وهي عبرة تُساق للاستفادة منها  
في هذا المقام.

ولا أزال أذكر ملامح السرور التي رأيتها على وجه أبي حين أنشدته قصيدة من  
تلك القصائد التي كنت أنظمها في مدح النبي عليه السلام، فإنه تهلل واستبشر،  
ولعله تهلل واستبشر لتزعتي الدينية قبل براعتي في نظم الشعر أو تجويد  
الكتابة، ولا يلاحظ عليّ إلا أنني ختمت القصيدة بشطر أقول فيه على ما أذكر  
مشيرًا إلى نفسي: «عباس من هو في الأشعار مدرارًا.»

فقال: «إن الأباصيري أكبر مادي النبي قد ختم مدائحه معتذراً عن التقصير،  
فافعل كما فعل، أو فاسكت عن الاعتذار وعن الإطراء.»

...

وكان — رحمه الله — يحتقر المال أن يطلبه بما يسوء في الضمير، أو يسيء  
إلى إنسان.

وقد كان في وسعه أن يجمع الثروة العريضة من وظيفته، فلم يكسب منها غير  
مرتبه، وما هو بالكثير.

...

كان أميناً «للمحفوظات» بإقليم أسوان، وكانت أسوان خارجة من القلاقل  
الجسام التي حاقت بها في حرب الدراويش، فمعظم أبناءها الأغنياء كانوا يتَّجرون  
في السودان، فانقطعوا هناك بعد انقطاع المواصلات، وذهبت الوثائق فلم يدِر  
أحد ما ذهب منها وما بقي بدار المحفوظات، وتداولت هذه المحفوظات أيدي كثيرة  
على غير انتظام في التسليم والاستلام ... وكثر المدَّعون للأرض والعقار؛ اعتماداً  
على ضياع الوثائق وغياب المالكين وموت بعض الوارثين، فلو شاء أبي في هذه  
الفترة أن يخفي ويظهر، وأن يقبل المساومة والإغراء، لقاسم الكثيرين فيما  
يدَّعون أو فيما يملكون، ولكنه أوصد هذا الباب فلم يطمع فيه طامع، وسلم  
دار المحفوظات لمن بعده، وهي مثل في الدقة والضبط وسهولة المراجعة  
والإحصاء.

...

ومن تقديراته أنه في احتقار المال الذي يُكسب عن طريق الإساءة إلى الناس، أنه زجر أخي الكبير زجرًا شديدًا، حين علم أنه ينوي التبليغ عن بعض المتهمين في قضية جُعِلت للمُبَلِّغ فيها مكافأة قدرها خمسون جنمًا — أو مائة جنيهه — لا أذكر الآن على التحقيق.

وجلية القضية أن فتى من الشبان الوارثين بالقاهرة حضر إلى أسوان في الشتاء ومعه ألف جنيه، وكانت أسوان مرتاد السائحين والسائحات في موسم الشتاء، وفيها من أسباب الإنفاق والمتعة مطمع لأمثال ذلك الوارث، ومن يلوذون بالمبذرين والمُسرفين، وسُرِق الوارث قبل أن يستنفد من الألف مائة أو مائتين، وانحصرت الشبهة في شاب موظف بالمحكمة، كان يسكن مع أمه وأبيه في بيت لنا مجاور للبيت الذي نقيم فيه، فراحت أمه إلى جارة لها تستجملها، وتظن أنها لا تعرف ورق النقد الذي كان في الواقع غير معروف بين أكثر الناس، فاستودعتها لفافة من الورق هي جملة المبلغ المسروق، ولكن المرأة أطلعت زوجها على الخبر، وهو من كُتِّب العرائض المدربين؛ فعرف الورق وعرف سرَّ القضية، وأخفى كل ما وصل إليه.

...

مثل هذا الخبر لا يخفى بين سكان حي من أحياء الريف؛ فعرفنا ما حدث، وعرفنا أن الوارث سمح بالمكافأة التي ذكرناها لمن يرشد إلى السارقين، ونظر أخي الكبير إلى القضية نظر الرجل العصري الذي لا يبالي أن ينتفع بالمال للتبليغ عن مجرمين، ونظر أبي إليها نظرة الجيل القديم يستعيد من فضيحة الحرمات من

أجل ما يبذره وارث سفيه ... فدعا بأخي أمامنا جميعًا، وأقسم له أغلظ الأيمان  
لئن أقدم على التبليغ ليبرأَنَّ منه مدى الحياة، ولا يأذن له أن يمشي في جنازته  
بعد الممات.

وكان يحاسب نفسه على كل حصة من المال تجتمع في حوزته، وتُفرض عليها  
الزكاة فيوزعها خفية، ويرسلني بها إلى بيوت بعض الفقراء الذين لا يتعرضون  
للسؤال، ولا يرُدُّ مسكينًا يطلب الطعام من المساكين الذين يترددون على  
الأبواب.

وكان كثير العطف على ذوي قرياه، يزورهم في المواسم والأعياد، سواء منهم من  
كبر ومن صغر، ومن استغنى ومن افتقر، على ما كان في انتقاله إليهم من المشقة  
بعد أن جاوز الخمسين، وإذا استخلص منهم واحدًا لسداد رأيه، وخلص  
طوبته، شاوره في الجليل والدقيق من شئون الأسرة، واعتمد على مشورته في  
كثير من الأحيان.

ولم يكن يغضب لشيء كما كان يغضب لكرامته وسمعة اسمه، ومن ذاك أنه  
كان له حمار ينتقل عليه من قرية إلى قرية، حين كان معاونًا للإدارة، فلما استقر  
في المدينة باعه لبعض المكارين،<sup>1</sup> وكان الحمار مشهورًا بالسرعة وهدوء الحركة،  
فكان المستأجرون يطلبونه ويقولون للمكاري: «هاتِ حمار العقاد.» ثم  
اختصروا كعادتهم فأصبحوا يطلبونه فيقولون: «هاتِ العقاد! هاتِ العقاد.»  
فلما سمع بذلك عاد فاشتراه، وقبل المغالاة في ثمنه على غير حاجة إليه،

واستبقاه يعلفه، ويتحمل ضجته حتى اشتراه من ينقله إلى قرية بعيدة لا  
يستخدمه فيها بالكراء!

...

ولم يكن مكثراً من القراءة في غير الكتب الدينية، ولكنه كان يحدثنا دائماً عن  
تجاربه ومصاعب حياته، ويأبى علينا أن نستمع إلى أقاصيص العجائز وحكايات  
الأساطير.

على أنني وجدت في دواليب «المنذرة»، بعد أن بلغت سن القراءة، أعداداً كثيرة  
من مجلة «الأستاذ» لصاحبها عبد الله نديم؛ فاتصلت بالحركة الوطنية قبل أن  
تنشأ في القطر صحيفة من صحفها الحديثة.

وجملة ما أذكره لذلك الأب الكريم، أنني مدين له بالكثير، وأني لم أرث منه مالا  
يغنيني ... ولكنني استفدت منه ما لا أقدره بمال ...

### (٣) أمي

في سنة ١٩٣٠ ذهبنا إلى الصعيد في رحلة انتخابية، وكان النقراشي — رحمه الله — قائد «التجريدة» كما سمينها يومذاك؛ لأن النقراشي كان كعادته يسير في ترتيب أعمالها، وتنظيم مواعيدها على خطة عسكرية لا تختل قيد شعرة، وكان نظامها يستلزم في بعض الأيام أن نستيقظ قبل الفجر لإدراك موعد القطار، فكان القائد اليقظ يسبقنا إلى البكور، ولا تمضي دقائق معدودات حتى تصبح التجريدة كلها على استعداد.

ونزلنا سوهاج فاسترحنا بمنزل الأستاذ محمد حسن المحامي، وجاءني الأستاذ يقول: «هل يتسع الوقت للقاء خالك؟» فالتفتُ إلى النقراشي أسأله، فقال: «نعم ... وزيادة».

...

ثم عاد الأستاذ صاحب الدار يقول: «إن الزوارق حاضرة»؛ لأننا كنا ننوي أن نعبّر النيل إلى أخميم، ونعود منها قبل إطباق الظلام، فسأله النقراشي: «أولسنا منتظرين حتى يحضر خال العقاد؟!»

قال الأستاذ محمد حسن: «ها هو ذا قد حضر، ولا يزال حاضرًا، وإن شاء عبّر النيل معنا.»

والتفت النقراشي إلى جانبي فرأى شيخًا أبيض الوجه، أميل إلى الشقرة، وتولّيت التعارف بينهما، فحيّاه النقراشي وهو يقول ضاحكًا: «عجبًا ... لقد كنت أقرأ في

الكشكول والصحف الشتامة عن «بخيتة السودانية» أم عباس العقاد، وكنت أحسهم يجذون فيما يكتبون، فخطر لي أنني أنتظر رجلاً أسود أو قريباً من السواد حين جلسنا ننتظر خالك ... أما أن يكون رجلاً أشقر له بقايا شعر أصفر، فهذا ما لم يخطر ببال.

وسألني مازحاً: «لماذا لم تكذب الخبر؟»

قلت: «إنني لم أكذب أخباراً أكذب من هذه، فما بالي أكذب نسبي إلى أم سودانية؟ ليس في الأمر ما يوجب البراءة منه، والاهتمام بتكذيبه ... فكم أنجبت السودانيات من رجال يفخرون بالأمهات.»

لقد كانت أسرة «أمي» من أبويها جميعاً كردية قريبة عهد بالقدوم من ديار بكر، وقد رأيت أحدهم لا تميّزه من أمم الشمال في لونه وقامته، وقد بقي بعضهم إلى أيام طفولتنا نعاكسه حين ندعوه إلى أكلة «ملوحة» أو «ملوخية»: لأنهم لم يتعودوا أكلها، فكنت أقرأ الأكذوبة عن «بخيتة السودانية»، وقد وقر في نفسي أنها أبعد من أن تُصدّق، واقترنت هذه الأكذوبة بأكذوبة أخرى في ذلك الحين تُروى عني أنني أهمل زوجتي، وأتركها تتسكع في الطرقات، ولم تكن لي زوجة قط حتى تتسكع في طريق أو في بيت! فلماذا أحفل بما يُقال، وكله من هذا اللغو المحال؟!

ولكن هل كانت حكاية «السودانية» كذباً محضاً من الألف إلى الياء؟ كلا ... ويا للعجب! فإن أجداد أمي جميعاً قد تزوجوا في السودان، وكان جدها لأبيها وجدها لأمها في الفرقة الكردية التي توجهت إلى السودان بعد حادثة إسماعيل بن محمد

علي الكبير، وهناك عاش عمر أغا الشريف قبل قدومه إلى أسوان، وهو جد أمي لأبيها، وأبوها هو محمد أغا الشريف الذي اختار «أطيان» المعاش في قرية من قرى الإقليم... الذي يتذاكره كبراء السن الأسوانيون عن عمر أغا الشريف أنه كان رجلاً شديد التقوى، شديد القوة البدنية، يدرب أبناءه على الرياضة العسكرية كأنهم على الدوام في خدمة الميدان.

وُلد له محمد وعثمان ومصطفى وحمورية وفاطمة، وخُطبت حمورية وفاطمة فأراد أن يحتفل بزواجهما معاً، ثم علم أن خطيب فاطمة لا يصلي، فأبطل الخطبة في اللحظة الأخيرة، وقال للوسطاء الذين حاولوا أن يصلحوا الأمر: إني لا أزوج ابنتي لتارك صلاة، ولا لمحدث نعمة، كلاهما يجحد نعمة الله ...

وشاعت حوادث «العبد» قاطع الطريق في الصحراء، وخافه الجند، وهابه تجار القوافل، فقال عمر لأصغر أبنائه مصطفى: أسمع هذا وتترك ذلك العبد يعيث في الأرض فساداً؟! فما انقضى أسبوع حتى عاد مصطفى بالعبد مكتوف اليدين. وقد مات مصطفى هذا على أثر ضربة من ضرباته أغراه بها فرط قوته، فإنه تصدى لثور هائج، فقمعه وألقاه على الأرض، فلم تنقض أيام حتى لقي نَحْبَهُ، وقيل إنها حسد ... ولعلها كانت مزقة في داخل الجسم من ذلك الجهد العنيف ...

أما محمد أغا جدي لأمي فقد كانت فيه تقوى أبيه، وصلابته، وكثير من أنفته واعتزازه بكرامته، وقد كان يمزج هذه الأنفة بالعمليات، ولا يقصرها على القول أو السلوك.

ذهب إلى قرى الإقليم ليختار أطيان المعاش، فكان كلما سأل عن زراعة أرض، فقالوا له: إنها عدس أو فول ... قال: لا شأن لي بها، حسبنا من العدس والفول ما استوفيناها في السنجق، أي الفرقة العسكرية ... حتى جاء إلى أرض قيل له إنها تزرع قمحًا أو شعيرًا.

فقال: هذه أرضي: القمح لمحمد أغا، والشعير لحصانه! واختارها مع ما بينها وبين الأطيان الأخرى من فرق في الثمن يبلغ ثلاثة أضعاف!

ورثت أمي تقواها وسلامة بنيتها من أبيها وجدها، ففتحت عيني أراها وهي تصلي وتؤدي الصلاة في مواقيتها، ولم يكن من عادة المرأة أن تصلي في شبابها، إنما كانت النساء لا يصلين إلا عند الأربعين ...

ومما ورثته عن أboيها حب الصمت والاعتكاف ... كان الناس يحسبون هذا الصمت والاعتكاف عن كبرياء في جدي رحمه الله، وكانوا يقولون إنها «نفخة أترك!»

لكنها لم تكن «نفخة أترك» كما توهموا، بل كانت طبيعة تُورث، وخلقة بغير تكلف، ولم أرَ في حياتي امرأة أصبر على الصمت والاعتكاف من والدتي، فربما مضت ساعة وهي تستمع من جاراتها وصديقاتها، وتجيهن بالتأمين، أو بالتعقيب اليسير، وربما مضت أيام وهي عاكفة على بيتها أو على حجرتها، لا تضيق صدرًا بالعزلة وإن طال، ولا تنشط لزيارة إلا من باب المجاملة ورد التحية.

ومن المصادفة اتفاق والدي ووالدتي في هذه الخصلة، ولست أنسى فزع أديب زارني يوماً وعلم أنني لم أبرح الدار منذ أسبوع، فهاله الأمر كأنه سمع بخارقة من خوارق الطبيعة ... إنها وراثه من أبوين يؤكدها الزمن الذي لا تُحمد فيه معاشره أحد ... إلا من رحم الله!

وقوة الإيمان في والدتي هي التي بنت فيها العزيمة ليله احتضاري ... نعم أيها القارئ الكريم ولا تعجب ... فقد احتضرت قبل نيف وثلاثين سنة، كما تخيل عوادي في تلك الليلة، فإذا بالوالدة هي الإنسان الوحيد الذي يتحمل على نفسه إلى جانب سريري ليقنعني أنني بخير ... وتنطوي على ذلك ساعات وهي على عزمتهما، حتى جاء الطبيب أخيراً وأنبأهم أنه عارض غير ذي بال، فإذا بالمحتضر قد نجا، وإذا بالمؤاسية قد سقطت مغى عليها.

وكانت والدة لا تنكر من شئوني شيئاً إلا الورق ... نعم: ما هذا الورق؟ الورق الذي لا ينتهي!

هذا الورق الذي لا ينتهي هو الذي يمرضني، وهذا الورق الذي لا ينتهي هو الذي يصرفني عن الزواج، وهذا الورق الذي لا ينتهي هو سبب الشهرة ... ووالدتي أيها القارئ من أعداء الشهرة تتطير بها، ولا تغتبط بها لحظة إلا تشاءمت لحظات.

هذه الشهرة هي التي «تشيل غارتك» ... أي تجعلهم يتحدثون عنك، وما تحدث الناس عن أحد وسلم من ألسنة الناس!

وقلت لها ذات يوم: «لو وَجَدتِ لي زوجةً مثلك تزوجت الساعة...» ولم أكن مجاملاً والله ولا مراوغةً... فإنني لا أنسى كمال تديرها لبيتها منذ صباها، وكنا بفضل تديرها هذا ننتفع بالجورب حتى بعد أن يرثَّ ويبلَى... فإنه يصلح عندئذ كرة محبوكة!... ويغنيننا عن شراء الكرات التي لا تحتمل أقدامنا مثل احتمالها. ولقد تُوفِّي والدي وهي في عنفوان شبابها، وكان لي أخ صغير، فتوفرت على تربيته وتركت كل شاغل غير طفلها هذا وأبنائها الكبار. ولقد ورثت منها كثيراً إلا القصد في النفقة، وتدير المال، وحسبي بحمد الله ما ورثت منها.

## (٤) بلدتي

صفاء في جو المكان قلماً تشوبه غاشية، وامتلأ في جو الزمان قلماً تخلو منه زاوية ... تنتقل فيها من عصر إلى عصر كما تنتقل فيها من حارة إلى حارة، وترجع

في تاريخ مصر إلى أقصى الماضي فتلقى لها تاريخاً مثله!

هي بلدة خالدة! بل هي بلدة مخلدة! لأن معالم الخلود في الهياكل والتمثيل مستعارة من محاجرها، فهي كالزمن حين تهب الخالدين مادة الخلود ... تلك هي بلدتي أسوان، ولم تكن قط شيئاً هملاً في عصر من العصور ...

كانت على أيام الفراعنة مفتاح الجنوب، ومثابة التجارة بين جانبي الوادي القديم، وملتقى القوافل بين جوانب الوادي جميعاً، وصحراء المغرب والمشرق من البحر الأحمر إلى بحر الظلمات، صاحبت الأرباب منذ عرف الناس الأرباب ... فأقيمت فيها الصلوات لإله النيل، وأقيمت لإيزيس وأوزوريس، وأقيمت «لهموا» رب الجنود، وتلاحقت فيها أديرة الرهبان من أتباع السيد المسيح، وصوامع النسك من أتباع محمد عليه السلام ...

وفد إليها «هيرودوت» و«سترابون» من آباء التاريخ، وكان أبو التاريخ يقول عن كهانها: إنهم كانوا يسخرون به كما يسخر الرجل الكبير في حديثه إلى الطفل الصغير! ... وذكرها «حزقيال» في نبوءات التوراة، وعرفها الشاعر الأبق دعبل، كما عرفها الشاعر رهيبن المحبسين أبو العلاء:

أسوان أنت لأن الركب وجهتهم

أسوان أي عذاب دون عذاب

وبين أسوان وعيذاب، كان طريق حجاج المسلمين منذ اضطربت بلاد أبي العلاء بالفتن والثورات، وتحول قصاد بيت الله إلى هذا الطريق.

وفيهما من ذكرى العلم، كما فيها من ذكرى الحرب والسياسة، فعُرفت فيها أصدق الأرصَاد عن محيط الأرض قبل ميلاد السيد المسيح بأكثر من مائتي سنة ... كما عُرِفَتْ فيها أصدق الأرصَاد عن جرم الشمس بعد المسيح بقراءة ألفي سنة ... ولا تزال في جزيرتها بئر يدلونك عليها، ويقولون لك: إنها البئر التي نظر فيها «أراتوستين» علامة زمانه في علوم السماء حين قاس زاوية الأرض من الإسكندرية إلى أسوان ...

واتصلت فيها أسباب العلم من عهد الفراعنة واليونان إلى عهد الإسلام ... فقال «كمال الدين جعفر بن ثعلب» في القرن الثامن الهجري: «قد خرج من أسوان خلائق كثيرة لا يُحصون من أهل العلم والرواية والأدب ... قيل إنه حضر مرة قاضي قوص، فخرج من أسوان أربعمائة راكب بغلة للقائه ...» كناية عن العالم؛ لأن البغلة كانت ركوبة العلماء ...

وكانت إلى ذلك العهد تُسمَّى «الثغر»؛ لأنها تزدهم ازدحام الثغور الحافلة بطلاب العلم، وطلاب التجارة، وطلاب اللهو والفراغ ... وفيها يقول كمال الدين:

أسوان في الأرضِ نصفُ دائرةٍ

الخيرُ فيها والشرُّ قد جُمعا

تصلحُ للناسكِ التقى إذا

## أقامَ والفاثِكِ الخليعِ معا

وقد تغيرت تواريخ الدول، وتعاقبت حكومة بعد حكومة، ولا تزال أرضها هي أرضها، وسماؤها هي سماءها، ومناظرها هي ما كانت عليه من نمط فريد بين مناظر الطبيعة المصرية، لا تشاهد في بلد من بلاد مصر ما تشاهده فيها من جزر وجنادل وتيارات وصخور في الماء والصحراء، تجمع من الألوان ما تجمعها المعادن والجواهر، وتحكي الذهب والفضة والشبه كما تحكي الزمرد والمرجان والياقوت، وذهب من جنادلها ما ذهب، فقام في مكانها الخزان، وتلفتت مصر ترتقب من لديها مطامع الضياء كما كانت من قبل ترتقب منابع الماء.

وُلِدْتُ فيها بمشيئة القدر، ولو أنني ملكت الأمر لُولِدْتُ فيها بمشيئتي؛ لأنها الموطن الذي يُستفاد منه خير ما أثرته لنفسه من النظر إلى الحياة ... فليس مما أحبه لنفسه أن يحصرني الحاضر في نطاقه، ولا أن يحوييني الخير الأرضي في حدوده ...

أدعو إلى الإنسانية في الأدب، وأنظر إلى «العالمية» في المستقبل، وأحب مصر والشرق، ولكني لا أحب ضيق الأفق في عصبية وطنية أو شرقية ...

وفي أسوان رأيت التقاء التاريخ الماضي بالحاضر الذي نعيش فيه، فالمتحف فيها والبيت يتقابلان، والتاريخ فيها حيٌّ يُرزَق، ويتنفس الهواء؛ لأنه مائل شاخص في الأحياء، والحياة فيها تتسربل بقداسة التاريخ العريق؛ لأنها صورة منه تتجدد مع الأجيال. وفي أسوان رأيت التقاء المشرق والمغرب، ودرجت وأنا أشهد الحضارة الأوروبية في كل جنس من أجناسها، وكل ناحية من أنحاءها.

وفي أسوان — من أهل أسوان فضلاً عن الغرباء عنها — عصابة أمم صغيرة يتجاور فيها من ينتهي إلى الفراعنة، ومن ينتهي إلى العرب، ومن ينتهي إلى البجاة، وتساءل عن نسب الأسرة في ذلك عنوانها على أصل من الفرس، أو من الترك، أو من المجر، أو من البوشناق، أو من العباسيين، أو من العبيديين؛ لأنهم جميعاً وفدوا إليها مع قوافل التجارة، أو مع سرايا الجيوش، أو مع اللاندين الناجين بأنفسهم من تقلب الدول، وتنازع الحكومات ...

فإذا ذكرت أسوان بلدتي جاز لي أن أذكرها فأقول مدرستي؛ لأنني — كما أسلفت — أدين بالإنسانية في الأدب، وبالعالمية في السياسة، وبالوطن الذي تتسع له آفاق الفكر، وآفاق الشعور ... ولعلي قد تنفست هذه الدروس من هواء الموطن قبل أن أقبسها من صفحات كتاب ...

## (٥) طفولتي

يُقَالُ إنَّ الذَّاكِرَةَ مَلَكَةَ مُسْتَبِدَّةٍ، وَيُرَادُ بِنِسْبَةِ الِاسْتِبْدَادِ إِلَى هَذِهِ الْمَلَكَةِ الْعَقْلِيَّةِ أَنَّهَا تَحْفَظُ وَتَنْسِي عَلَى غَيْرِ قَانُونٍ ثَابِتٍ، فَتَذَكُرُ الْأُمُورَ عَلَى هَوَاهَا، وَلَا تَذَكُرُهَا بِقَدْرِ جِسَامَتِهَا وَاقْتِرَابِ زَمَانِهَا، وَقَدْ تَحْتَفِظُ بِأَثَرِ صَغِيرٍ مَضَى عَلَيْهِ خَمْسُونَ سَنَةً، وَتَهْمَلُ الْأَثَرَ الضَّخْمَ، وَإِنْ عَرِضَ لَهَا قَبْلَ شَهْرٍ أَوْ أَسَابِيعَ.

هذه الدعوى التي يدعونها على الذاكرة الإنسانية غير مكذوبة من أساسها، وفيها ولا ريب ما يوجب الشبهة، إن لم نرد أن نقول: ما يوجب الثبوت واليقين. كل ما أراجعه من معاهد الطفولة بأسوان يصلح أن يكون شاهداً لاتهم الذاكرة بهذه المحاباة، إلى أن يثبت أنها محاباة استبداد وهوس، على أسلوب ابن عباد:

لا تمدحنَّ ابنَ عبادٍ وإن هطلت

يداه بالجود حتى شابهَ الدِّيمَا

فإنَّها خَطَرَاتٌ من وساوسه

يُعْطِي وَيَمْنَعُ لَا بُخْلًا وَلَا كَرَمًا

فمن هذه المحاباة أن بعض معاهد الطفولة يذكّرني بأشياء رأيتها في الثالثة من العمر، وأشياء رأيتها في السابعة، وغيرها رأيتها في التاسعة والعاشر، ولا أحتاج في استعادتها وإحيائها بتفصيلاتها إلى جهد عسير، بل أراها أمامي تتمثل بألوانها وأشكالها ومناسباتها كأنها من مشاهدات العيان منذ ساعات.

وإني — مع هذا — لأجتهد بما وسعني من الجهد أن أغالب النسيان المطبق في أمور لم يمضِ عليها غير سنين، ثم أذكرها — بعد إعنات الفكر — فتظهر لي كأنها ملتقمة بغواشي الضباب، بين الكثيف منه والرقيق ... لكنني أعود إلى أسباب هذه المفارقات، فلا أكاد أعتقد أنها محاباة على أي معنى من معاني المحاباة، ودعنا من قول القائلين إنها وساوس ابن عباد في الهوس والاستبداد.

فكل ما تذكرته قبل العاشرة فهو من ذكريات «الانتباه الأول» ... ومن نوع الحوادث التي تأتي وحدها متميزة بين غيرها، ولا تأتي مع حوادث «الوتيرة»، والسياق المتكرر المملول ...

### في الثالثة من عمري

كنت في الثالثة يوم جربت رحلتي النيلية للمرة الأولى، وكانت السفينة تضطرب بين الشاطئين، ويضطرب معها الشراع الذي يحاول أن يستقبل مهب الريح على غير جدوى، وكان بيننا وبين ضريح ولي الله الذي نقصده لوفاء نذر الفدية، والزيارة أكثر من عشرة أميال، فوقفت السفينة على الشاطئ الشرقي، وخرج النواتية يطبخون طعامهم تحت نخلات هناك، وكانت لي في تلك الطبخة حصة القهوة التي تعودت أن أشرها ملوثة بلون البُنِّ، مشبعة بالسكر، كأنها تعلقة من تعلات الفطام.

ليس من استبداد الذاكرة — إذن — أن يثبت هذا المنظر في الثالثة، وأن تزول بعده عشرات المناظر من الرحلات النيلية أو البرية، التي تمر على وتيرتها مع تيار الحوادث والأخبار ...

وكنت في السابعة يوم عصف وباء الهيضة (الكولرا) بأسوان، وكاد الحي الذي نقيم فيه أن يخلو من سكانه بين مصاب وميت ومهاجر، ومعتكف يحاذر زبانية الحجر الصحي محاذرة السائر آجام السباع ...

ويرنُّ في أذني إلى الساعة صباح النواتية إذ يعبرون النيل ويسألون: كم أسعار اليوم؟ فيجيبهم زميل من المرسى المهجور يفهم معنى السؤال، ويعلم أنهم يسألون بهذه الكناية وما شابهها عن عدد المصابين من أول النهار: جنيه مصري؛ أي مائة ...

بتو ... أي ثمانين ...

بندقي ... أي خمسين ...

وهكذا حتى هبط السعر إلى الريال «الشنكو»، والريال المجيدي، «وأم خمسة»، أي القطعة ذات الخمسة قروش!

منظر آخر لا نظن أن الذاكرة تحابيه، ولا نظن محاباتها إياه — إن صحت الشبهة ضرباً من الاستبداد.

### منظر فتاة

وأجمل المناظر التي تحتفظ بها الذاكرة من ذخائر العاشرة — وما دونها — منظر فتاة أوروبية هيفاء لفت نظري أنها تسير في وسط المدينة — على غير

عادات السائحين والسائحات — وتدير على خصرها حزامًا «أو مشدًا» لا يزيد قطره على بضعة قراريط ... وتخطر في الطريق الوعر كأنها تلمس أغصان الشجر بقدمي قطاة.

ولم أكن أفهم يومئذ أن نحافة الخصر جمال محبوب، ولكنني فهمت أنه أعجوبة نادرة، وتبعت الفتاة الهيفاء حول منعطفات الطريق، ولا أعلم لماذا أتبعها، ولا يدور في خلدي خاطر غير الاستزادة من هذا المنظر العجيب، الرشيق.

لو أنني مصور لاستطعت اليوم أن أصور هذه الفتاة من الذاكرة، فلا أخطئ منها لمحة يثبتها المصور على قرطاسه، ولست أذكر اليوم نقوش كسوتها، ولكنني إذا أثبتتها بجملتها لم تخالف ما يثبتته المصور من نقوش الكساء على البعد، ويقنع به الناظرون.

ولمن أراد من علماء «السيكولوجيا والبداجوجيا» أن ينعت هذه المحابة بما يحلو له من أوصاف الاستبداد. ولكنني — بعد هذه السنين الطويلة — أستغفر لهم ذنوبهم إلى الذاكرة، وأقول إنها ملكة مظلومة على الغاية من العدل والديمقراطية، إن كانت محاباتها كلها على مثال هذه المحابة ...

### الإنشاء في المدرسة

بدأت الكتابة بموضوعات الإنشاء في المدرسة، وقد يكون في الإشارة إليها شيء يهم الناشئ المتطلع إلى التأليف؛ لأنه يعلم منه مبلغ فعل التشجيع حين يتلقاه الناشئون من ذوي مكانة ملحوظة في العلم والحياة العامة.

كانت المفاضلة بين شيتين هي المحور الغائب على موضوعات الإنشاء في أيامي بمدرسة أسوان، أيهما أفضل المال أو العلم؟ الذهب أو الحديد؟ الصيف أو الشتاء؟ الرأي أو الشجاعة؟ السيف أو القلم؟ الحرب أو السلم؟ إلى أشباه هذه المفاضلات.

وكان من عادتي أن أختار أضعف الجانبين حتى اخترت الجهل مرة في مفاضلة بينه وبين العلم! ... وكان لنا أستاذ فاضل «هو الشيخ فخر الدين محمد» يحمد هذا الاختيار على أن يكون من قبيل مرانة القلم، ويعرض كراستي على كبار الزوار بين ما كان يعرضه من كراسات التلاميذ، فلما زارنا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ذات شتاء أراه الكراسة فتصفحها باسمًا، وناقشني في بعض مفاضلاتها، ثم التفت إلى الأستاذ، وقال ما أذكره بحروفه: «ما أجدر هذا أن يكون كاتبًا بعد ...»

ونطق «بعد» بضم الدال غير واقف على السكون، ولم أزل أذكر ذلك حتى عللت به وقوف زعيمنا «سعد زغلول» على أواخر الكلمات محركة غير ساكنة، وقلت: إنها «مدرسة واحدة» تحرص على تحريك أواخر الكلمات؛ أنفةً من الهرب على حد قول القائلين: «سكّن تسلم ...» فهم لا يهربون من الحقيقة، ولا يحرصون على السلامة.

وأبالغ إذا قلت: إن كلمة الأستاذ الإمام هي دون غيرها التي حفزني إلى الكتابة، ولكنها كانت ولا ريب حافراً قوياً بين الحوافز الكبرى، وجاءت بعد عزيمة سابقة فأعانتها، ودفعت عنها عوارض التردد والإحجام.

أما ظروفي المادية «عندما كنت صغيراً أتعطش إلى قراءة الأدب»، فلم تكن ظروف ثراء مهما نقتصد في حدود الثراء، ولكنها كذلك لم تكن ظروف ضنك وفاقه، ولا ظروف شعور بالحاجة إلى الضروريات.

كان أبي وأخي الأكبر موظفين يعيشان في بيت واحد، وكان مرتبهما معاً بضعة عشر جنماً وهو مقدار لم يكن بالقليل في ذلك الحين، وكنت الطفل الوحيد بالمنزل إلى أن وُلدت أختي، فلم تكن في تربيتها كلفة؛ لأن تعليم البنت في أسوان لم يكن معروفاً قبل نموها إلى سن التلمذة ...

فنشأت أحسب أنني غير محتاج، وأني أجد من راحة المعيشة ما لا يجده الكثيرون من زملائي.

مكتبة بخمسين قرشاً

على أن الرزق الذي يتيسر للضروريات لا يتيسر لشراء الكتب عن سعة، وأحمد الله أن شراء الكتب عن سعة لم يكن لازماً في أيام صباي للاطلاع على أوائل المعرفة الأدبية، بل على المعرفة الأدبية في مراحلها المتقدمة.

فلا أحسب أن المكتبة التي اشتريتها بنقودي في صباي زاد ثمنها على خمسين قرشاً أو نحو الخمسين.

كان الكتاب من الطبعة الأزهرية يباع بقرشين أو ثلاثة قروش، ويشتمل أحياناً على ثلاثة كتب بين المتن والحاشية والتذييل ...

وكانت هذه الكتب تُباع في دكان إلى جانب المدرسة مع أصناف العطارة والحبوب ولوازم أهل الريف، ومنها ما كان يرتفع إلى خمسة قروش أو إلى عشرة قروش كالمقامات والدواوين.

ولم يكن «مصرفي» يزيد على خمسة مليمات في اليوم إلا ليدرك خمسة قروش في الأسبوع، أتسلمها كل يوم خميس، فلا أشتري بها مأكولاً أو فاكهة، ولا أذهب بها إلى ملعب المهلوان إن كان بالمدينة ملعب منها، وهي لا تقيم فيها بل تزورها غباً كل بضعة أشهر ...

فإذا كان معي ثمن الكتاب اشتريته لساعته، وإلا أعطيت العطار قرشين بعد قرشين حتى يتم الثمن المطلوب.

وبهذه الطريقة قرأت العقد الفريد، وثمرات الأوراق، والمستطرف، والكشكول، والمخلاة، ومقامات الحريري، وبعض الدواوين.

ولم تكلفني المكتبة التي اشتريتها — كما قلت — إلا أقل من جنيه واحد، وقد يزيد ثمنها على نصف جنيه بقليل ...

**بعض من كل**

لكن هذه الكتب هي مقتنياتي التي اشتريتها بنقودي في أسوان، ولم تكن هي كل ما قرأته في فترة التلمذة وما بعدها، بل كانت لي وسائل إلى كتب أخرى من غير طريق الشراء.

فقد كان أبي يقرأ كتب الفرائض والعبادات، وبعض كتب التاريخ، ولا سيما تاريخ السيرة النبوية، وتراجم الأولياء الصالحين. ومع هذه الكتب كنت أجد

عنده مجموعة كبيرة من أعداد صحيفة «الأستاذ»، وصحيفة «الطائف» لعبد الله نديم، وصحيفة «العروة الوثقى» لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ... وكان أخوالي يقرأون كتب التصوف والأدب الديني، ولا سيما كتب الغزالي، ومحبي الدين بن عربي، وطائفة من المتصوفة المتأخرين.

ولم تكن مكتبة المدرسة مفتوحة يومئذ للتلاميذ، ولا كان فيها من كتب الأساتذة ما يملأ رفين أو ثلاثة رفوف من دولاب، وكانت مجلة المقتطف إحدى المجلات التي تصل إليها من وزارة المعارف العمومية، فأذن لي الناظر في التردد عليها والاستعارة منها، والاعتماد عليها في تحضير المناظرات والمطارحات ...

وساعدني — من المصادفات التي لا تتيسر في كل حين — أن أسوان كانت يومئذ مرتادًا لمئات السائحين كل شتاء، وكان فيها فندقان كبيران، وفنادق أخرى دونهما في العِظَم والوجاهة تزدهم بالسائحين من أقطار العالم، فتعودنا أن نرى فيها كل شتاء مكتبات عامرة بالمراجع التاريخية، والقصص، والصحف، والمجلات الأدبية والفكاهية، ولم يكن من العسير علينا أن نحصل على بعضها بالثمن المستطاع، بل كان يتفق أحيانًا أن يزور مدرستنا أناس من عليية السائحين، ومعهم أبناءهم وبناتهم يطلبون عنواناتنا لتبادل الرسائل، ويبعثون إلينا بالهدايا من الكتب التي تعجبهم، ويقدرّون أنها تعجبنا، ولا أنسى أحد السائحين — وكان إنجليزياً مسلماً يسمى «ماجور ديكسون» — يوم جاءني منه بعد عودته إلى بلاده كتابان: أحدهما: ترجمة القرآن، والآخر: كتاب كارليل عن الثورة الفرنسية ... وهو الوحيد الذي اختار لي هذا الاختيار، ولا أزال أذكره

كلما توسعت في القراءة، فعلمت أنها تقوم في الأغلب الأعم على هذين القطبين من المطالعة: أصول العقائد، وفلسفة الثورات الاجتماعية من وجهة البطولة والأبطال.

هذه الندره من الكتب التي تيسرت لي أيام التلمذة وما بعدها علمتني دستوراً للمطالعة أدين به إلى الآن، وخلصته: أن كتاباً تقرأه ثلاث مرات أنفع من ثلاثة كتب تقرأ كلَّها مرة واحدة.

## (٦) ذكريات العيد

من العيد تعلمنا أن الطفل الصغير «شيء مهم» في البيت، أو أننا نحن بذواتنا «أشياء مهمة» ... لأننا أطفال ...

تبتدئ تهنئات العيد في مدن الريف بعد مغرب الشمس من يوم الوقفة، وتكون مقصورة في ذلك اليوم على الجارات القريبات من المنزل؛ لأن الغالب عليهن أن يذهبن صباح العيد مبكرات إلى «القرافة» لتفريق الصدقة على أرواح الأموات. وتدخل الجارات واحدة بعد الأخرى يرددن صيغة لا تتغير، تنتهي بهذا الدعاء: ... يعود عليك كل سنة بخير ... أنت وصغيريك وصاحب بيتك والحاضرين والغائبين في حفظ الله.

وقبيل المغرب، تكون عملية التغيير وتوزيع الملابس الجديدة على صغار البيت قد ابتدأت على يد الوالدة في نشاط وسرعة، ولكن — وهذا هو العجب — في غضب وشدة، وأحياناً في سخط وصياح: تعالي يا ولد ... اذهب يا مسخوط ... الحق ادخل الحمام ... مع تسبيحة أو اثنتين من قبيل: إن شاء الله ما لبست ... إن شاء الله ما استحमित!

ولقد تعودنا هذا الموشح كل عيد على قدر ما تعيه الذاكرة في سن الطفولة، وأكثر ما يكون ذلك حين تزدهم الجارات، وحين تكون أقربهن إلى الدار على

استعداد للشفاعة، وترديد الجواب المألوف في هذه الأحوال: «بعد الشر ... بعيد عن السامعين!»

وقد خطر لي يوماً أن هذا كثير على عملية التغيير، فرفضت الكسوة الجديدة، وذهبت صباح العيد إلى منزل جدتي بثوبي القديم.

وكان من تقاليد العيد أن ترسل رءوس الذبائح إلى الجدات: أم الأب، أو أم الأم، من كانت مهمما على قيد الحياة، وأم الأب مفضلة إذا كانت الجدتان تعيشان.

فلما دخلت منزل جدتي «أم أمي» وهي ضريرة: سمعت الأطفال يعجبون لأنني لم ألبس جديداً في العيد، فقربتني الجدة العطوف إليها، وسألت في شيء من

اللهفة: ما الخبر يا ولدي؟ لماذا لم تلبس ثوبك الجديد؟ ألم يحضروا لكم ثياباً جديدة؟!

– بلى ... إنهم قد أحضروها، ولكنني أبيت أن آخذها من يد بنتك ... لأنها تشتمنا وتزعق فينا ...

فابتسمت وهي تعرف بنتها حق المعرفة، وصاحت: بنتي؟! وكيف كانت القصة؟ فأعدت عليها القصة مردداً كلمات السخط التي أغضبتني، فسألت: أكان أحد

من الجيران عندكم في تلك الساعة؟

فحسبت أنها تطلب شهوداً على الواقعة، وقلت لها: كثيرات ... فلانة ... وفلانة و... فلم تمهلي أن أتم أسماء جارائنا اللاتي تعرفهن، وجعلت تربت على كتفي،

وتقول: «وأنت العاقل يا عباس تقول هذا؟! ... إن أمك لا تبغضك ولا تدعو عليك، ولكنها تصرف النظرة ...»

وفهمت معنى «تصرف النظرة» بعد شرح قليل، وخلصتها: أن رؤية الأم في مساء العيد بين أطفالها الفرحين المتهللين بالعيد تفتح أعين الحاسدات اللاتي حُرمن الأطفال، ولا يحتفلن «بتغييرات» العيد هذا الاحتفال، فإذا شهدن أمارات السخط بدلاً من الفرح والرضا بطل الحسد، وسلم الصغار وأمهم من عيون الحاسدات.

...

لأول مرة أشعر بأن الطفل في البيت «قنية نفيسة» يُحسد عليها الأمهات والآباء، وما كنت أفهم قبل ذلك إلا أنه من «غُلب الحياة أو هموم المعيشة»، وأنه هو — في شعوره بنفسه — شيء صغير يتطلع إلى اليوم الذي يساوي فيه هؤلاء الكبار، ويُحسب في زمرة الناس المعدودين! ...

وكان ذلك «درسًا» في تفسير القرآن، وتفسير الكتب المدرسية ...

فقد كنت أذهب مع أبي إلى المسجد القريب يوم الجمعة، فأسمع الفقيه يقرأ في سورة الكهف: الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فلا أدري كيف تكون زينة، ونحن نتطلع إلى أيسر سلعة من سلع الزينة الغالية؟

وكان من قطع المحفوظات التي كتبناها في المدرسة قصة نسميها «قصة المرأة البائخة»، هذه خلاصتها:

امرأة زارت إحدى صديقاتها، فراحت صاحبة الدار تفاخرها بجواهرها وتُفَرِّجها عليها، ثم ذهبت صاحبة الدار ترد الزيارة لصاحبتها، وتسألها: أين جواهرك لأتفرج عليها؟ واستمهلتها هذه ساعة إلى أن حضر ولداها من المدرسة،

فاستدعتهما إلى حجرة الاستقبال، وقالت للضييفة المدلهة بجواهرها: ها هما جوهرتاي ... وليس لهما ثمن تحتويه خزائن الأموال.

وكان جوابًا مخيبًا للأمال، ومسقطًا للقصة كلها في موازين النقد عندنا نحن الأطفال، أو نحن الجواهر التي لا تقدر بالمال!

ونخرج من ذكريات الطفولة إلى تجارب الحياة، فنعلم الآن — فلسفيًا واجتماعيًا ونفسيًا — أن الطفولة هي قوام العيد كله، فلولا الأطفال لما استطاع المجتمع أن يوقّت الفرح مقدمًا بميقات معلوم في يوم من الأيام، ولكن هاتِ للمجتمع أطفالاً يفرحون بالكساء الجديد واللعب المباح، وأنت الكفيل بفرح المجتمع كله على الرغم منه ... إذا صح الفرح بالإرغام وهو صحيح في شريعة «الديكتاتوريين» الصغار، فليس في استطاعة كبير أن يعصي سلطان الفرح وهو ينظر إلى صغار فرحين.

ومن العيد تعلمنا مفارقات النفوس في الأسرة الواحدة، علمًا يسبق كل ما عرفناه بعد ذلك من قوانين الوراثة في ذمة السيكلوجيين والبيولوجيين.

تعودنا أن نزن الأقدار في بيتنا «العائلية» بمقدار العيادية التي كانت تتفاوت من خمسة قروش على الأكثر إلى خمسة مليمات على الأقل.

وكان لنا من الأقارب، والمعارف غير الأقارب، ذخيرة وافية للرقابة النفسية من الإخوة الأشقاء.

أخوان شقيقان يتشابهان أقرب الشبه في الملامح والأزياء، هذا يمنح القروش الخمسة، وذلك لا يزيد على الخمسة مليمات، وهذا بشوش مازح، وذلك عبوس صارم، وهذا ثرثار لا يفرغ من الحديث، وذلك صموت نزر الكلام ...  
ولكننا — مع الإيمان بصحة الميزان الذي يفرق بين خمسة قروش وخمسة مليمات — قد تعلمنا مبكرين أن النقود ليست هي الميزان الوحيد لأقدار المعيّدين ...

إذ كان من أولئك المعيّدين صديق للأسرة لا يبذل مليمًا، ولا يسكت مع هذا عن مسألة العيدية بحذافيرها مداراة لإفلاسه ... بل يلقانا مبادرًا بطلب العيدية منا، ونفهم منه — بداهة — أنه يمزح، ولا ينتظر منا أن نعطيه، ولا ننتظر منه أن يعطينا.

إلا أنها فاتحة للمعايدة لا بد منها، ثم تتبعها أدوار متلاحقة من الفوازير والألغاز الحسابية أو اللغوية، وأدوار أخرى من محاكاة القطط والكلاب والخرفان والحمير.

ولم نكن نحن نطلب «عيدية» من أحد يبذلها أو لا يبذلها، ولكن أبانا — رحمه الله — كان حريصًا على أن يحذرننا من طلب العيدية خاصة من هذا الصديق؛ لأنه «على قد حاله» كما كان يقول، فكان هذا الصديق «الذي على قد حاله» على رأس القائمة بين المنتظرين من المعيّدين، وكنا نميزه بالحصة الوافية من ضيافة الأعياد: قرفة، وكعك، وبقايا المكسرات من رمضان ...

وقد كان في ذهني درس من دروس العيد يوم قرأت مذهب «أبي العلاء» في ظلم الضعفاء والأقوياء، فرحبت به، ولم أستغربه وهو غريب لا تقدر على هضمه معدة الطفولة، كقوله:

ظُلمَ الحمامة في الدنيا وإن حُسبت في الصالحاتِ كظُلم الصقرِ والبازي  
ففي إحدى زيارات العيد، علمت أن «سعادة المأمور» بجلالة قدره مظلوم،  
يظلمه بهلوان أو شبويه بالهلوان، من أصحاب الأراجيح.  
وكانت لعبة الأراجيح أحب لأعيب العيد إلى الأطفال، وقد أُقيمت على ساحة  
قريبة من المنزل قبل الوقفة بأيام، ثم فُوجئنا بحلها، ورفعها من مكانها، وقيل  
إنها حُلَّت ورفعت بأمر سعادة البك المأمور.

وشاعت التعليقات من قبيل قولهم:

رجل مستبد يظن أن الإدارة هي التحكم في خلق الله ...

رجل فظ ينكد على الأطفال الصغار في موسم اللعب والفرح ...

رجل غليظ القلب يقطع أرزاق المساكين الذين على باب الله ...

ويأتي هذا الرجل الموصوف بكل هذه الصفات للتعبيد على الوالد الذي كانت  
تربطه به رابطة العمل في ديوان واحد؛ إذ كانت دار المحفوظات يومئذ تشغل  
المكاتب التي تجاور مكتب المأمور.

فلم نخفَّ إلى استقبال الرجل «المستبد الفظ الغليظ» إلا حين علمنا بعد هنيئة  
أنه في الواقع هو الرجل المظلوم.

وكأنه سيق إلى التحدث عن قصة الأراجيح، فقال: إنها حُلَّت ورفعت؛ لأنها قد ظهر بعد فحصها أنها مفككة اللوالب و«الصماويل»، وأن حادثاً حدث فيها، وتهشم من جرائه ثلاثة أو أربعة أطفال من أبناء البلدة التي كانت فيها قبل وصولها إلى أسوان، ووجدت الورقة التي يحملها صاحبها وعليها تعهد منه بأن يصلح خللها قبل إدارتها، ولكنه لم يصلح هذا الخلل، ولم يكن من المأمون على حياة الأطفال أن تُدار وهي بتلك الحال ...

كم من حاكم مظلوم، وكم من محكوم ظالم!  
وكم من حجة للقائلين:

لو أنصَفَ الناسُ استراحَ القاضي      وباتَ كلُّ عن أخيه راضي

وإن لم يخلُ من الحجة قول القائلين: لو أنصف القاضي استراح الناس ... نعم  
... وكم للعيد من دروس تمر بالصغار والكبار، ولا ندري متى تصلح للعضة  
والاعتبار!

الوحدة الثالثة

أحلام نابليون

علي أحمد باكثير

علي أحمد باكثير  
(نحو ١٩١٠. ١٩٦٩)

علي أحمد باكثير أديب مسرحي وروائي وشاعر، من الرواد في الأدب العربي الحديث ومن رجال النهضة، ودعاة الإصلاح الاجتماعي، ومن المجددين في أساليب التعليم، والمتأثرين بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا ومحمد عبد الوهاب.

ولد باكثير في سورابايا بجزيرة جاوة بإندونيسية لأبوين عربيين من حضرموت. ويرجع نسبه إلى كِنْدَةَ القبيلة اليمنية المعروفة. وقد ذكر باكثير هذا النسب في غير موضع من شعره:

ولي بعدُ بالضَّلِيلِ جَدِّي أُسْوَةٌ      ومن يَتَقَيَّلُ جَدَّهُ لا يُضَلِّلُ

أرسله والده إلى سيوون (سيئون) بلده بحضرموت، على عادة الحضارمة، ليستقيم لسانه على العربية، وليتزود زاده الثقافي العربي، وكان في نحو العاشرة من عمره حينذاك.

وحبب إليه الشعر، فأقبل يلتهم ما يقع في يده من دواوينه، وكان مثله الأعلى من القدماء المتنبي، ومن المحدثين شوقي. وسرعان ما بلغت بالفتي مواهبه وأعراقه، والشعر في أسرته ملمح ظاهر، ففاض لسانه بالشعر، فقال الشعر وهو في الثالثة عشرة من عمره، وانقادت له القوافي والأوزان. ومع استحكام أصل الشعر في قلبه وفي طبيعته، استبد به هوى في آخر، هو المسرح، ستكون له

الغلبة فيما بعد على فن باكثير، وسيتأثر بهواجسه التي يريد أن يفرغها في منشأته وأثاره.

وكانت لقلب الشاعر تجربة وجد ستكون بوجهها المشرق والقاتم ينبوع شعر ومصدر إلهام، وستلون بألوانها أيامه إلى آخر حياته. فقد كانت له قصة حب أسر كقصص القدماء، ثم أتيح له أن يقترن بمن يحب، إلا أن الموت غالها إثر مرض عضال، وغال ابنة له منها.

وكان واقع الناس الممض حوله رافداً فياضاً من روافد شعره وفكره، وأصلاً عظيماً من أصول حياته، لا جرم كان «ممتلئاً بالثورة على ما كان عليه بلده حضرموت من التخلف عن ركب الحضارة» فانغمس في العمل الاجتماعي، وتولى وهو دون العشرين إدارة (مدرسة النهضة العلمية) بسيوون ووجد نظام تدريسها. ثم أصدر سنة ١٣٤٩هـ مجلة «التهديب» مع نخبة من الأدباء الشبان، وبقيت تصدر لمدة عام، وكانت منبراً للإصلاح الاجتماعي وللأدب في آن.

وفي سنه المبكرة تلك راسل طائفة من كبار كتاب عصره وأدبائه أمثال شكيب أرسلان ورشيد رضا ومحب الدين الخطيب. وقد بات واضحاً أن عالم الأدب هو عالمه الأعمق والأرحب.

وكانت مصر، بلد أمير الشعر شوقي، قد لاحت له أفقاً يرتحل إليه، يقضي به زمام الشعر وأمير الشعر شوقي، وكان شديد الإعجاب به. إلا أن القدر فاته به، فقد توفي شوقي في سنة ١٩٣٢هـ فشيعة من بعيد بـ «دمعة حضرموت على أمير الشعراء»:

## سائلوا الدنيا وصيحووا في البشر

### ما دهى الشمس وما غال القمر

وكان حينذاك في عدن في طريقه إلى مصر، فكسر ذلك عزمه، وبقي مهوماً سنتين يضرب في أطراف اليمن، ويلم بالحبشة والصومال، متلبثاً من مدينتهما في بربة وأديس أبابا وجيبوتي، ويلقي عصا ترحاله في الحجاز أمداً وفي مكة المكرمة عند أخواله من آل بابسيط، وفي المدينة المنورة والطائف عند أصدقائه.

وكانت سمعته شاعراً قد سبقته إلى الحجاز، فرحبت بمقدمه بعض صحفها هناك بوصفه شاعر حزموت.

واستكمل باكثر تحصيله العلمي والأدبي في رحلته تلك، وقال الشعر، شأنه أبدأ، شجناً شخصياً وهاجساً عاماً، وضمن همومه حتى شعر المناسبات والإخوانيات. قال مخاطباً صديقه عمر بلخير في أعقاب حفل مدرسي:

أه على بلاد

مهيضة الجناح

أودت بها نفوس

عطشى من الصلاح

وليس هذا شعري

لكنه جراحي

نكأتها فسالت

كمبضع الجراح

إلا أنه في الطائف في الحجاز، وقف لأول مرة، على مسرح شوقي الشعري، وكان ذلك كشفاً مبالغتاً له، وكان لاطلاعه على مسرح شوقي هذا «أثر كبير في نفسه، هزه من الأعماق، وأراه لأول مرة في حياته كيف يمكن للشعر أن يكون ذا مجال واسع في الحياة، حين يخرج عن نطاق ذاتية قائله إلى عالم فسيح يتسع لكل قصة في التاريخ أو حدث من الأحداث». وقد شعر برغبة جامحة في محاكاة هذا اللون الجديد الذي وجدته عند شوقي.

وهكذا ولدت «همام أو في عاصمة الأحقاف» في الصيف في الطائف، معبراً بأكثير بها شعراً منظوماً عن هاجسيه الكبيرين: حبه العذري لزوجته وأحوال بلاده، لتكون الخطوة الأولى في انتقاله الكامل من أفق من آفاق الفن إلى أفق آخر أرحب وأشمل، وسيكون ذلك، بأسبابه ودواعيه، في مصر التي ارتحل إليها أواخر سنة ١٩٣٣ أو أوائل سنة ١٩٣٤ وحياتها بقصيدة عالية العبارة جياشة العاطفة.

يا مصر هاج البلبل التغريد

والأيك أنت وماؤك المورد

وافاك من أقصى الجزيرة شاعر

تطوى البحار له وتطوى البيد

من حيث عاد في القديم تجبرت

وتلا أناجيل الهداية هود

وهاهو ذا على عتبة عالمه الجديد سيلتفت إلى الأزهر شيئاً، يرجو أن يتم فيه تحصيله العلمي الأول، إلا أن الشاعر، حزم أمره فالتحق بقسم اللغة الإنكليزية في جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة) «لما بلغه أنه غني بالشعر الرفيع» وكان لا يزال يعد نفسه ليكون شاعراً كبيراً، فرجا «أن تفتح له هذه الدراسة آفاقاً جديدة في الشعر». إلا أن ما انتهى إليه كان أكبر مما كان يقدره، وأكثر من مجرد وقوف على «نماذج من الشعر الرفيع»، وذلك أن هذه الدراسة قد غيرت من نظرتيه لمفهوم الأدب كله وحملته «على إعادة النظر في المقاييس الأدبية التي كانت عنده بتأثير ثقافته العربية»، واكتشف فيما اكتشف «انجذاب قلبه إلى المسرحية أكثر من انجذابه إلى فنون الأدب الأخرى». «وفتنه شكسبير واستهوته أعماله، لكونه يجمع بين الفن القديم الذي يحبه وبين هذا الفن الجديد الذي بدأ يكتشف في نفسه الاستجابة إليه، وهو فن المسرحية»، فترجم فصلاً من (الليلة الثانية عشرة) لشكسبير، ترجمها شعراً موزوناً مقفى ونشرها في مجلة «الرسالة» التي كان يصدرها الزيات، إلا أنه بإزاء شكل جديد من أشكال الشعر ليس للعربية مثله، وقد كان هذا تحدياً استجاب له باكثر استجابة مضاعفة، اصطنع هذا الشكل الجديد في العربية، وطوع به نصاً من جنسه بالإنكليزية، وقد كان هذا من مسرح شكسبير خاصة، ومن مسرحية «روميو وجولييت».

وقد أغرى باكثر نجاح تجربته، فاصطنع نصاً مسرحياً مؤلفاً هذه المرة، عبر فيه عن توجهه القومي، وقد كان هذا في مسرحيته «أخناتون ونفرتيتي» التي كتبها سنة ١٩٣٨ ونشرها سنة ١٩٤٠. وقد استوى باكثر منذ ذلك الحين على

طريقه في الأدب، متطوراً بهذا الفن، شكلاً ومضموناً، بالقدر الذي تعين عليه طاقاته الأدبية والثقافية وأوضاع عصره.

تخرج باكثر في الجامعة سنة ١٩٣٩ وفي معهد المعلمين سنة ١٩٤٠، وبقي يدرس أربع عشرة سنة. وكان ماضياً في كتابة أكثر من شكل أدبي في أثناء ذلك، ومشاركاً في الحياة الأدبية من وجهها الإنساني وكانت له صداقات كثيرة مع أدباء عصره وشعرائه، ومع رواد (ندوة كازينو أوبرا) التي كان قطبها نجيب محفوظ، ولباكثر فيه قصائد ينزله فيها في منزلته من الأدب، وألف معه ومع عادل كامل وعبد الحميد جودة السحار لجنة النشر للجامعيين، وكان من رواد الندوة، مع عادل كامل، ومحمد عفيفي وأمين يوسف غراب، وكان باكثر حينذاك أكثرهم إنتاجاً، وله في المسرح أعمال ناجحة.

وكان في أثناء ذلك قد تزوج سيدة مصرية سنة ١٩٤٢ بقي معها إلى أن توفي، ثم حصل على الجنسية المصرية سنة ١٩٥٣. وكانت هذه الحقبة حقبة أوج في حياته الأدبية، فقد كان المسرح القومي ابتداء من سنة ١٩٤٧ يفتح بأعمال باكثر، من مثل: «سر الحاكم بأمر الله» و«مسمار جحا» و«سر شهرزاد» و«أبو دلامة مضحك الخليفة»، وبقي هذا حتى سنة ١٩٥٤.

وفي سنة ١٩٥٤ سافر في بعثة دراسة حرة إلى فرنسا، وزار سنة ١٩٥٦ رومانية والاتحاد السوفييتي (سابقاً) عضواً في وفد أدباء مصر بدعوة من اتحاد الكتاب في البلدين المذكورين. وفي سنة ١٩٥٨ سافر إلى طشقند ممثلاً الجمهورية العربية المتحدة في مؤتمر كتاب آسيا وإفريقية الأول.

وفي نيسان ١٩٥٩ كتب مسرحية «الزعيم الأوحده» بطلب من المؤتمر القومي للثقافة والفنون. وفيها مثل مصر في مهرجان الشعر بدمشق. وفي سنة ١٩٦١ أحرز وسام العلوم والفنون، وفي سنة ١٩٦٢ أحرز جائزة الدولة التشجيعية عن مسرحيته «هاروت وماروت» وفي سنة ١٩٦٣ أحرز وسام عيد العلم.

منحته الدولة منحة تفرغ لمدة سنتين ١٩٦٢.١٩٦٤ من أجل إنجاز ملحمته الكبرى «ملحمة عمر». كان عضواً في مجلس الشعر والقصة، والمجلس الأعلى للفنون والآداب، ونادي القصة وكان عباس محمود العقاد سنداً مكيناً له في المجلس الأعلى، وسيرثيه باكثر سنة وفاته ١٩٦٤ بقصيدته التي مطلعها:

كيف نرثيك يا أبا الشعراء

أنت فوق الرثاء فوق العزاء

نقل باكثر في سنواته الأخيرة إلى مصلحة الفنون مديراً للرقابة على المصنفات الفنية فجمد نفسه فنياً أولاً، بتوجيه الأديب الكبير يحيى حقي الذي كان رأس المصلحة، من أجل ألا يتهم بمحاباة نفسه، ثم جمد وظيفياً فيما بعد.

وفي نيسان سنة ١٩٦٨ زار وطنه الأصلي حضر موت بعد استقلال اليمن الجنوبي يائساً من حياته الأدبية في القاهرة، ثم رجع من حضر موت أكثر يائساً. وفي جو اليأس هذا كان قد كتب مسرحيته «التوراة الضائعة»، وهي آخر أعماله المسرحية، كتبها بعد نكسة ١٩٦٧، ونشرت بعد وفاته بأسابيع.

وكرّرت أسفاره سنة ١٩٦٩ وحضر في نيسان منها مؤتمر الأدباء العرب السابع في بغداد، وكان قد شارك قبله في مهرجان الشعر الخامس في الاسكندرية وزار تركية للتعرف على مدينة القسطنطينية وأسوارها، ممنى النفس بكتابة ملحمة عن حصار محمد الفاتح لها.

وزار لندن، وتلقى عرضاً من صديقه المستشرق سارجنت للتدريس بقسم الدراسات الشرقية بجامعة كمبردج، وعرضاً من القسم الأدبي (العربي) بهيئة الإذاعة البريطانية. ورجع إلى القاهرة ليعد العدة للرحيل، إلا أنه ارتحل رحلة أخرى، فقد توفي في العاشر من تشرين الثاني إثر نوبة قلبية حادة.

### ثلاثية الحملة الفرنسية

تعد الثلاثية الفرنسية مسرحية واحدة طويلة تشمل: الدوردة والثعبان، أحلام نابليون، مأساة زينب، كتبها باكثير في الفترة بين عامي ١٩٦٧ - ١٩٦٨ م، بعد أن حصل على منحة فرع من فترة الثقافة لكتابتها، وتناولت المسرحيات السنوات التي قضتها الحملة الفرنسية في مصر في الفترة بين ١٧٩٨ - ١٨٠١ م، من خلال شخصيات رسمية معروفة مثل نابليون بونابرت، وكليبر، وزينب البكري، وإبراهيم بك ومراد بك وشيوخ الأزهر وشخصيات شعبية تاريخية تمثل الشعب مثل سليمان الجوسقي وتقوم فكرتها الأساسية على السعي لإنشاء جيش وطني.

### مسرحية أحلام نابليون

أحلام نابليون مسرحية تاريخية، الحلقة الثانية في ثلاثية الحملة الفرنسية على مصر، كتبها باكثير عام ١٩٦٧م ونشرت عام ١٩٩٠

وهي مسرحية قصيرة جميلة في ١٠٩ صفحات تتحدث عن أيام قصر نابليون في مصر تحدث عن مغامراته النسائية تحدث عن لعبه بالدين وأنه مسلم تحدث عن خيانتة لرفاقه وهروبه من مصر تحدث قليلا عن كليبر.

أفاض في ذكر زينب بنت خليل البكري التي أظهر لها نابليون عشقه وأنه يريد أن يجعلها سلطانة العرب ثم تزوجها بعد أن أقنعها ووالده بإسلامه وتزوجها سرا على وعد أن يعلن ذلك بعد عودته من حملته على الشام. لكنه تخلى عنها وغدر بها ثم طلقها سرا..

### إسهامات باكثير في الأدب العربي

يعد علي أحمد باكثير واحدا من أوائل الذين فتحوا الطريق أمام الشعراء الجدد لاستخدام الشعر المرسل عن طريق مسرحية " روميو وجوليت "، عندما تحدي باكثير أستاذه الإنجليزي الذي كان يدرس له مادة الأدب الإنجليزي بكلية الآداب بجامعة الملك فؤاد الأول فكان هذا الأستاذ يرى أن اللغة الإنجليزية اقتصت بالبراعة في الشعر المرسل وأن الفرنسيين حاولوا محاكاته في لغتهم فكان نجاحهم محدودا، وأن اللغة العربية لا يمكن أن ينجح فيها هذا اللون من الشعر. وفتح باكثير الطريق أمام الشعراء الجدد في استخدام شعر التفعيلة أو الشعر الحر عن طريق مسرحيته " أختاتون ونفرتيتي " التي

كتبها عام ١٩٣٨ م. وكان لباكتير فضل الريادة في ابتداعه واكتشافه، وفي إرساء بعض ملامح عروضه، ثم جاءت الشاعرة الكبيرة نازك الملائكة، فأفاضت فيه، وقعدت عروضه. وفي الحقيقة ربما كان باكتير هو الوحيد المعترف له إجماعاً بريادة التجديد الشعري، من رواد التجديد أنفسهم، وفي طليعتهم بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وغيرهما.

وهو واحد من أهم الكتاب العرب في القرن العشرين، وهو من أوائل من تركوا الشكل التقليدي في الشعر، واستخدموا الشكل الحر مبكراً، وهو من رواد المسرح الشعري، فهو الخطوة الجادة بعد أحمد شوقي في كتابته المسرحية الشعرية، ويعد مؤثراً مباشراً في مسرح صلاح عبد الصبور.

والملاحظ أن من يطالع السيرة الأدبية له يعجب من ضخامة إنتاجه المسرحي وتنوعه، فهو كتب الكثير من المسرح التاريخي، ولعل رائعته "ملحمة عمر" التي تعد أول ملحمة مسرحية في الأدب العربي وثاني عمل درامي من نوعه في تاريخ المسرح العالمي بعد ملحمة "الحكام" للكاتب الإنجليزي توماس هردى التي نظمها شعراً في تسعة عشر فصلاً عن حروب نابليون، تأتي على رأس أعماله المسرحية التاريخية. وقد بز فيها باكتير سابقه ومعاصريه، كما بز غيره في مسرحياته التاريخية "دار ابن لقمان" و"الدودة الثعبان". وهذه المسرحيات التاريخية وأخواتها التاريخية

الأخرى كلها مسرحيات هادفة، كتبها باكثر ليث فيها أفكاره، ويسقط أحداثها على الواقع المعيش، ليأخذ الناس منها العبرة.

أما مسرحه الاجتماعي فقد طرق فيه كثيرا من الأفكار العصرية، ناقشها في فنية أبعدها عن الذهنية الباردة، وقدم كثيرا من الحلول لكثير من المشكلات التي كان يعاني منها المجتمع العربي عامة، والمصري منه بوجه خاص، من خلال الحوار الحار حيناً، والدافئ حيناً آخر، ومن هذه المسرحيات الاجتماعية "السلسلة والغفران" و"الدكتور حازم" و"مسمار جحا" و"الدنيا فوضى" و"جلفدان هانم" و"حبل الغسيل" و"الفلاح الفصيح"، وغيرها، وعالج فيها مشكلات الظلم والجهل والتقليد الأعمى للأجنبي، والفقر والبؤس والتعاسة التي يعاني منها العرب والمسلمون، بأسلوب بعيد عن الوعظية والمباشرة والخطابية.

أما مسرحه السياسي، فقد جاء فيه بالعجب العجاب، وسبق في وعيه وتحليله كثيرا من السياسيين والزعامات الحزبية. عالج فيها الاستعمار الحديث لبلدان المسلمين، ودعا إلى الجهاد من أجل الاستقلال والتخلص من نير المستعمرين، وسخر من الإمبراطورية "بريطانيا التي كانت لا تغيب الشمس عن مستعمراتها"، وذلك في مسرحيته "إمبراطورية في المزداد" الصادرة في عام ١٩٥٢م، وفيها هجوم فني ساخر على الاستعمار

البريطاني المتحالف مع الصهيونية العالمية، ودعا فيها إلى تكتل العالم الثالث، وإلى اجتماع زعماء دوله في مؤتمر عام يعقد في دلهي.

وقد احتلت القضية الفلسطينية حيزا كبيرا في مسرح باكثير، تجلى ذلك في مسرحياته "مأساة أوديب" و"شيلوك الجديد" بجزءيه "المشكلة" و"الحل"، و"مسرح السياسة" المتضمن عدة مسرحيات، وعالج فيها القضية الفلسطينية من مختلف الجوانب، بفنية ساخرة معجبة، وهي مسرحيات "نقود تنتقم" و"السكرتير الأمين" و"راشيل والثلاثة الكبار" و"ليلة ١٥ مايو" و"معجزة إسرائيل" وغيرها.

أما روايات علي أحمد باكثير التاريخية فهي لا تعود إلى التاريخ ليعيد شرحه ووصفه، وإنما تعود للكشف عن تقاطعاته مع الحاضر، ولإحيائه عبر حبكة درامية تحقق المتعة والمعرفة بالماضي والحاضر معا.

والملاحظ أن باكثير لا يقف عند الحدث التاريخي وقفة المؤرخ، وإنما يقف وقفة الفيلسوف الذي ينظر إلى ما وراء الحدث التاريخي، متأملا أسبابه، محاولا تفسيره، مستخلصا العبرة من نتائجه، مستشرقا المستقبل من ورائه.

وإن التخيل الواسعة هي التي تمنح روايات باكثير مشروعيتها الإبداعية، وتضعها في مصاف الروايات الخالدة. فالرواية التاريخية عنده تقوم أساسا على تتبع السيرة الشخصية سواء كانت قائدا للدولة والجيش كما في روايتي

"وا إسلاماه" و"سيرة شجاع"، أم سيرة نائر متمرّد على السلطة كما في رواية "النائر الأحمر"، أم سيرة فنّان موسيقي وشاعر كما في رواية "ليلة النهر". ولباكثر خمس روايات تاريخية ورواية إجتماعية، وقد تناولت في هذه الدراسة كل منها وبعض خصائصها العامة، أما فنّه الروائي ومكونات خطابه واشتغاله على التاريخ والحدود الفاصلة بين التاريخ والخيال في أعماله فإنها تحتاج إلى دراسة خاصة لا يتسع هذا المجال لها.

تفرد علي أحمد باكثير بين أدباء عصره بريادته وسبقه في كثير من المجالات، والآنية بعض من رياداته وأوليّاته. فهو أول من ترجم مسرحية من اللغة الانجليزية إلى العربية بالشعر المرسل وأول من كتب مسرحية شعرية بالشعر المرسل في اللغة العربية في مسرحية "إخاتون ونفرتيتي"، ويعد أول من أخذ بنظام الجملة الشعرية في المسرحيات الأصيلّة غير المترجمة وهو بقيام الشعر على وحدات موسيقية تتجاوز البيت الواحد إلى أبيات عدة متماسكة في مبنائها ومعناها، وهو أول من كتب الأوبريت في اللغة العربية الفصحى في مسرحيته "الشيماء شادية الإسلام" وأول من كتب الأوبرا في اللغة العربية، في مسرحية "قصر الهودج" وهو أول من نشر مسرحية شعرية إجتماعية وكانت المسرحيات الشعرية قبله ذات مواضيع تاريخية في مسرحيته "همام أو في بلاد الأحقاف" ويبدو أنه أول من توسل بالملهاة لمعالجة قضايا سياسية في مسرحيته "مسمار جحا" وأول من عالج قضية فلسطين في المسرح العربي في مسرحية "شيلوك

الجديد" وهو أول من كتب الملحمة المسرحية في الأدب العربي ملحمة. ويعدده أنه أول من كتب المسرحية التسجيلية وقد ظهر المسرح التسجيلي في الغرب في أوائل الستينات أول من كتب الأمثولة المسرحية في الأدب العربي في مسرحية "السلسلة والغفران"، أول كاتب عربي يرمز رمزا إيجابيا للحركة الإسلامية في الرواية التاريخية العربية في روايته "سيرة شجاع"

وقد حقق باكثر وجودا متميزا في كل إبداع بعد وصوله إلى مصر. وبعيدا عن العروض المسرحية والسينمائية لأعماله، فإن القيمة الحقيقية لإنتاج باكثر تتمثل في مجموعة "الريادات" التي سبق بها، ففي الشعر سيبقى علي أحمد باكثر رائدا للشعر الحر وفي الرواية سيبقى هو صاحب الطرح الفني الذي يستشرف المستقبل من خلال الماضي، فهو رائد الرواية التاريخية الإسلامية بلا منازع، فهو الثاني بعد توفيق الحكيم من حيث غزارة الإنتاج، لكنه يبقى الأول من حيث تصدر القضايا التي ترتبط بهوموم الأمة وتشغل الناس. فباكثر بإجماع النقاد رائد الكوميديا السياسية الهادفة في المسرح العربي، وهو القلم الذي ارتبط مسرحه بالقضايا الوطنية والقومية والإسلامية، فقد جعلت منه أعماله الثائرة في الأربعينيات من القرن الماضي العدو الأول، دون كل أدباء جيله، للاستعمار والصهيونية قبل أن يخرج الاستعمار من الأوطان العربية وقبل أن تقيم الصهيونية دولتها في فلسطين.

وقد أتحف علي أحمد باكثير الشاعر المشهور والروائي العصري الفذ المسرح بروايات عربية مصرية حديثة مبتكرة ستخلد مع الدهر جيلا بعد جيل بعد أن ملأ الدنيا العربية بقصائده القومية الإنسانية الممتعة.

والحقيقة أن باكثير قد ظلم في الحياة وقد تناساه النقاد أو تعمدوا نسيانه رغم إنتاجه الغزيرة، ورغم محاولاته في دنيا المسرح والرواية وعالم الشعر، وقد أغلق النقاد صفحة الحديث عنه بعد وفاته، وأنه لم يأخذ حقه العلمي من العناية بإنتاجه. فهو قاص متميز وشاعر أصيل، وكاتب مسرحي من الطراز الأول. ورغم كل ذلك سيبقى أعماله من خلال عشرات المسرحية التي قدمتها له الفرق التمثيلية في مصر على مدى أكثر من عشرين عاما من حياته الأدبية.

### خصائص مسرحيات باكثير

تمتاز مسرحيات باكثير ببعض الخصائص التي ينفرد بها باكثير عن غيره من الأدباء المعاصرين له. وأكثر هذه الميزات والخصائص يصدق على معظم إنتاج باكثير سواء المسرحي أو الروائي. ومن هذه الخصائص:

### الكاتب الداعية

علي أحمد باكثير يري أن الكاتب المسرحي لا بد أن يكون له هدف خاص أو رسالة خاصة يتحمس لها ويسعي جاهدا لتأديتها. وأن هذا الشرط هو ثالث ثلاثة شروط لا يستغني عنها الكاتب المسرحي بالإضافة إلى الخيال الخصب والخبرة

الواسعة بالحياة الإنسانية . ونظرا لطبيعة المرحلة الحالية التي تعيشها الأمة العربية والإسلامية يري باكثرير أنه ينبغي على الأديب العربي "أن يهتم بالمعركة المصيرية التي تحوضها أمتة اليوم إهتماما يفضي إلى الوعي الصادق العميق الذي يدفعه إلي الإسهام بالعمل في نصرة قومه". وذلك بأن يكون رائدا لأمتة يبصرها بالأخطار التي تهددها قبل وقوعها لتتقيها أو تستعد لدفعها، حتي إذا وقع المحذور توجهت بكليتها لمقاومته ومدافعتة والخلص منه "

### إستخدام الفكاهة الجادة

علي أحمد باكثرير كان يعالج في مسرحه قضايا سياسية بأسلوب فكاهي ساخر، ويعد باثير "الوحيد الذي توسل بالملهاة الجادة إلى عرض القضايا السياسية ولم يسبقه أحد في هذا المجال " وقد أدي به شعوره بالسخط على الصهيونية وأعاونها من الدول الإستعمارية إلى لجوئه إلى الفكاهة والسخرية في تناول القضايا السياسية في مسرحياته ، وقد ظهر هذا الإتجاه لديه أول ما ظهر في المسرحيات السياسية القصيرة التي جمع بعضها في كتاب "مسرح السياسة".

### الإلتزام بالقيم والمبادئ الإسلامية

يتميز علي احمد باكثرير بأنه الكاتب الوحيد الذي إلتزم بخط معين طوال حياته الأدبية لا يحيد عنه ولا يفرط فيه ألا هو الإلتزام بالقيم والمبادئ الإسلامية .

---

<sup>1</sup> علي أحمد باكثرير، دور الأديب العربي في المعركة ضد الإستعمار، والصهيونية ، الآداب،

ولقد تحققت في باكتير الأصالة العربية، التي دعى إليها وعدها الأساس في كل ما ينبغي أن يكون عليه الأديب العربي وهي أن يتمسك بمقومات أمته العربية وبقيمها الروحية والأدبية والإنسانية ويعتز بتاريخها الطويل الحافل بالأمجاد. وينفتح مع ذلك على الثقافات العالمية. بمختلف ألوانها وشتى إتجاهاتها فلا يزيد إنفتاحه عليها واستيعابه لها. إلا ترسيخا لأصالته العربية وتنمية وبلورة". وهكذا كان باكتير. فقد درس الأدب الإنجليزي فلم يزد إلا تمسكا بأصالته العربية. قرأ مسرحية "تاجر البندقية" لشكسبير. فعارضها بمسرحية "شيلوك الجديد" وحملها مضامين سياسية. وجعل منها أداة للرسالة التي نذر نفسه لها.

### عمق الدراسة والإحاطة بالموضوع

ويبدو أن باكتير لم يتناول موضوعا من المواضيع في مسرحياته إلا بعد أن يدرسه دراسة مستفيضة ويحيط بأدق تفاصيله. وتظهر هذه الإحاطة واضحة في ثنانيا العمل الأدبي. ومن يقرأ مسرحياته عن اليهود يدرك أن المؤلف قد فهم تاريخ اليهود فهما كاملا. ولقد عرض للشخصية اليهودية بعد باكتير كتاب آخرون. ولكن لم يستطع واحد منهم أن يرسم أبعاد الشخصية اليهودية كما رسمها باكتير. ومما يدل على عمق اطلاعه أن الناقد سيد قطب حين صدرت مسرحية "شيلوك الجديد" كتب عنها يقول "أنا الذي زعمت لنفسي..أنني ممن يعرفون هذه القضية. أشهد أن رواية "شيلوك الجديد" قد أطلعتني على أنني كنت واهما فيما زعمت.. فقد كشف لي الأستاذ باكتير عن حقيقة وضع القضية.. بما لم يكشفه لي كل ما وصل إلي يدي عنها خلال ١٥ عاما أو تزيد."

وأنه حين كبت مسرحيته "إله إسرائيل" استقي حقائقها من الكتب المقدسة الثلاثة التوراة والإنجيل والقرآن ومن التلمود ومن كتب أخري كثيرة كتبها اليهود أو كتبت عنهم في مختلف العصور وظلت فكرتها مختمرة في ذهنه لأكثر من ١٢ عاما قبل أن يتسني له إنجازها.

وعندما أراد باكثير أن يكتب مسرحية عن المقاومة الفلسطينية عزم على القيام بزيارة لمنطقة الأغوار في خط المواجهة مع إسرائيل على نهر الأردن وذلك ليعيش أياما مع الفدائيين. وقد أفضي برغبته تلك إلى صديقه الأديب الفلسطيني خيرى حماد الذي بدأ بالفعل في الترتيب للأمر لولا أن المنية قد عاجلت باكثير، بعد ذلك بأيام.

### الرؤية المستقبلية

ومن الجدير بالإشارة أن لعلي أحمد باكثير ميزة فريدة تفرد بها باكثير بين أدباء عصره، وهي نفاذ البصيرة، والنظرة الثاقبة للواقع التي تجعله يستطلع أحداث المستقبل. فقد تنبأ باكثير بقيام دولة الكيان الإسرائيلي في مسرحية "شيلوك الجديد" قبل قيامها بثلاثة أعوام.

كما تنبأ بنهاية الإمبراطورية البريطانية التي لم تكن تغيب عنها الشمس في "إمبراطورية في المزداد". وحين زار باكثير غزة بفلسطين عام ١٩٦٦م رأى صديقه الأديب خيرى حماد العبرات تخنقه وهو يقول له "يا أخي إنني أرى أن البقية

الباقية من فلسطين ستضيع ما دمننا على هذه الحال. وصمت. وكان إحساسه صادقا فما مضي عام حتي أخذت إسرائيل كل فلسطين<sup>٢</sup>."

---

<sup>٢</sup> محمد أبو بكر حميد، علي أحمد باكثير في مرآة عصره، مكتبة مصر، ١٩٩٠م، ص ١٢٠.

أحلام نابليون  
على أحمد باكثير

---

(أشخاص المصرحية)  
(بترتيب ظهورهم على المسرح)

نابليون	: بونايرت قائد الحملة.
بولين	: مدام فورييه.
زينب	:
بورين	: سكرتير نابليون الخاص.
كليس	: قائد الحملة بعد سفر نابليون.
كافار يلى	: من كبار الثوار.
دوجا	: من كبار الثوار.
بوسيلج	: مدير الشؤون المالية.
الشرقاوي	: من شيوخ الأزهر.
المهدي	: من شيوخ الأزهر.
الدواخلي	: من شيوخ الأزهر.
خليل	: خليل البكري نقيب الأشراف.

- دار جفيل : مدير حديقة تيفولى وملهى تيفولى.  
بوهارنيه : ابن جوزيفين زوجة نابليون.  
جاكلين : امرأة فرنسية.  
فرانسواز : امرأة فرنسية.  
زوج جاكلين : ضابط فرنسي.  
زوج فرانسواز : ضابط فرنسي.  
فوريه : مسيو فوريه زوج بولين.  
مينو : الجنرال مينو.  
جرنسون نوبى - ثلاث بغايا - حرس الملهى.

## الفصل الأول

حجرة استقبال في بيت بولين "مدام فوريه" الذي أعده لها نابليون في بركة الرطل. باب على اليسار يؤدي إلى الخارج وباب على اليمين يؤدي إلى داخل البيت.

الوقت: (حوالي الساعة الثانية بعد الظهر).

(يرفع الستار عن نابليون جالسا على كرسي ومن خلفه بولين واقفة تدعك ظهره وعنقه ورأسه وهو يتمطى ويتأوه ويقبلها بين الفينة والفينة).

بولين : يكفيك؟

نابليون : استمرى.

بولين : ألم تشبع؟

نابليون : أنا لا أشبع أبدا.

بولين : من المعاييب التي أخذتها عن هؤلاء الشرقيين.

نابليون : بل من فضائلهم يا بولين. أمة عريقة في الحضارة توارثت

هذا الطب الطبيعي الذي يمسح التعب ويزيل الوجع

ويجلو الذهن ويعدل المزاج.

بوليون : ويديا؟ ألا تفكر فيما ينالهما من الكلل؟

نابليون : الحب يا بولين لا يعرف الكلل.

- بولين : ذاك قلبي يا مونشير.
- نابليون : (يلتفت إليها ويمسك يديها بين راحتيه ويطبع عليهما قبلة صغيرة) هاتان موصلتان بالقلب.
- بولين : أنت إذن تريدني أن أكبّسك ليل نهار.
- نابليون : أترين ذلك كثيرا عليّ يا بولين؟
- بولين : بل قليل في حقك ولكن كثير عليّ.
- نابليون : غدا يا حبيبتي يخف حملك.
- بولين : غدا؟
- نابليون : حين تجدين من تعاونك.
- بولين : من؟ زينب؟
- نابليون : نعم.
- بولين : كلا.... لا أريد عوناً من أحد.
- نابليون : ويداك ألا تفكرين فيما ينالهما من الكلل؟
- بولين : الحب يا حبيبتي لا يعرف الكلل.
- نابليون : ذاك قلبك يا بولين.
- بولين : ويداي موصلتان بقلبي.
- نابليون : جميل... جميل... خبريني إنك لتجدين التكبيس من أين تعلمته.
- بولين : تلقيته عن عجوز خبيرة.

---

نايليون	: أين؟
بولين	: في الكحكيين.
نايليون	: من ذلك علمها؟
بولين	: السؤال.
نايليون	: وماذا جعلك تسألين؟
بولين	: سؤالك كل يوم.
نايليون	: تعنين....
بولين	: نابليون الصغير.
نايليون	: (يضمها بين ذراعيه فرحا ويوسعها لثما وتقبيلا). كيلوباتراى الصغيرة. لا أدري كيف أحبك؟ كم أنا مدين لك؟ أه لو تعلم أمي المسكينة؟ كيف لم أعرفك من قبل؟ أين كنت؟
بولين	: كنت دائما موجودة. ولكنك كنت سجيناً في تلك الجزيرة النائية.
نايليون	: (متطيراً) سجين؟ جزيرة نائية؟
بولين	: المارتنيك.
نايليون	: تعنين جوزيفين...أجل كانت سجني وسجانتى. ولكنى تحررت اليوم. أنا اليوم في القارة.. بعيداً عن الجزيرة.
بولين	: إياك أن تعود إليهما.
نايليون	: هينأت. نابليون الصغير سيحول دون ذلك.. خبريني ماذا

---

---

قالت لك العجوز الخبيرة؟	
بولين : أمرتني أن أصبر وأستمر في العلاج.	
نابليون : هناك أمل؟	
بولين : كبير.	
نابليون : حذار أن تكون دجّالة.	
بولين : ألم يعجبك تكبيسي؟	
نابليون : في منتهى الإتقان.	
بولين : هي التي علمتني.	
نابليون : والدكتور لارى ألم تعودى إليه؟	
بولين : ماذا أصنع عنده؟ سيقول لي نفس العبارة: يا صغيرتي ليس عندك ما يمنع.	
نابليون : وهذه ماذا تصنع لك؟	
بولين : هذه تدلكني وتبخرنى وترقيني بالأدعية وتعطيني عقاقير ومراهم و.....	
نابليون : وماذا؟	
بولين : وتحاميل.	
نابليون : (يضحك) تحاميل.	
بولين : أتسخر؟	
نابليون : كلا...لا أسخر مما لا أعلم. ما أكثر ما يطويه الكون من	

---

- أسرار. وما أقل ما نعلم منها.  
بولين : (فرحة) أحقا تؤمن بذلك؟  
نابليون : كيف لا؟ أنا نفسي سر من تلك الأسرار.  
بولين : (في اهتمام) أجل... لا يعرف أحد كيف يرضيك؟  
نابليون : إلا أنت يا بولين.  
بولين : وزينب؟  
نابليون : هذه من حسناتك.  
بولين : كلا لا شأن لي بها.  
نابليون : أنت كنت الصلة.  
بولين : ما حيلتي؟ أردت أن أرضيك.  
نابليون : فقد أرضيتني.  
بولين : على حسابي.  
نابليون : بل لحسابك.  
بولين : ستنازعني في حبك.  
نابليون : بل ستعاونك على تحقيق ما أبتغيه.  
بولين : وماذا تبتغي؟ الولد؟  
نابليون : بل أكبر من الولد.  
بولين : ليكن ما يكون. أنا كفيلة لك به.  
نابليون : كلا..... لا تستطيعين.

بولين	: ليس في الدنيا ما لا أستطيعه من أجلك.
نابليون	: إلا أن تكوني من بيت عريق في الإسلام.
بولين	: هيه... أنت إذن لا تؤمن بمبادئ الثورة.
نابليون	: ماذا تقولين؟
بولين	: عراقة الأصل ما زلت تجري وراءها في كل مكان. أرملة الكونت
	دى بوهارنيه في فرنسا وابنة الشيخ البكرى في مصر.
نابليون	: كلا ليس الأمر كما تظنين. وإلا لما التمست منك الولد.
بولين	: تزوجني إذن.
نابليون	: بعد أن تنجني لي.
بولين	: كما تزوجت الكونتيسة.
نابليون	: لا أريد أن أعيد مأساة الكونتيسة.
بولين	: وزينب. أأست تريد أن تتزوجها.
نابليون	: بعد أن تنجب لي هي أيضا.
بولين	: مستحيل. هذه لم تستسلم لك إلا بالزواج....
نابليون	: ليس عندي يا بولين مستحيل.
بولين	: اسمع. حذار أن تمسها بسوء. هذه في عهدتي.
نابليون	: كلا لن أكرهها على ما لا تريد.
بولين	: ستحتال عليها كما فعلت معي.
نابليون	: هل أكرهتك؟

- بولين : دلقت الشراب في حجري ليبتل ثوبي، ثم قدتني إلى مخدعك  
لأغير الثوب فيه.
- نابليون : خبريني يا بولين واصدقيني...هل حزرت ساعتئذ ما كنت  
أقصد إليه؟
- بولين : نعم.
- نابليون : يا شقية.
- بولين : لكني سأحذر زينب من حيلك.
- نابليون : افعلي فلن تظنك غيري عليهما...بل غيري منها.(ينظر في  
ساعته) هذا موعد درسها.... كيف لم تجي بعد؟
- بولين : لعلها نسيت أو منعها عذر.
- نابليون : اذهبي إليها الآن فأحضرها.
- بولين : أحضرها؟ أهي دمية؟
- نابليون : ادعها...ذكرها موعد الدرس.. هيا اذهبي قبل أن يحين  
موعد المشايخ.
- بولين : المشايخ؟ يأتون هنا عندي؟
- نابليون : نعم. اذهبي إليها. أسرع.
- بولين : انتظر قليلا.
- نابليون : لن أنتظر.
- بولين : لعلها في الطريق.

- نابليون : أحضرها من الطريق.
- بولين : (تمهياً للخروج) ها هي ذي جاءت. الحمد لله.
- نابليون : (يستقبلها على الباب) مرحبا بك يا مداموازيل.
- زينب : (تدخل) شكرا يا سيدي الجنرال.
- (تصافحه ثم تصافح بولين)
- نابليون : أنا الذى سأعطيك الدرس اليوم أيضا.
- زينب : لكن...
- نابليون : ألم يعجبك درسي أمس؟
- بولين : بلى ولكن..
- نابليون : أنا أفصح منها وأقدر على تعليمك.
- زينب : ربما ولكن..
- نابليون : قد اتفقت مع مدام فوريه على ذلك.
- بولين : (على حدة) مدام فوريه.
- زينب : ومشاغلك يا يسدي الجنرال.
- نابليون : أنت اليوم شغلي يا زينب. ليس لي شغل سواك. اجلسي.
- زينب : (تجلس وتفتح الكتاب) الدرس العشرون.
- نابليون : (يجلس إلى جانبها) أطبقي الكتاب. سأعطيك محادثة
- (يلتفت إلى بولين) مدام فوريه لا ينبغي أن يكون في الفصل
- الواحد مدرسان.

- بولين : (ساخرة) ولاسيما إذا لم يكن في الفصل غير تلميذة واحدة.  
(تنسحب ثم تعود).
- نابليون : ما خطبك؟
- بولين : أوصيك بها خيرا. إنها تلميذتي. في عهدي.
- نابليون : اطمئني. درس واحد مني بمائة درس منك.
- بولين : مدموازيل. انتبهى جيدا. (تخرج)
- نابليون : الغيرة في كل مكان. مدام فوريه تغار منك يا زينب.الفرنسيون الذين معي يغارون من حبي للإسلام. ومشايخ الأزهر يغرون من حبي لوالدك.
- زينب : وأنت يا سيدي الجنرال. ألا تغار من أحد على أحد؟
- نابليون : (يتغير وجهه قليلا) أين؟
- زينب : (تفطن لما به) هنا في مصر.
- نابليون : (يسرى عنه) هنا في مصر لأغار إلا من والدك.
- زينب : على من؟
- نابليون : عليك أنت.
- زينب : لماذا؟
- نابليون : لأنه يراك أكثر مما أراك.
- زينب : أنت تغار منه وهو يهدي إليك السلام.
- نابليون : في وسعه أن يهدي لي ما هو أفضل وأنفس.

زينب	: هو يحبك ولا يضمن بشيء عليك.
نابليون	: ولا بك أنت؟
زينب	: أنا لست جارية.
نابليون	: أنا لا أريد جارية.
زينب	: تريد ماذا؟
نابليون	: ملكة.
زينب	: ملكة؟
نابليون	: سلطانة.
زينب	: مثل شجر الدر؟
نابليون	: بل أعظم.
زينب	: مثل زبيدة امرأة هارون الرشيد؟
نابليون	: بل أعظم.
زينب	: هارون الرشيد كان يقول للسحابة في السماء...أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك.
نابليون	: وأنا سأقول للشمس: أشرقي أنى شئت فلم تشرقي إلا على رعاياي.
زينب	: مثل الإسكندر الأكبر؟
نابليون	: بل أعظم من الإسكندر الأكبر.
زينب	: وترى ذلك ممكنا اليوم؟

- نابليون : إذا ساعدتني أنت على ذلك.
- زينب : وأي شيء أستطيع أن أقدمه لك؟
- نابليون : قلبك.
- زينب : قلبي صغير لا يسع كل أحلامك؟
- نابليون : إذا أحبني قلبك اتسع لي ولأحلامي.
- زينب : كلامك يا سيدي حلو. ولكن...
- نابليون : ولكن ماذا؟
- زينب : أخشى أن يكون مما تقوله دائما للنساء.
- نابليون : كلا هذا كلام لا يقال إلا لك وحدك.
- زينب : (بصوت خافض) ومدام فوريه؟
- نابليون : (بصوت خافض) هذه طريقي إليك.
- زينب : وأنا سأكون طريقك إلى من؟
- نابليون : إلى المجد... إلى بناء إمبراطورية عربية عظيمة تكون تكون قاعدتها في مصر. تمتد حدودها من إسطنبول إلى الهند ومن مراكش إلى السودان.
- زينب : أوتظن مثل هذه الدولة يمكن أن يحكمها رجل غير مسلم؟
- نابليون : أنا مسلم يا زينب.
- زينب : يجب أن تشهر إسلامك.
- نابليون : قد أعلنته في منشوراتي.

زینب	: في تلك المنشورات أعلنت أنكم جميعا مسلمون.
نابليون	: أجل نحن جميعا نحترم الإسلام ونبي الإسلام.
زینب	: أنت تعلم يا سيدي أن ذلك لا يكفي، فقد اعتبره الناس من باب الدعاية والخداع.
نابليون	: لكني أنا مؤمن حقا بهذا الدين، فقد ردسته ودرست تاريخه فاطمأنت نفسي إليه، وأرجو أن يقتنع به رجالي يوما من الأيام
زینب	: سيكون ذلك اليوم يا سيدي أسعد يوم في حياتي.
نابليون	: لكني لا أستطيع أن أنتظر.
زینب	: ماذا تعني؟
نابليون	: لا بد أن أتزوجك قبل ذلك.
زینب	: متى؟
نابليون	: الآن.
زینب	: الآن؟
نابليون	: (يمسك بيدها) أجل... هلي معي.
زینب	: (تجذب يدها منه بلطف) إلى أين؟
نابليون	: سأريك صورة أُمي.
زینب	: صحيح؟ عندك؟ أرنيها.
نابليون	: معلقة في حجرتي.

- زينب : تلك الصورة المعلقة في الحجرة؟ قد رأيتها.
- نابليون : متى؟
- زينب : ذات يوم. جميلة. فيها شبه منك.
- نابليون : ألا تحبين أن تريها مرة أخرى؟
- زينب : إذا أحضرتها أكون شاكرة.
- نابليون : (حسنا).. سأحضرها لك (يخرج)  
(تدخل بولين متسللة)
- بولين : (هامسة) أحسنت يا زينب. حذار... إنه ثعلب. لا بد أن يفكر  
الآن في حيلة أخرى. حذار. (تنسل خارجة)  
(يعود نابليون ومعه قدح شراب)
- زينب : أين الصورة؟
- نابليون : أليس قد رأيتها؟
- زينب : أحب أن أراها مرة أخرى.
- نابليون : دعها معلقة في جدارها . هذا الشراب لذيذ جدا. أحضرته  
لك.
- زينب : فيم الكلفة يا سيدي؟
- نابليون : أنت ضيفة عزيزة عندي.
- زينب : لكن...
- نابليون : لا تخافي.. هذا ليس بخمر. هذا شراب التوت.

- زينب : أنا اليوم يا سيدي صائمة.
- نابليون : صائمة؟
- زينب : نعم.
- نابليون : لا تخدعيني..نحن لسنا في شهر رمضان. لا يزال بيننا وبينه شهران.
- زينب : أنا وأمي نصوم الخميس والإثنين من كل أسبوع. سنة يا سيدي.
- نابليون : سنّة؟
- زينب : ليس بفرض.
- نابليون : اشربي إذن ما دام ليس بفرض.
- زينب : أرجوك يا سيدي. لا تقطع عليّ صومي.
- نابليون : (يسقط القدرح في حجرها) وي. على الشيطان اللعنة.كيف سقط من يدي.
- زينب : (تمهض وهي تنفض البلل من ثوبها) لا بأس يا سيدي. راح الشر.
- نابليون : ادخلي إذن لتغيري ثوبك.
- زينب : سأغير ثوبي في البيت.
- نابليون : كلا لا يصح أن تخرجي بهذا البلل في ثوبك. ماذا يقول الناس عنك؟

زينب	: لن يراه أحد. سألبس ملاءتي فوقه. (تنادي) بولين. بولين.
بولين	: (تدخل) انتهى الدرس؟
نابليون	: لا لم ينته بعد.
زينب	: بلى. أعطيني ملاءتي.
نابليون	: يا هذه أين أخفيت ملاءتها؟
بولين	: (تنظر إليه شزرا) احتفظت بها عندي. (تناول الملاءة لزينب فترتديها زينب)
نابليون	: متى تعودين يا زينب؟ غدا.
بولين	: غدا الجمعة. إجازة.
نابليون	: إجازة عندك أنت. لا عندي.
زينب	: إجازة عندي أنا يا سيدي.
نابليون	: يوم السبت إذن.
زينب	: إن شاء الله (تخرج)
نابليون	: أنت حذرتيها مني.
بولين	: أبدا.
نابليون	: واضح.
بولين	: واجب. في عهدتي.
نابليون	: في عهدتك أم تغارين منها؟
بولين	: لا تحاول أن تتنصل من ذنبك. ماذا هذا الذي كنت تقوله

لها؟	
أكنت تستمعين؟	نابليون
كنت أستمع إلى الدرس. أليس لي أن أستفيد؟	بولين
لا تغضبي إذن إن سمعت ما تكرهين.	نابليون
تريد إذن أن تجعلها ملكة؟	بولين
وأي بأس في ذلك.	نابليون
أنا أولى. أأست قد وعدتني؟	بولين
بلى وأنا عند وعدي	نابليون
كيف؟	بولين
سيكون لي عرشان يا بولين لا عرش واحد.	نابليون
عرشان.	بولين
عرش في الغرب. وعرش في الشرق.	نابليون
(غير مصدقة) عرش في الغرب. وعرش في الشرق!	بولين
عرش في باريس يخضع له الغرب كله. وعرش في القاهرة	نابليون
يخضع له الشرق كله.	
مستحيل.	بولين
ليس عندي مستحيل.	نابليون
بل تكذب على كل واحد لترضى كل واحد.	بولين
سوف ترين.	نابليون

- بولين : وعلى أي تريد أن تجلسني؟
- نابليون : على عرش الغرب.
- بولين : وتجلسها هي على عرش الشرق؟
- نابليون : نعم، صدقت الآن؟
- بولين : المصيبة أنني لا أستطيع أن أصدقك ولا أستطيع أن أكذبك.
- نابليون : انتظري إذن ولا تتسرع في الحكم.
- بولين : لكن هذا شيء عظيم. أتريد أن تملك العالم كله؟
- نابليون : يا صغيرتي متى استطعت أن أملك نصف العالم استطعت أن أملك العالم كله.
- بولين : هذا فوق التصور.
- نابليون : فوق تصورك أنت. ودون تصوري.
- بولين : دون تصورك؟ هل بعد ملك العالم كله من مطمع لك؟
- نابليون : نعم.. إذا كان في الإمكان.
- (يطرق الباب ثلاث طرقات)
- بولين : هذا سكرتيرك الخاص.
- نابليون : ادخل يا مسيو بوريين.
- (يدخل بوريين في أدب)
- بوريين : معذرة يا مودموازيل بليزل.. معذرة يا سيدي الجنرال. الجنرال كليبر بالباب.

- نابليون : اللعنة! ما جاء به الساعة؟
- بورين : ومعه الجنرال كافاريللي والجنرال دوجا والمسيو بوسيلج.
- نابليون : عجباً.. ماذا جاء بهم؟ قل لهم يدخلوا.
- (يخرج بورين ثم يعود ومعه الأربعة فيرحب نابليون وبولين بهم)
- كافاريللي : معذرة يا جنرال بونابرت. موعدنا معك الساعة السادسة مساءً للنقاش في موضوع الحملة على سوريا.
- نابليون : نعم فماذا جاء بكم الساعة؟
- كليبر : لم نستطع أن نصبر حتى الليل.
- نابليون : لماذا؟
- كليبر : هذه الإشاعة التي انتشرت في كل مكان بأننا سنعتنق الإسلام.
- نابليون : هذا من تدبيرنا كما تعلمون. لتألف قلوبهم ولأسيما بعد هذه الثورة الجائحة.
- كليبر : لقد صرنا عندهم مصار السخرية والتندر.
- نابليون : كيف؟
- كليبر : قالوا إنهم سوف يختنوننا واحداً واحداً عند باب الجامع الأزهر بالقدوم.
- نابليون : (ينفجر مقهقها) واحداً واحداً.. عند باب الجامع الأزهر

بالقدوم. (يضحك الآخرون ما عدا كليبر ولكنهم يحاولون

مغالبة الضحك مراعاة لكليبر)

كليبر : أتضحك يا مواطني الجنرال؟

نابليون : هذه تضحك حتى الحجر. انظر إلى رفاقك إنهم يضحكون.

كليبر : رأوك تضحك فضحكوا معك.

نابليون : خبروني يا سادة لو سمعتم هذه النكتة وحدكم أما كنتم

تضحكون؟

كليبر : هذه ليست نكتة. هذه سخريّة مهينة لجيش الشرق ولشرف

فرنسا وكرامة الجمهورية.

نابليون : اطمئن يا جنرال كليبر. على شرف فرنسا وكرامة الجمهورية

فلن يختنوا أحدا من جيش الشرق. لا بقدوم ولا بغيره.

(يضحكون ما عدا كليبر)

نابليون : انظر. هم الذين ضحكوا.. أنا لم أضحك.

كليبر : يا سادة نحن لسنا في فرنسا. نحن في مستعمرة فعلينا أن

نحافظ على وقارنا وألا ننساق مع الهزل إلى أكثر مما ينبغي،

وإلا ضاعت هيبتنا فضعنا معها نحن.

كافاريللي : يا جنرال كليبر. أنت محق فيما تقول، ولكن هذا الهزل

الذي دار بيننا اليوم ليس أكثر مما ينبغي فلا بأس علينا

منه.

---

كليبر	: وقالوا أيضا إنهم سيجلدوننا إذا وجدونا نشرب الخمر.
بوسيلج	: هذا أشد وأنكى من الختان.
دوجا	: بل الختان أنكى وأشد.
نابليون	: البرهان.
دوجا	: السوط أرحم من القدوم.
بوسيلج	: الختان مرة واحدة في العمر، أما الجلد بالسوط فكل يوم.
نابليون	: ما رأيك يا جنرال كافاريللي؟
كافاريللي	: أنا مع الخبير بالإقتصاد. مع المسيو بوسيلج.
نابليون	: صدقت.. الإقتصاد دائما هو الفيصل.
كليبر	: دعونا يا سادة من هذا الجدل الفارغ. كلا الأمرين شر من الآخر. اهتموا بالمهم.
نابليون	: وما المهم يا جنرال كليبر؟
كليبر	: إنك أنت المسئول عما حدث، فما كان ينبغي أن تستفتى علماء الأزهر في جواز إسلامنا بختان أو بغير ختان وبخمر أو بغير خمر.
نابليون	: أنا ما استفتيتهم في ذلك إلا لأثبت لهم أن دخولنا في الإسلام ليس سهلا كما يظنون.
كافاريللي	: أردت أن تتخلص من إلحاحهم عليك؟
نابليون	: أجل، كنت أريد أن أثبت جذور الثورة، فأمرت العلماء أن

---

يصدروا فتوى لتابيعني الناس وتقسم لي يمين الطاعة.  
فقالوا لا سبيل إلى ذلك إلا إذا أسلمنا، فاعتذرت لهم  
بهذين المانعين الختان والخمر فقالوا سنجمع ستين عالما  
ليفتوك في ذلك.

كليبر : ولم تعترض عليهم؟

نابليون : ولماذا أعترض؟ إن ذلك في صالحنا.

كليبر : في صالحنا؟

نابليون : يا جنرال كليبر أنا أعرف بسياسة هؤلاء المسلمين منك.

كليبر : ما جراًهم علينا إلا مغالاتك في التودد إليهم والإشادة  
بدينهم.

نابليون : أما التودد إليهم فهو الذي مكنتنا من البقاء عندهم حتى  
اليوم. وأما الإشادة بدينهم فلعمري إنه لدين يعشقه كل  
ذي فطرة سليمة وعقل حر ونفس عالية.

كليبر : اعترفت الآن أنك لا تمدح دينهم تألفا لقلوبهم بل إيماناً  
به.

نابليون : نعم.. كيف لا أؤمن بدين فتح نصف العالم في عشر  
سنوات؟

كليبر : ويجلد من يشرب الخمر؟

نابليون : لو تعلم يا صديقي ما وراء هذا التشريع من حكمة بالغة.

- كليبر : أي حكمة؟
- نابليون : لو استطعنا أن نمتنع عن الخمر ولا نشرب إلا اللبن والماء القراح لكننا أقوى أمة في الأرض ولفتحنا الدنيا كلها. هذا سر فتوحات المسلمين الأولين.
- كليبر : ما أجدرك أن تكون شيخا من شيوخ الأزهر.
- نابليون : وددت والله لو اتسع وقتي للتعلم في دراسة هذا الدين وتاريخه وسيرة نبيه وأصحابه، إذن لاستمددت من روحه وقومه ما لا يخطر لهؤلاء الشيوخ على بال.
- كليبر : اسمعوا يا سادة. الجنرال بونابرت يتفرق على شيوخ الأزهر.
- نابليون : بالتأكيد يا سادة. إنهم فقدوا روح الإسلام فجمدوا على هيكله منذ قرون. وجاء العصر الحديث وما زالوا في نومهم يغطون.
- كليبر : إنه لا يريد أن يسلم فحسب بل يريد أن يحيى الإسلام.
- نابليون : كلا يا جنرال كليبر. الإسلام حيّ في أفقه الأعلى. ولكني أريد أن أحيى نفسي وأحييكم أنتم إذا ما أسلمت وأسلمتم معي.
- كليبر : أسمعتم؟ كيف يدعوننا إلى الإسلام دعوة سافرة؟
- دوجا : كلا يا سيدي الجنرال نحن لن نسلم أبدا.
- بوسيلج : وليس لك أن تدعونا إلى ذلك.

- نابليون : ما أعجب هذا القرآن الذي جاء به محمد. إني لأحفظ آية من السورة الثامنة كأنما قيلت فيما نحن فيه الآن.
- دوجا : وتحفظ القرآن أيضا؟
- بوسيلج : لتقرأه علينا؟
- كليبر : كلا... هذا كثير.
- كافاريللي : دعونا نسمع الآية منه. مم تخافون؟ أنتم أبناء التوراة وتلامذ ميرابو وفولتير.
- نابليون : يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه.
- كافاريللي : لعله يعني الحياة الأخرى كما في الأنجيل.
- دوجا : أجل.. لا شك في ذلك.
- نابليون : كلا بل يعني هذه الحياة الدنيا. حياة العظمة المجد، حياة الحق والشرف والعدل.
- بوسيلج : وكيف عرفت؟
- نابليون : من سياق الآية في السورة. السيرة كلها في آداب الجهاد والقتال. فهل يقاتلون في الآخرة؟
- كليبر : يكفي يا سادة.. لا يقرأ علينا السورة كلها.
- كافاريللي : فهنا المقطع الأول من الآية فما معنى المقطع الثاني عن الإنسان وقلبه؟

- كليبر : كفاية يا جنرال كافاريللي. دعونا الآن نناقش موضوع الحملة على سوريا.
- كافاريللي : فيما بعد يا جنرال كليبر.
- كليبر : الحملة أهم من هذا كله.
- كافاريللي : أرجوك يا جنرال كليبر (لنابليون) المقطع الثاني إذا تكلمت.
- نابليون : واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه. هذه في المعجزة يا جنرال كافاريللي. ها أنذا مثلاً أرى قلبي يؤمن إيمان اليقين بأن الإسلام هو الدين الحق. ثم يحال بيني وبين قلبي فلا أستطيع أن أسلم.
- كليبر : وماذا يمنعك؟
- نابليون : قيود كثيرة مادية ومعنوية حقيقية ووهمية منها أنتم.
- كليبر : وما شأنك بنا؟ إن شئت أن تسلم فأسلم وحدك.
- نابليون : هذا هو القيد الأكبر. لو أسلمت دونكم فلن أحقق لكلم ولا لفرنسا شيئاً ذا بال، ولكن لو أسلمتم معي فلن يقف في طريقنا إلى المجد الأكبر شيء.
- كافاريللي : يا صديقي الجنرال أنت في الحرب ذو موهبة عملية لا تجاري ولكنك في غير الحرب لست سوي حالم.
- دوجا : أجل ما أعجب أن يجتمع النقيضان في قائدنا العام.
- بوسيلج : ولكن من حسن حظنا أن مصلحة فرنسا هي عنده فوق

كل شيء.

- كليبر : إلى موضوع الحملة على سوريا يا قوم.
- نابليون : (ينظر إلى ساعته) لا مانع.
- كليبر : أنا لا أرى من الحكمة أن تقوم بها في الوقت الراهن.
- نابليون : الآن بعدما احتل أحمد باشا الجزائر العريش؟ ما بقي إلا أن تزحف جحافلهم علينا.
- كليبر : لتزحف جحافلهم فسنسحقها سحقاً.
- نابليون : إن من أخطر الخطر أن تصل جحافلهم الآن والبلاد تغلي بالسخط علينا عقب الثورة. لقد أطمعهم هذه الثورة فلنسبقهم إلى عقر دارهم لنكذب أطماعهم هنا.
- كليبر : لكن المصريين سيثورون مرة أخرى إذا تركناهم.
- نابليون : بالعكس سيشعرهم ذلك بأننا أقوياء وإلا لما خرجنا من عندهم لنغزو بلداً آخر. ثم إنهم لن يثوروا إلا بعد أن تندمل جراحهم من الثورة الأولى. فلنعجل بحملتنا على الشام قبل ذلك.
- دوجا : ألا ترى أن الجو غير مناسب فالبرد شديد هنا فلو أجلناها حتى الربيع؟
- نابليون : كلا. أخشى ما نخشاه هو القبط القاتل في تلك الطرق الصحراوية. فإذا تحركنا الآن ونحن في آخر الشتاء فسيكون

أمامنا خمسة أشهر قبل اشتداد الصيف نستطيع في خلالها أن نكتسح الشام حتى نبليغ طوروس فإما أن نتجه إلى الشرق فننطلق إلى الهند لنقضي فيها على قوة الإنجليز، وإما أن نواصل السير إلى الشمال حتى نستولى على استانبول.

بوسيلج : تلك إذن غزوة كبيرة لا يكفي فيها ثلاثة عشر ألف جندي.

نابليون : لن نقتصر عليهم. سنشير الدروز والمسيحيين في الشام ونسلحهم ونضم إلينا منهم ومن المماليك ما يزيد على عشرين ألف مقاتل.

كليب : كيف تعتمد على نصارى الشام بعدما بلغهم تهجمك على

كرسي البابوية في منشوراتك الإسلامية التي أذعتها في مصر؟  
نابليون : من اليسير أن نقنعهم بأننا كنا نتألف المصريين بذلك ونخدعهم.

كليب : يا إلهي. منذ لحظة فقط كنت تمدح الإسلام والمسلمين.

نابليون : يا صديقي لكل مقام مقال.

دوجا : ولكني أعتقد بعد يا سيدي الجنرال أن مغامرة كبيرة كهذه لا ينبغي أن تعتمد فيها على الفرنسيين وحدهم.

نابليون : إن اتضح لنا بعد اكتساح الشام أن من الضرر أن نواصل غزونا اكتفينا بذلك... ورجعنا إلى مصر وقد أدبنا الأتراك

- ومنعنا وصولهم إلينا عن طريق البر.
- كافاريللي : ألم أقل لكم يا سادة إن قائدنا بونابرت لا بد قد قلب كل وجه في الموضوع وفكر في كل احتمال؟ فماذا ترون الآن؟ هل من سؤال بعد؟
- الجميع : لا.... اقتنعنا الآن.
- كليبر : اعذرني يا سيدي الجنرال إذا تشددت في أسئلتني فإنك أسندت قيادة الحملة إليّ فعليّ أن أكون منها على بصيرة في كل شيء.
- نابليون : اعذرني أنت أيضا فقد استقر رأيي على أن أتولى قيادة الحملة بنفسني.
- كليبر : وتتركني أنا في مصر؟
- نابليون : كلا ستكون معي لا أستغني عنك بحال. (ينظر في ساعته فينهض) أيها السادة لقد أن لي أن أتوجه إلى المشايخ في الأزهر لأحضرهم معي في العرية.
- الجميع : (ينهضون) نستأذن إذن.
- نابليون : كلا بل تبقون هنا لتسمعوا الفتوى منهم.
- كليبر : فتوى الختان والخمر؟
- نابليون : نعم...لا تخف يا جنرال كليبر فلن يختنوك ولن يجلدوك.
- (يضحكون) يقهقه كليبر قليلا ثم يتوقف فجأة كأنه

تذکر وقارہ

- نابليون : (ينادي) بولين. بولين.
- بولين : (صوتها) نعم.
- نابليون : ألا تقدمين شيئاً لضيوفك؟
- بولين : حاضر (يخرج نابليون)
- كليبر : رأيتم يا سادة كيف صرنا نعقد اجتماعاتنا في بيت هذه العشيقة؟
- كافاريللي : ألطف. ليشعرنا بالدفء.
- كليبر : خير لنا أن يشعرنا بالكرامة.
- كافاريللي : كرامتنا محفوظة.
- كليبر : محفوظة؟ متى؟ يوم أرسل زوجها إلى فرنسا في مهمة وهمية أم يوم رجع زوجها ليجدها في أحضان قائده؟
- دوجا : إن قائدنا مغرم بقراءة التاريخ أتدرون من أين أخذ هذه القدوة؟
- كليبر : من أين؟
- دوجا : من قصة داود في العهد القديم إذ أرسل أوريا الحثي إلى الميدان ليُقتل فيتزوج هو امرأته.
- كليبر : هذا انتظر حتى قُتل الرجل في الميدان، أما هذا فلم ينتظر وصول زوجها إلى باريس.

- دوجا : لقد ظن أنه لن يعود فإن الذي يذهب إلى فرنسا الآن لا يمكن أن يعود.
- كافاريللي : يا سادة اللوم ليس على بونابرت.
- كليبر : على من إذن؟
- كافاريللي : على الملاحين الإنجليز إذ منعوا زوجها من الوصول إلى فرنسا وأعادوه من نصف الطريق.  
(يضحكون ما عدا كليبر)
- دوجا : أصبحت يا جنرال كافاريللي مثل بونابرت يلقي اللوم دائما على الإنجليز في كل شيء.
- كافاريللي : لولاهم لوصل الزوج إلى فرنسا ولبقي فيها إلى... إلى يوم يبعثون. (يضحكون ما عدا كليبر)
- دوجا : كلا ليس اللوم على الإنجليز.
- بوسيلج : على من إذن؟
- دوجا : عليها هي ذاتها إذ استجابت له.
- كليبر : هذا تعرض لها وخذعها.
- دوجا : ما يدريك هو الذي تعرض لها أم هي التي تعرضت له لتخدعه؟
- بوسيلج : يا قوم اعذروه فقد كان يعاني ما يعاني من جوزيفين في باريس.

كافاريللي	: ولا تلو موها هي أيضا فإن لها فضلا علينا.
كليبر	: أي فضل؟
كافاريللي	: كان قائدنا عبوسا فصيرته بشوشا.
بوسيلج	: صه. ها هي ذي قد أقبلت.
(تدخل بولين تحمل أقداح شراب)	
بولين	: مرحبا بكم يا سادة. لم أشأ أن أشغلكم عما كنت فيه.
	تفضلوا. هذا شراب التوت الذي يحبه القائد العام.
كليبر	: شكرا يا مدام فوريه.
بولين	: مداموازيل بليزل من فضلك.
كليبر	: مداموازيل بليزل.
دوجا	: لم لا ندعوك (نرتردام دي لوريان) يا مدام؟
بولين	: كلا يا جنرال.. لا ينبغي أن تنزلوا إلى مستوى عامة الجنود.
دوجا	: آسف يا مداموازيل بليزل.
كافاريللي	: لو سمحت لي مداموازيل بليزل دعوتها لأرى جوديفا.
بولين	: تلك سيده إنجليزية هلكت في الدهر القديم على ما أظن.
كافاريللي	: نعم أنت أحييت أسطورتها بشعرك هذا الطويل الجميل.
بولين	: أشكرك يا جنرال كافاريللي على مجاملتك اللطيفة ولكني أفضل أن أبقى مداموازيل بليزل (تجمع الأقداح منهم)
	سأترككم وحدكم لتتحدثوا على حريتكم.

الجميع	: بل اجلسي معنا يا مداموازيل بليل.
بولين	: شكرا (تخرج)
كليبر	: انظروا إلى هذه المدام التي تحولت إلى مداموازيل.
بوسيلج	: لكي يتزوجها بونابرت بعد أن يطلق جوزيفين.
دوجا	: وهل يستطيع أن يطلق جوزيفين؟
بوسيلج	: ربما إذا جاءت له بولد.
دوجا	: من؟ جوزيفين أم مدام فوريه؟
كليبر	: من فيكم يعلم لماذا ألقى بونابرت ملازمه يوجين بوهارنيه من وظيفته؟
كافاريللي	: لأن الشاب بوهارنيه كان يجد جرجا أن يسير في ركاب غريمته.
كليبر	: أنا سمعت تفسيراً آخر.
الجميع	: ما هو؟
كليبر	: أن الشاب بدأ يغازلها فبلغ ذلك بونابرت.
كافاريللي	: لا تصدقوا هذه الإشاعات يا قوم.
كليبر	(تسمع أصوات من بعيد كأنها لموكب قادم) ما هذه الضجة؟
دوجا	: (يطل من الشباك) هذا موكب الجنرال بونابرت والجموع حول عربته.

- كافاريللي : جاء معه بالمشايخ.
- الأصوات : (تتضح) رددوا التحية. واحلفوا اليمين. الفرنسية.. صاروا مسلمين.
- (يدخل نابليون ومعه المشايخ عبد الله الشرقاوي ومحمد المهدي ومحمد الدواخلي)
- نابليون : (يوسع لهم المجلس فيجلسون) تفضلوا. ها نحن أولاء مجتمعون لسماع فتواكم.
- الشرقاوي : ونحن نعلنها لكم بعد ما اتفق عليها ستون عالما منا بأن إسلامكم مقبول بغير أن تكرهوا على الختان وبغير أن تتعهدوا من الآن بالامتناع عن شرب الخمر، فإن إسلامكم إذا حسن كفيلا في المستقبل بأن يجنبكم الخمر وسائر المنكرات الأخرى، وبالله التوفيق وهو الهادي إلى سواء السبيل.
- كليبير : أسمعتم يا سادة؟ ماذا نصنع الآن؟
- نابليون : (يوميء لكليبير أن اسكت) نشكركم يا شيخ الأزهر على رحابة صدوركم وعلى ما بذلتم من جهد لتذليل العقبات التي تعترض اعتناقنا للدين الحنيف، وقد كان في نيتي أن أشهر إسلامي وإسلام الذين معي جميعا اليوم لولا أنني رأيت محمدا البارحة في المنام.

- المشائخ : صلى الله عليه وسلم.
- نابليون : وقال لي: يا بونابرت ادخل الإسلام، وستفتح آسيا كلها وتغزو الإسلام والمسلمين.
- الشرقاوي : الحمد لله. هذه رؤيا عظيمة.
- المهدي : رؤيا صادقة كفلق الصبح.
- الدواخلي : أجل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من رآني فقد رآني حقا فإن الشيطان لا يتمثل بي.
- نابليون : ألا تسألونني ماذا طلبت منه؟
- المشائخ : ماذا طلبت منه عليه السلام؟
- نابليون : طلبت منه أن يهملني سنة لأهبي جيشي وأعدده للدخول في الإسلام.
- (يسكت المشائخ وينظر بعضهم إلى بعض)
- كافاريللي : ووافق على طلبك؟
- نابليون : نعم وباركني ودعا لي. ففي وسعكم يا شيوخ الأزهر أن تعتبرونا مسلمين من الآن. وبلغوا ذلك لأعضاء الديوانين العمومي والخصوصي.
- الشرقاوي : نسأل الله أن يوفقكم إلى الخير. ولكن المبايعة لا يمكن أن تتم إلا بعد.
- نابليون : لا بأس. تؤجل المبايعة إلى العام القادم. ولكن عليكم أن

تذكروا الناس أنني أعدت لهم الديوان وجعلت نظامه  
خيرا من الأول. وسامحت كل من اشترك في الثورة وعفوت  
عما سلف. فعليهم أن يخلصوا لنا في المستقبل ولا سيما  
ونحن اليوم في حكم المسلمين فقد أذن النبي بتأجيل  
إسلامنا إلى العام القادم.

الشرقاوي : على العين والرأس يا سارى عسكر.

نابليون : وبشروا الجميع أنني بعد عودتي من حملة الشام سأبنى  
لهم جامعا كبيرا في القاهرة لا نظير له في البلاد الإسلامية  
كلها.

الشرقاوي : هذه بشرى عظيمة.

الدواخلي : نسأل الله لكم التوفيق.

(ينهض المشائخ للانصراف)

نابليون : (يشييعهم إلى الباب) بوريين. دعهم يوصلوا المشائخ في  
العربة.

(يخرج المشائخ)

الجماهير : (أصواتها من الخارج): رددوا التحية.. واحلقوا اليمن  
الفرنسوية.. صاروا مسلمين.

كافاريللي : لقد أحسنت التخلص يا سيدي الجنرال.

كليب : وبعد السنة؟

نابليون	: الجزائر كليبر ماذا يخشى من الختان؟
كليبر	: ليس من الختان بل من الإسلام.
كافاريللي	: اطمئن. حينئذ سيقص عليهم بونابرت رؤيا جديدة.
	(يتضحون ويضحك معهم نابليون وهو يشيعهم إلى الباب)
	(يعود نابليون وتدخل بولين مرتدية ملابس الخروج)
بولين	: فرغت الآن من مشاغلك فهلم نتجول قليلا على العربة.
نابليون	: أنا ما فرغت بعد يا بولين.
بولين	: ماذا عندك بعد؟
نابليون	: في انتظار الشيخ المهدي.
بولين	: الشيخ المهدي.. ألم يكن هنا مع المشائخ؟
نابليون	: سيعود في مسألة أخرى ومعه الشيخ خليل البكري.
بولين	: الشيخ خليل البكري؟
نابليون	: والد تلميذتك زينب.
بولين	: ما عادت تلميذتي. صارت غريمة.
نابليون	: حدثيني يا بولين لماذا أشعر نحوها برهبة؟
بولين	: برهبة؟
نابليون	: كأنني أمام قديسة.
بولين	: قديسة؟

نابليون	: أو أمام راهبة.
بولين	: راهبة؟
نابليون	: نعم.
بولين	: ومع ذلك فقد حاولت أن تفترسها اليوم.
نابليون	: كلا يا بولين ما حاولت.
بولين	: على مرأى مني ومسمع.
نابليون	: لم تكن محاولة صادقة. كانت إرادتي شبه مشلولة. كنت كأني أرى بولين شقيقتي.
بولين	: بولين شقيقتك؟
نابليون	: نعم...فيها مشابه منها.
بولين	: أختك فيها مشابه من زينب؟
نابليون	: نعم..
بولين	: ماذا يجمع بين كورسيكية وعربية؟
نابليون	: تذكر يا بولين أن هؤلاء العرب كانوا مضى يحكمون صقلية.
بولين	: هيه.. أتريد أن تقول إن دما عربيا ربما يجري في عروك؟
نابليون	: من يدري؟
بولين	: كل هذا من أجل زينب؟
نابليون	: بل من أجل فرنسا يا بولين. أريد أن أبني لها إمبراطورية

- عظيمة في الشرق.
- بولين : أوه. لقد بلبلت فكري. إن كنت لا تريد الخروج معي فسأخرج مع يوجين بوهارنيه.
- نابليون : ابن غريمتك؟
- بولين : لسيت غريمتي. أنا غريمتها.
- نابليون : خذي حذرك لا ينتقم لأمه منك.
- بولين : لا تخف. أعرف كيف أروضه. (تخرج)
- (يدخل بورين)
- بورين : الشيخ المهدي والسيد خليل البكري.
- (يخرج نابليون لاستقبالهما ثم يعود بهما معه)
- نابليون : يا سيد خليل أنت تعرف حي لك.
- خليل : وأنا أيضا أحبك يا ساري عسكر.
- نابليون : كلمك الشيخ المهدي؟
- خليل : نعم، ولكن هذه مخطوبة لابن عمها محي الدين.
- المهدي : ابن عمها هذا لا يقدر أن يجعلها سلطنة.
- نابليون : برافو شيخ مهدي.
- خليل : ثم إنها صغيرة السن بعد.
- المهدي : يا سيد خليل إننا نزوج بناتنا في سن أصغر من سنها.
- خليل : ثم.. ثم الإسلام.

نايليون	. أنا مسلم.
خليل	: لا يكفي أن تقول إنك مسلم.
المهدي	: قل الشهادة أمامه. قل معي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.
نايليون	: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.
المهدي	: لم يبق لك الآن من عذر.
خليل	: فليمهلنا شهرا على الأقل لنستعد.
المهدي	: قلت لك إنه لا يريد أي احتفال. يريد أن يبني بها سرا تغير طبل ولا زمر.
خليل	: سيكون في ذلك ظلم للفتاة.
المهدي	: ظلم؟ إنها ستكون سلطانة المسلمين، وستكون أنت حما السلطان الكبير.
خليل	: لا يصح أن نزوجها هكذا بغير وليمة ولا فرح.
نايليون	: سنقيم الولائم والأفراح بعد أن نعود من حملة الشام.
خليل	: أمهلنا إذن بضعة أيام.
نايليون	: ألم تقص عليه الرؤيا التي رأيتها البارحة يا شيخ مهدي؟
المهدي	: بل قصصتها عليه.
نايليون	: أريد أن تشملني بركتها الليلة.
المهدي	: هيا يا سيد خليل ارجع إلى البيت فطيب خاطر الفتاة

ودعهم يهينوها، وسأتي أنا بالمأذون والشهود وما يلزم.  
تولك على الله.

خليل : (مغموما) يفعل الله ما يشاء (يتهيأ للخروج)

المهدي : انتظر.. سأخرج أنا معك (يخرجان)

(تدخل بولين)

نابليون : بولين أنت هنا؟

بولين : (غاضبة) كما ترى.

نابليون : أحسنت إن لم تخرجي. هلمي بنا نتجول الآن؟

بولين : تجول معها.

نابليون : (ملاطفا) يا صغيرتي لا ينبغي أن تغاري. إن عرش الغرب

سيكون أكبر من عرش الشرق.

بولين : والزواج.

نابليون : (يسارها بكلام غير مسموع) ....

بولين : صحيح!

نابليون : نعم.

بولين : لكن مسكينة. حرام.

نابليون : يا شقية. خبريني كيف أرضيك؟ (يقرصها ممازحا)

بولين : (في دلال) يوم تكون أنت لي وحدي.

نابليون : وعرش الشرق؟

- بولين : لي أنا أيضا.
- نابليون : وبذلك أتريد أن تبتلعي العالم كله؟
- بولين : لا تخف. جوفي كبير مثل جوفك.
- نابليون : أيتها الخياطة الصغيرة من كار كاسون.  
(يضمها إلى صدره)
- بولين : أمها الجندي الصغير من كورسيكا.  
(ستار)

## الفصل الثاني

حجرة الاستقبال في بيت بولين "مدام فوريه".

نفس المنظر كما في الفصل الأول.

الوقت: الضحى

(يرفع الستار عن بولين وزينب داخلتين)

بولين : أهلا بك يا زينب. تفضلي.

زينب : أين هو؟

بولين : زوجك السلطان الكبير؟

زينب : اتسخرنى يا بولين؟

بولين : منه هو يا زينب لا منك. أنت تعلمين أني دائما معك.

زينب : لا كان اليوم الذي تزوجني فيه. أين هو؟

بولين : لن يغيب طويلا فقد أمرني أن أنتظره. اجلسي نتحدث.

زينب : (تجلس) ربما يزعجك حضوري إلى بيتك.

بولين : بالعكس. يسرني دائما أن أراك وأسمع منك.

زينب : إنه لم يعد يجيء عندي يا بولين.

بولين : سمعت أنك طردته من بيتك.

زينب : لما رأيته مصرا على موقفه. ماذا أصنع؟

بولين : ألم أقل لك يا زينب إنه رجل لا خلاق له؟ لا يفى بوعدده

- ولا يحافظ على عهده؟
- زينب : ما كنت أحسب أنه سينقض عهده في أمر كهذا لا يكلفه شيئاً وهو عندي كل شيء. ماذا عليه لو أنه أعلن هذا الزواج واحتفل به؟
- بولين : رجل جبان. يخشى أن تصل الأبناء إلى زوجته الخائنة في باريس.
- زينب : كأنني عنده لا أساوي غضب امأة فاجرة.
- بولين : لا أنت ولا أنا ولا أي شيء في الوجود. إنه يزداد لها حبا كلما أمعنت في خيانتته.
- زينب : أمر عجيب.
- بولين : تفسيره سهل.
- زينب : كيف؟
- بولين : الحب عنده ينبع من الغيرة. أخلصي له يعرض عنك. خوينه يعبدك عبادة.
- زينب : لكن...
- بولين : بلغني أنك امتنعت عليه ولم تمكينه من نفسك منذ رجع من حملة الشام.
- زينب : هو الذي أخبرك؟
- بولين : ما أخبرني صراحة ولكنني فهمت ذلك من ثنايا حديثه.

- زينب : أجل يا بولين ولن أستجيب له أبدا حتى يحتفل بزواجنا  
ونعلنه للجميع.
- بولين : أتحسبن أن هذا الأسلوب يفيد فيه؟
- زينب : يفيد أو لا يفيد..هذا موقفي ولن أحيده.
- بولين : لم لا تستعملين السلاح الذي يقطع بدلا من السلاح الذي  
لا يقطع؟
- زينب : كيف؟
- بولين : الشاب بوهارنيه ابن جوزيفين الفاجرة.
- زينب : ما باله؟
- بولين : السلطان الكبير يغار كثيرا منه والشباب يلذ له أن ينتقم  
منه لأمه.
- زينب : لست أعرف ماذا تقصدين.
- بولين : دعيني من هذا. ما عدت اليوم قديسة ولا راهبة.
- زينب : قديسة. راهبة. لست أفهم ما تعنين.
- بولين : أصبحت مثلي الآن لا فرق بينك وبينى.
- زينب : لم أفهم بعد.
- بولين : عليك أن تعملي مثلي. كلما رأيت فتورا في حبه لجأت إلى  
بوهارنيه.
- زينب : كلا يا بولين معاذ الله.

- بولين : لكي تثيري غيرته فينزل حينئذ على حكمك.
- زينب : أرجوك يا بولين لا تخلطي الجد بالهزل.
- بولين : أنا جادة يا زينب ولست بهازلة.
- زينب : مستحيل. هذا مستحيل.
- بولين : ليس عنده مستحيل. فلماذا يكون عندنا نحن مستحيل؟
- زينب : هذا سلاح يذبحنا قبل أن يذبحه.
- بولين : كلا بل يذبحه هو دون أن يذبحنا. حربي وسترين. صه. هذه عربته (تنظر من الشباك) جاء ومعه الجنرال كليبر.
- زينب : كلا لا أحب أن يراني أحد.
- بولين : ادخلي إذن إلى حجرتي. سأستقبلهما ثم آتي إليك.
- (تخرج زينب)
- (يدخل نابليون ومع الجنرال كليبر)
- كليبر : بونجور يا مدموازيل بليزل.
- بولين : بونجور يا جنرال كليبر.
- نابليون : هل سأل عني أحد يا بولين؟
- بولين : لا..لا أحد (تدنو فتساره بحديث فيحرك رأسه علامة الموافقة) (تخرج)
- كليبر : عندكم أحد يا سيدي القائد؟
- نابليون : لا أحد يسمعنا. تكلم على راحتك. ماذا عندك؟

(يجلسان)

- كليبر : لن أطيل عليك. إلى متى نبقى هنا في مصر؟
- نابليون : هذا السؤال غريب.
- كليبر : أريد منك الجواب عليه.
- نابليون : إلى أن نحقق كل أغراضنا من الحملة.
- كليبر : وهل تطمع في تحقيقها بعد؟
- نابليون : لا ينبغي أن نياس أبدا يا كليبر.
- كليبر : وهل ينبغي أن نكاذب أنفسنا ونخادعها. أنت نفسك يا بونابرت قد أيست.
- نابليون : أبدا هذا غير صحيح.
- كليبر : لا تحاول أن تخدعني عن حقيقة ما في نفسك. لقد راقبتك جيدا منذ عدنا من حملة الشام فوجدت اهتمامك مشدودا إلى مشروع آخر.
- نابليون : أي مشروع؟
- كليبر : لأ أدري ما هو ولكني على يقين أنك قد انفصلت عنا بأفكارك وأحلامك إلى مكان آخر.
- نابليون : ليس لك يا كليبر أن تمنعني من التفكير في حالة فرنسا اليوم.
- كليبر : فرنسا يا بونابرت ليست بلدك وحدك فليس من حقك أن

- تفكر فيها وحدك.
- نابليون : ماذا تعني؟
- كليير : أعني أننا لن نقبل بعد اليوم أن نتخذنا أدوات لتحقيق مطامعك وأحلامك.
- نابليون : إن مطاعي وأحلامي هي مطامع فرنسا وأحلامها.
- كليير : كلا إنك لا تعير فرنسا أن أهتمام. كل اهتمامك منصب على نفسك.
- نابليون : كيف إذن ولتني فرنسا قيادة الحملة؟
- كليير : على أمل أن ترعى مصلحتها قبل مصلحتك وأن تسعى إل بناء مجدها هي لا مجدك.
- نابليون : تلك جناية العبقرية على صاحبها.
- كليير : أن تحمله على الغرور والاستبداد.
- نابليون : بل أن تثير فيمن حوله الغيرة والحسد.
- كليير : لكنها لا تثير فينا غير السخط والاشمئزاز.
- نابليون : نتيجة الغيرة والحسد.
- كليير : بل نتيجة الأنانية والنرجسية وعبادة النفس.
- نابليون : اليوم فقط تقول لي هذا؟
- كليير : بل في كل وقت.
- نابليون : من وراء ظهري.

- كليبر : وفي وجهك.
- نابليون : يا جنرال كليبر يجب أن تتعلم الصبر على المكاره فإن الشجاعة وحدها لا قيمة لها بغير الصبر.
- كليبر : أنت أحوج إلى هذه النصيحة مني.
- نابليون : أنا لا أعتقد الصبر مثلك بل أستمد من كل هزيمة قوة جديدة للنصر.
- كليبر : منذنا فقد الصبر على أسوار عكا غيرك؟ لقد كنا نحاصرها وكان مصيرها التسليم لو واصلنا الحصار ولكنك لم تصبر على الانتظار، فقررت الهجوم في غير موضعه ولم تبال في سبيل تحقيق مجدك الشخصي أن تضحي بالألوف من جنودنا البواسل بغير نتيجة سوى الهزيمة المنكرة وضياع هيبتنا في كل مكان حتى صرنا مصار السخرية عند المصريين إذ تظاهروا بالانتصار وعلى وجوهنا علائم الانكسار.
- نابليون : ألم أقل أنفا إن لسان الهزيمة هو الذي يتحرك اليوم في فمك؟ هانتذا صرحت بالسبب.
- كليبر : ومن المسئول عن الهزيمة؟
- نابليون : هلا سألت من المسئول عن تلك الانتصارات كلها التي أحرزتموها قبل ذلك؟
- كليبر : أكنت تحرزها لو كنت وحدك؟

- نابليون : وهل كنت وحدى أمام أسوار عكا؟
- كليبر : نعم كنت وحدك إذ استبددت فيها برأيك.
- نابليون : إذن فقد كنت وحدى أيضا فيما قبلها من المعارك من سهول اللمبادريا إلى وادي النيل.
- كليبر : ولا تقبلها فرنسا من جزيرة خاضعة لحكمها.
- نابليون : إن فرنسا كانت أصدق حكما وأسد رأيا منك إذا اختارت ابنها من أبناء تلك الجزيرة فأفسندت إليه قيادة جيوشها في الغرب والشرق.
- كليبر : كان على ذلك الكورسيكي أن يعرف لفرنسا فضلها عليه فلا يوجه الإهانة إلى أبناءها الصميمين.
- نابليون : هل من مصلحة فرنسا اليوم أن يقال إن كورسيكا إيطالية وأن الألزاس ألمانية؟
- كليبر : أتعرض بي يا سنيور بونايرته؟
- نابليون : أنت الذي عرضت بنفسك يا هير كليبر.
- كليبر : إن كنت تحسبني وحدى فأنت مخطئ. إن في الجيش وبين الضباط لكثيرين يرون هذا الرأي فيك ويرون بقاءنا في مصر عبثا لا طائل تحته.
- نابليون : يا جنرال كليبر ليس لك ولا لغيرك أن تنشروا التذمر في الجيش لتضعفوا من روحه.

- كليبر : وهل بقي للجيش من روح بعد الأهوال التي لقيها في حملة الشام؟
- نابليون : حملة الشام. حملة الشام. أترك حقدت عليّ لأني وعدتك بقيادتها ثم سحبتها منك؟
- كليبر : إني ما كنت متحمسا لحملة الشام هذه فأحرص على قيادتها، ولكن كل شيء عندك شخصي لا تستطيع أن تتصور غير ذلك.
- نابليون : إنك ترميني بدائك. لو قد نجحت الحملة لزعمت اليوم أنك أول المتحمسين لها.
- كليبر : (ساخرا) أجل. أجل ولركعت بين يدي جلالتك أيها السلطان الكبير.
- نابليون : ماذا تعني؟
- كليبر : أنت تعرف ما أعني.
- نابليون : وضّح.
- كليبر : لقد كنت تبغي أن تصل بنا إلى اسطنبول لتقضي على الدولة العثمانية وتبني على أنقاضها دولة عربية إسلامية تكون قاعدتها القاهرة وتكون أنت سلطانها الكبير.
- نابليون : أوقد صدقت أنت هذه الأكذوبة التي اخترعها لأخدع هؤلاء المصريين؟

كليبر : بل كنت تقصدها حقا ولذلك توددت إلى المسلمينا استفيت علماءهم في إسلامنا وزعمت أنك رأيت نبيهم في منامك ثم اتصلت بابنة البكري لتجعلها سلطانة.

نابليون : إن من نكد الدنيا عليّ أن أحوك خدعة لأهل مصر فلا ينخدع بها أهل مصر وينخدع بها رجالي.

كليبر : المثل يقول: إن كنت كذوبا فكن ذكورا. أو قد نسيت يوم دعوتنا دعوة صريحة إلى الإسلام وجعلت تبين لنا فضائله ومزاياه وتقرأ لنا من القرآن وتفسره كأنك من شيوخ الأهره؟  
نابليون : ذلك يا صديقي شأن آخر في الإسلام حقا كما وصفت وأعظم مما وصفت ولو قدر لنا أن نعتنقه لفتحنا لفرنسا العالم.

كليبر : كأنك ما زلت تدعونا إلى اعتناقه حتى اليوم؟  
نابليون : هيئات. لا جدوي من ذلك فالصليبية التي توارثتموها من عهد لويس التاسع ما تزال تعميكم عن رؤية الحق وتصمكم عن سماعه.

كليبر : لقد حيرتنا يا رجل. تارة تمدح دين المسلمين وتارة تقول إنك تخدع المسلمين.

نابليون : كان ينبغي أن تفهم من ذلك- لو نظرت بعين الإنصاف- أن فرنسا عندي فوق عقيدتي وفوق رأبي وفوق مطامعي

وفوق كل شيء.

كليبر : إذا كنت صادقاً فيما تقول فإخرج بنا من هذه الأرض التي لم يبق لنا مستقبل فيها ولا أمل، وعد بنا إلى جمهوريتنا الفتية لنعلي بنائها ونرفع لواءها وندفع عنها أعداءها من كل جانب.

نابليون : هب أننا أردنا ذلك فأين الأسطول الذي يحملنا إلى هناك؟

كليبر : ماذا عساهم يفعلون بنا؟

نابليون : يعتبروننا أسرى حرب ويعيدلون بنا عن القارة ليعطلونا عن الاشتراك فيما يكون فيها من حروب.

كليبر : يجب أن نأخذ منهم الضمانات الكافية.

نابليون : تذكر يا صديقي أن جيشنا هذا هو الذي دوخ أوروبا قبل أن يأتي إلى الشرق، فأني فرصة للإنجليز إذا استطاعوا أن يخرجونا من مصر ثم يأخذونا في الأسر.

كليبر : لا بأس أ، نفاوضهم لنرى ما يكون من أمرهم.

نابليون : كلا. لا ينبغي أن نكشف لهم حرج موقفنا في مصر.

كليبر : أوّظهم لا يعملون بذلك؟ إن لهم جواسيس في كل مكان.

نابليون : ليس سماعهم عنا مثل سماعهم منا.

كليبر : (محتداً) إنك لا تريد أبداً أن تسمع لرأي غير رأيك.

نابليون : لقد تركتك تحاورني منذ ساعة.

- كليبر : أتمن عليّ بذلك؟ تذكر إن كنت ناسيا أنك تخاطب كليبر.
- نابليون : واعلم إن كنت جاهلا أنني أنا القائد العام.
- كليبر : لا تنس أنني قدمت استقالتني ذات يوم فلم تقبلها.
- نابليون : ذلك أحررى أن يستل السخيمة من صدرك فما منعي من قبولها إلا اعتزازي بك، وعرفنا لفضلك واعتدادي بشجاعتك وكفايتك.
- كليبر : لتستغلي في تحقيق مأربك.
- نابليون : قم يا صديقي الآن فإنك متعب وتحتاج إلى الراحة، وعسى أن ترضى عني ذات يوم حين ترى مدى حبي لك واعتمادني عليك.
- كليبر : (بين الرضى والسخط) أتطردني؟
- نابليون : (في لطف) حرصا على راحتك وإبقاء على مودتك.
- (يخرج كليبر)
- نابليون : سنيور بونا برته! بعد كل هذه الأمجاد التي صنعتها لفرنسا. ابن كوريسكا! سوف أريكم يا بني الغال كيف تسجدون لعرض كورسيكا العظيم.
- (يدخل بورين)
- نابليون : سمعت يا بورين ماذا قال هذا الألباسي المغرور؟
- بورين : هذا يؤكد يا سيدي صحة المؤامرة التي يدبرونها ضدك.

نابليون	: أجل.
بوريين	: فعلام عولت؟
نابليون	: (يتلفت يمنة ويسرة) إياك أن تفضى بهذا السر لكائن من كان.
بوريين	: اطمئن يا سيدي.
نابليون	: لقد قررت يا بوريين أن أسبق قدرتي هذا.
بوريين	: بتحطيم المؤامرة في الحال.
نابليون	: كلا بل بالرحيل.
بوريين	: إلى أين؟
نابليون	: إلى فرنسا.
بوريين	: في الوقت الحاضر.
نابليون	: نعم.
بوريين	: قبل أن تقضي على المؤامرة؟
نابليون	: إنها ضدي فإذا رحلت لم يبق لها مكان.
بوريين	: ألا تخشى أن يضربوا ضربتهم قبل أن تتمكن من السفر.
نابليون	: لا، لا خوف من ذلك، فالجيوش التركية آتية لغزونا في القريب فسأوزعهم في شتى المواقع لمواجهة هذا الغزو.
بوريين	: ما زلت أرى يا سيدي ضرورة القضاء على المؤامرة قبل الرحيل.

- نابليون : كلا يا بوريين. إني إن بقيت هنا فلم أنجح في القضاء على ثورتهم كان في ذلك نهايتي إلى الأبد.
- بوريين : بل ستقضي عليهما يا سيدي لا محالة فهم أضعف من ذلك.
- نابليون : حتى في هذه الحالة فمجرد ثورة الجيش عليّ سيصمني بالضعف والإخفاق. فلأسبق القدر يا بوريين ولأغير مجرى الأحداث ولأنقل مصيري من ميدان إلى ميدان.
- بوريين : سبق القدر. هذه كلمة أسمعها منك اليوم لأول مرة.
- نابليون : ولكنها ليست جديدة عندي. لقد فكرت يا بوريين طويلا في مصير أبطال المآسي فاتضح لي واستغرق في نفسي أنه كان في وسعهم أن ينجوا من مصيرهم المحزن لو أنهم تحولوا قبيل اللحظة الحاسمة إلى ميدان جديد بعيد عن ميدان المأساة. وإذن لربما استطاعوا أن يحققوا في الميدان الجديد آمالا كبيرة ما كان تخطر لهم على بال.
- بوريين : إنك يا سيدي لعجيب. كل يوم ينكشف لي منك شيء جديد.
- نابليون : ثم لا تنس يا صديقي أن بقائي بالشرق بعد اليوم يعد عبثا لا طائل تحته، إذا اتضح لي ألا سبيل إلى السيطرة على الشرق ما لم أسيطر أولا على الغرب.
- بوريين : صحيح.
- نابليون : ولا تنس كذلك يا بوريين أن فرنسا اليوم في حاجة إليّ. هل

اقتنعت يا صديقي الآن؟

بوريين : نعم.

نابليون : فإياك ثم إياك أن يعلم بهذا السر أحد.

(ينهض كأنه يتذكر شيئاً فيصالح هندامه ويسوي شعره)

فينطلق نحو داخل البيت حيث يغيب لحظة)

(يخرج بوريين)

(تظهر بولين)

بوريين : لا شأن لي. إنها زوجته. (يتغير وجهها) لكن في بيتي وعلى

مشهد مني.

(تظهر زينب وقد انحل شعرها وظهرت عليها آثار

المقاومة خلقها نابليون كأنه يستعطفها)

زينب (في حدة وغضب) اسمع. إياك أن تقترب مني وإلا صرخت

في الشارق وجمعت الناس عليك.

نابليون : أنت زوجتي يا زينب بمقتضى الشرع الشريف.

زينب : ولكنك تريدني خلية لك.

نابليون : الخلية لا يعتقد لها على كتاب الله وسنة رسوله.

زينب : ولكنك لا تريد أن تعتبرني زوجة.

نابليون : هذا غير صحيح. من أين جاءتك هذه الفكرة.

زينب : نفذ إذن ما تعهدت به.

نابليون	: فيما بعد يا زينب.
زينب	: عقب حملة الشام. على هذا كان الاتفاق.
نابليون	: لكن الحملة لم تنجح.
زينب	: لا شأن لي بذلك.
نابليون	: كنت أريد أن أجعلك سلطانة.
زينب	: عجزت عن ذلك فلا تعجز أن تجعلني زوجة.
نابليون	: أنت زوجتي بالفعل.
زينب	: كلا.. يجب أن يعرف الناس هذه الحقيقة.
نابليون	: لا بأس قولي للجميع أنك زوجتي.
زينب	: لن يصدقني أحد. سيظنون في الظنون.
نابليون	: أريهم حينئذ قسيمة الزواج.
زينب	: تلك مذلة لا أقبلها لنفسى. إعلان الزواج هو الاحتفال به.
نابليون	: لا تكلفيني ما لا طاقة لي به.
زينب	: أنت تحسبينه هينا وهو عندي عظيم.
زينب	: تخشى من زوجتك التي في باريس؟
نابليون	: بل أخشى من خصومي هنا.
زينب	: ماذا عساهم أن يصنعوا؟
نابليون	: سيستغلون ذلك في التشهير بي وتشويه سمعتي الأدبية.
زينب	: يا لك من أناني. تخشى على سمعتك هناك ولا تخشى على

- سمعتي هنا؟
- بولين : أجل. لا حق لك إن سمعة المرأة أولى بالرعاية من سمعة الرجل.
- نابليون : اسكتي أنت.
- بولين : تذكر أنها من بيت عريق وأن والدها من أكبر المخلصين لك.
- نابليون : لا شأن لك بما بيئي وبينه. سأعرف كيف أرضيه.
- بولين : أرض ابنته أولاً فهي صاحبة الشأن.
- نابليون : قلت لك اهتمي بشأنك.
- بولين : كان عليك أن تحفظ لها كرامتها وسمعتها حتى ولو لم يشترطوا ذلك عليك. فكيف وقد اشترطوه وتعهدت لهم به؟
- نابليون : هذا ليس من شأنك.
- بولين : تلميذتي وصديقتي وكنت أنا السبب فيما وقع لها منك.
- نابليون : لا تصدقها يا زينب فهي لا تيد الخير لك.
- بولين : كيف لا أريد الخير لها وأنا أطلبك بأن تعطها حقها؟
- نابليون : بل لك غرض آخر يا خبيثة.
- بولين : من مصلحتها هي أيضا أن يتحقق الغرض الذي تشير إليه.
- نابليون : زينب، إنها تريد أن يخلو لها الجو إذا طلقتهما أنت وجوزيفين.

زینب	: أنا لا شأن لي بجوزيفين.
نابليون	: وطلاقك أنت ألا يعينك أمره.
زینب	: يوم المني عندي يوم أحصل على الطلاق منك.
نابليون	: ألا تحبينني يا زینب؟
زینب	: ماذا أحب فيك؟
نابليون	: فكيف فيك أن تزوجتني؟
زینب	: لأنك خدعتني ومنيتني الأمان.
نابليون	: كلا ما خدعتك. لقد كنت حقا أريد أن أجعلك سلطانة.
زینب	: بل اتخذتني العوبة.
نابليون	: كلا والله.
زینب	: كما أردت أن تتخذ الإسلام العوبة.
نابليون	: أنت أيضا تلوميني في ذلك كالفرنسيين.
زینب	: (تبكي) أنا التي أستاهل. كان ينبغي ألا أصدقك ولو أسلمت مائة مرة، ولو أحييت لي جدك العاشر الذي زعمت أنه شريف عربي من جزيرة صقلية.
	(تنظر بولين إلى نابليون في ضحك مكتوم)
بولين	: عربي من صقلية؟
زینب	: نعم، من الذين فروا منها عند سقوط حكم العرب.
	(يدخل بورين)

بورين	: معذرة، السيد خليل البكري والسيدة زوجته.
بولين	: أهلا وسهلا. (تنطلق لاستقبالهما) (يدخل خليل وأم زينب)
نابليون	: مرحبا بكما. تفضلي يا سيدتي. تفضل يا سيد خليل.
زينب	: ماذا جاء بكما؟
أم زينب	: من أجلك يا بنتي. نريد أن نحل مشكلتك.
خليل	: علمنا أنك هنا فحضرنا.
زينب	: مشكلتي لا يحلها غيري وغيره.
خليل	: لعلنا نستطيع يا بنتي أن نصنع شيئا.
أم زينب	: يا سيد بونا برته إن كنت لا تريدها فطلقها بإحسان.
نابليون	: أنا أريدها يا سيدتي ولكنها هي التي لا تريدني.
أم زينب	: لأنك لم تشأ أن تحتفل بالزواج كما وعدت.
نابليون	: أنا قلت لها فيما بعد.
أم زينب	: يا سيد بونا برته إن سمعته لا تحتفل الانتظار. ولقد وثقنا بعهدك فلا ينبغي أن تنقض عهدك.
نابليون	: الظروف يا سيدتي لا تسمع الآن.
خليل	: إن كنت تعني التكاليف فجعلها كلها عليّ.
نابليون	: كلا يا سيد خليل. موانع أكبر من ذلك.
خليل	: أي موانع؟

- نابليون : من السياسة العليا لا يجوز لي أن أبوح بها.
- زينب : لا تصدقوا ه من امرأته التي في بريس والتي تخونه هناك.
- خليل : صه يا زينب.
- زينب : هذه هي الحقيقة. كل الناس تعرف ذلك.
- أم زينب : هل لك يا سيدي أن تسدى إلينا معروفا فتطلقتمها؟
- نابليون : إن كان هذا هو مرادكم فليكن.
- أم زينب : شكرا يا سيدي.
- زينب : لعلك تريد أن تطلقني في السر كما تزوجتني في السر؟
- نابليون : نعم.
- زينب : كلا. لا بد من الاحتفال بالزواج أولا ثم الطلاق.
- نابليون : هذا يدل على أنك غير صادقة الرغبة في الطلاق.
- زينب : (في لهجة ساخرة) لعلك تظني متيمة بحبك؟ أليس كذلك؟
- نابليون : ربما.
- زينب : كلا... يجب أن تعلم اليوم أن حبك لم يلامس قلبي قط.
- أم زينب : زينب.
- زينب : دعيني أكشف له الحقيقة.
- أم زينب : معذرة يا سيدي. هذا من دلالها عليك.
- زينب : كلا. هذا هو الحق الذي لا ريب فيه.
- نابليون : أنا ما أكرهتك على الزواج. لم إذن تزوجتني؟

- زينب : لأنك خدعتني بمعسول كلامك وملأت رأسي بتلك الأحلام  
الوردية التي زعمت أنك قادر على تحقيقها. العرب يا زينب  
أولى بالخلافة من الترك. دار الخلافة يجب أن تكون في  
القاهرة لا في اسطنبول. سأعيد وحدة الأمة العربية التي  
مزقها الأتراك والمماليك. سأحيي روح الجندية في هذا  
الشعب من جديد. وسأبني على ضفاف النيل دولة عربية  
كبرى يخضع لها الشرق كله. إلى آخر تلك الأوهام.
- نابليون : هذه ليست بأوهام يا زينب. بل حقائق تعيش في نفسي  
حتى الآن. ولم يكن تحقيقها أصعب عندي من قيامنا بهذه  
الحملة التي فتحنا بها مصر، غير أن الأقدار لم تأذن  
بتحقيقها في هذه المرة.
- زينب : أتريد أن تقول إنك تطمع في تحقيقها مرة أخرى؟
- نابليون : بغير شك.
- زينب : تعاود الحملة على الشام؟
- نابليون : كلا سوف أحققها المرة القادمة من طريق الغرب.
- زينب : من طريق الغرب؟ كيف.
- نابليون : سأقوم بإخضاع أوروبا أولا ثم أتوجه إلى آسيا من طريق  
اسطنبول فالأناضول فالشام، فأقيم فيها تلك الدولة العربية  
الكبرى.

- زينب : منذا يصدق هذا الكلام؟ هذه أحلام جديدة أوسع من الأولى وأمعن في الخيال والوهم.
- نابليون : سترين غدا أنها أقرب مما تتصورين. وستندمين يؤمئذ وتتحسرين.
- زينب : كلا لا تحاول أن تخدعني مرة أخرى.
- أم نابليون : سيدي أراك راغبا بعد في زينب.
- نابليون : نعم.
- أم زينب : فلم تحبها إلى ما تريد؟ إنه يسير عليك.
- نابليون : كلا يا سيدتي ليس بيسير.
- زينب : سبحان الله! يزعم أنه يستطيع أن يفتح الغرب والشرق ثم لا يستطيع أن يحتفل بزواجه.
- أم زينب : إذن فليس أمامنا غير الطلاق.
- نابليون : إن لم يكن منه بد فليكن.
- زينب : الاحتفال بالزواج أولا ثم الطلاق.
- نابليون : رأيتم تعنتها وعنادها؟
- أم زينب : لا بأس إذن يا بنتي.
- زينب : إنه يريد أن يذلني يا أماه، ولا والله لا أذل له أبدا.
- أم زينب : اسمعي يا بنتي...سنزوجهل معي الدين ابن عمك.
- زينب : بعد كل الذي حدث؟ ما ذنبه؟

أم زينب	: إنه يريدك.
خليل	: أجل يا زينب لقد كلمني في ذلك.
زينب	: شفقة عليّ ليسترني. أنا لا أريد شفقة من أحد.
أم زينب	: كلا يا بنتي. إنه ما زال يحبك ويرغب فيك.
زينب	: كلا أنا لا أرضي له ذلك ولا لنفسي.
خليل	: يا إلهي ماذا نصنع الآن؟
زينب	: كل منا يتحمل تبعه عمله.
خليل	: سامحيني يا بنتي...
زينب	: كلا ليس ذنبك يا أبي..أنت ما أكرهتني على شيء.
أم زينب	: ذنبي أنا إذ شجعتك.
زينب	: كلا يا أمي ولا ذنب أنت. إنه ذنبه هو إذ خدعني وذنبي أنا إذا انخدعت.
	(تهض بقوة وتنتبذ ناحية فتتهال على بطنها ضربا بكلتا يديها وبكل قوتها)
الجميع	: (في دهش وارتياح) زينب. ماذا تصنعين يا زينب؟
زينب	: (تمضي في الضرب) هذا جزائي وجزاؤه. (يحاولون أن يمنعوها فتحيد عنهم) دعوني. دعوني. لا شأن لكم.
أم زينب	: حرام عليك يا زينب.
زينب	: الحرام أن يبقى في بطني.

- أم زينب : ما ذنبه يا زينب؟ ما ذنب الجنين المسكين؟  
زينب : ذنبه أنه دخيل ابن دخيل.  
نابليون : (يدرك الحقيقة) انتظري يا زينب.  
زينب : ابتعد عني (تمضي في الضرب الشديد)  
نابليون : لماذا لم تخبريني؟  
زينب : هأنذا أخبرتك بموته.  
(ثم ترتمي على أمها وأبيها وهي تتمتم باكية)  
مات الدخيل... مات الدخيل..  
(ستار)

### الفصل الثالث

"في ملهى التيفولي"

المنظر : جانب من التراس المحيط بالملهى في الحديقة.  
في صدر المسرح باب كبير هو باب الملهى حيث البار والمرقص وصلات البلياردو  
وغيرها.

موائد منتثرة على الجانب المرئي من التراس.  
الوقت : بعد العصر عند الأصيل.

(يرفع الستار وشمس يوليه لا تزال ترسل بقايا أشعتها اللافحة على التراس  
فالموائد خالية بعد إذ الذي يحضر من الرواد يؤثر الدخول في مبنى الملهى  
ليجلس في المشرب أو يزاول بعض الألعاب.

يظهر شاب وسيم يتلفت حوله كأنه يبحث عن شخص معين. يخرج له من  
باب الملهى جرسون نوبى في هندام حسن)

الجرسون : أي خدمة يا سيدي؟

الشاب : الست زينب موجودة؟

الجرسون : زينب من؟

الشاب : زينب .. زينب خليل.

الجرسون : آه. التي تسي نفسها مدام بونابرت؟

الشاب : تمام. (يضع في يده بعض النقود)

الجرسون : موجودة .. تفضل يا بيه. هذه المائدة محجوزة لها (يشير إلى

إحدى الموائد)

الشاب : محجوزة لها ؟

الجرسون : أقول لها من يا بيه ؟

الشاب : محي الدين.

(تظهر زينب من الباب)

زينب : محي الدين.

محي الدين : زينب.

زينب : (تصافحه بحرارة) ماذا جاء بك هنا ؟

محي الدين : لأراك يا بنت عمي وأطمئن عليك.

زينب : (تتأثر من كلامه) اجلس قليلا محي. (يجلسان) لبست هذا

الطربوش لئلا يعرفك أحد ؟

محي الدين : من أجلك أنت يا زينب.

زينب : فيك خير يا محي. أنت الذي فهم.

محي الدين : الجميع يحبونك يا زينب.

زينب : معذورون. أصبحت عارا عليهم.

محي الدين : أنت أيضا معذورة.

زينب : من قلبك يا محي الدين ؟

محي الدين : الله يشهد.

زينب	: الحمد لله. كلمتك هذه بالدنيا عندي.
معي الدين	: أليس لي يا زينب أم أطمع منك في كلمة مثلها؟
زينب	: ما حاجتك إليها يا معي الدين وأنت طاهر كماء المطر؟
معي الدين	: لأني أعيش كأن ذنوب البشر كلها على ظهري.
زينب	: لم يا ابن عجي؟
معي الدين	: لأني ليس لي مكان في قلبك.
زينب	: أنت إذن لا تعرف قلبي.
معي الدين	: أنا أعرف أنني لست فيه ولا أمل لي أن أكون فيه.
زينب	: بالعكس يا معي الدين... ليس فيه غيرك. وهذا سر مأساتي.
معي الدين	: سر مأساتك أنني في قلبك؟
زينب	: وألا سبيل لي إليك.
معي الدين	: ذلك فيما مضى.
زينب	: وإلى الآن وأخشى أن أقول إلى الأبد.
معي الدين	: قد زال المانع يا زينب.
زينب	: وحدث مانع جديد أقوى من الأول.
معي الدين	: أنت التي خلقتة لنفسك.
زينب	: أتظن حقا أنه كان باختيارى؟
معي الدين	: لو رضيت بالزواج مني بعد طلاقك منه.
زينب	: لكنك سترت علي وأنا لا أحتمل هذه المنة من أحد.

معي الدين	: أنا لا كنت لآمنها عليك.
زينب	: إذن تكون المنة أكبر وأثقل.
معي الدين	: يا إلهي.
زينب	: ولكنك سترت عليه هو أيضا. وأنا أريد أن أنتقم منه أفضحه.
معي الدين	: إنك تنتقمين منه في نفسك فكأنما تنتقمين من نفسك.
زينب	: ما كان لي سبيل غير ذلك. أردت أن أقتل إبنه فقتلت ابني. ثم أردت أن أهتك عرضه فهتكت عرضي.
معي الدين	: إذن فما كان ينبغي أن تنتقي ألبته.
زينب	: وهل كنت أحتمل أن أربي ولده والناس تحسبني خليلته؟
معي الدين	: بلغني أنه لو عرف أنك حامل لرضي أن يحتفل بزواجك.
زينب	: نعم وما كنت حينئذ لأقبل.
معي الدين	: لماذا؟
زينب	: لست أقبل أن يهينني لذاتي ثم يكرمني من أجل غيري.
معي الدين	: من أجل ولدك يا زينب.
زينب	: بل من أجل ذاته هو.
معي الدين	: الذي سمعته عنه يا زينب أنه كان يعزك ويقدرك.
زينب	: كما يحترم الإسلام ويقدره بلسانه دون عمله.
معي الدين	: لعل له عذرا وأنت تلومين.
زينب	: أي عذر؟

- محي الدين : الناس في بلده لا يقبلون تعدد الزوجات. ورجال جيشه لا يقبلون الإسلام.
- زينب : أراك تدافع عنه كأنما هو الذي بعثك.
- محي الدين : كلا، ولكني أقول ما أعتقد.
- زينب : كأنك تحب أن أعود إليه؟
- محي الدين : خيرا مما أنت فيه.
- زينب : إنما الخير والشر يا محي الدين لمن يملك التمييز بينهما، أما أنا فقد اختلطا عندي.
- محي الدين : من عنادك يا زينب وكبرياتك.
- زينب : وهل بقي عندي شيء غير عنادي وكبريائي؟
- محي الدين : زينب إن الناس لا يعرفونك اليوم على حقيقتك.
- زينب : وما شأنني والناس؟
- محي الدين : لكنك بالأمس كنت تخافين أن يظنوك خليلته.
- زينب : ذاك من فعله هو أما هذا فمن فعلي.
- محي الدين : لست أدري يا زينب من أين أمسك؟
- زينب : حذار فأنا كالغريق لا تستطيع أن تنقذني وأستطيع أن أغوص بك.
- محي الدين : فلتغوصي بي إلى الأعماق عسى أن نطفو معا ذات يوم.
- زينب : ماذا تعني يا ابن عمي؟

- معي الدين : أنت تستشيرين غيرته بهذا الذي اسمه بوهارنيه.
- زينب : نعم وأذل كبرياءه وأمرغها في التراب.
- معي الدين : فاجعليني أنا مكان بوهارنيه.
- زينب : كلا يا ابن عمي أنت أكرم من ذلك.
- معي الدين : بحياة عينيك يا زينب.
- زينب : ثم إنك لا تصلح لهذا الغرض فلن يغار منك كما يغار من بوهارنيه ابن زوجته.
- معي الدين : إبن زوجته؟
- زينب : نعم، تصور هذا الشاب هو ابنها فكم يكون سنها الآن؟
- عجوز حيزبون. درديس. ومع ذلك تخونه. ومع من؟ مع فتى في سن ابنها. ومع ذلك يحبها هذا الديوث. ويخشى أن أن يغضبها على البعد.
- معي الدين : زينب. إنك تحبينه.
- زينب : كلا.
- معي الدين : أراك تتحسرين عليه.
- زينب : بل على نفسي وعلى أمانى الكاذبة وعلى ما ضاع من كرامتي وكرامة أهلي وكرامة بلدي وقومي. (تبكي)
- معي الدين : (متأثرا) زينب. ما جئت لأثير شجونك بل لأسرى عنك.
- زينب : فانصرف في أمان الله. لا يروني أبكي فيشمتوا بي.

- محي الدين : (يخرج كيسا من جيبه) خذي يا بنت عمي.
- زينب : ما هذا؟ كيس ذهب؟ من قال لك إنني.....؟
- محي الدين : على سبيل القرض يا زينب. لعلك تحتاجين إليه وعندني المزيد.
- زينب : شكرا. عندي ما يكفيني.
- محي الدين : من أين؟
- زينب : (محتدة) من أين؟ من فلوسي التي عند جدتي خديجة في الجودية. إياك أن تظنني أقبل شيئا من هؤلاء الكلاب.
- محي الدين : لا يا زينب. أردت فقط أن أستوثق أن عندك ما يكفيك (ينهض) على كل حال إذا احتجت إلى أي عون فعندك محي الدين ابن عمك.
- زينب : (تصافحه مودعة) شكرا يا ابن عمي. في أمان الله.
- (يخرج محي الدين)
- (يظهر المسيو دارجفيل مدير الملهى من الناحية المقابلة)
- زينب : (تجلد وتواجهه متحدية) كنت تتسمع إلى حديثنا يا مسيو دارجفيل؟
- دارجفيل : كلا يا مدام بونابارت أنا كنت بعيدا هناك عند كشك الموسيقى. من هذا الذي كان عندك؟
- زينب : كنت ترقبنا؟

دار جفيل : نعم، من واجبي أن أعرف رواد المحل ولاسيما الليلة ليلة الأحد كما تعلمين.

زينب : خوفا على حياة صاحبك.

دار جفيل : حرصا على راحة كل واحد. من هو من فضلك؟ لا تخافي.. السر محفوظ عندي كما تعلمين.

زينب : ابن عمي.

دار جفيل : ها.. ابن عمك. قد قلت لنفسني هذا شاب محترم وليس من أولئك الذين يثيرون الشغب. انظري. ذاك الكونت بوهارنيه. أراهن أنه جاء من أجلك.

(يخرج)

(يدخل بوهارنيه)

بوهارنيه : بونسوار مودموازيل بكري.

زينب : مدام بونابرت من فضلك.

بوهارنيه : بونسوار مدام بونابرت (يجلسان)

زينب : هيه.. اتصلت بالمسيو فوريه؟

بوهارنيه : نعم واتفقت معه على كل شيء.

زينب : واعطيته المبلغ؟

بوهارنيه : واعطيته المبلغ ففرح كثيرا وسقاني كأسا على حسابه.

زينب : جئت به إلى الخمارة التي بجوار الحديقة؟

بوهارنيه	: نعم هناك سقاني الكأس.
زينب	: وفهمته متى يدخل.
بوهارنيه	: بعدما يسمع نشيد المارسيين.
زينب	: عال عال. أنت عظيم يا كونت بوهارنيه.
بوهارنيه	: شكرا يا مدموازيل بكري.
زينب	: مدام بونابرت.
بوهارنيه	: مدام بونابرت. آسف. دائما أنسى اسم هذا الرجل.
زينب	: (مداعبة) لا بد أنك تحبه كثيرا يا بوهارنيه كما تحبه أمك.
بوهارنيه	: (في جد) اسمعي يا زينب. إذا أردت أن نبقي أصدقاء فلا تتعرضي لسيرة أمي.
زينب	: أنا لم أقم إلا خيرا.
بوهارنيه	: لا بخير ولا بشر.
زينب	: اتفقنا يا بوهارنيه. يكفي أنها زوجة بونابرت.
بوهارنيه	: كلا يا زينب... العني بونابرت كما تشائين لا اعتراض لي على ذلك فهو يستحق.
زينب	: (ساخرة) لكن لماذا تحبه كل هذا الحب؟
بوهارنيه	: تقصدين لماذا أكرهه كل هذا الكره؟ لأنه أفسد حياة أمي.
زينب	: تذكر. أنت الذي تعرضت لسيرتها الآن.
بوهارنيه	: أوه... اسمعي يا زينب. ما من امرأة اتصل بها إلا أفسد حياتها.

هو السبب في فساد أمي- صدقيني- ما كانت كذلك من قبل.

كانت عفيفة صالحة تتردد على الكنيسة كل يوم.

زينب : هيه...

بوهارنيه : أنا قلت له كثيرا اصحب أمي معك إلى مصر. لا تتركها وحدها

في باريس. أنت لا تعرفين باريس يا زينب. مدينة المغريات. ولا

تستطيع المرأة الوحيدة فيها أن تسلم من هذا الإغراء أو

ذاك.

زينب : هيه...

بوهارنيه : وهل تعلمين أنه عين عليها جواسيس من أقربائه. ينقلون

إليه أخبارها بالكذب؟ إنها في الأربعين الآن فتصوري ماذا

يقولون عنها؟ قالوا إنها تدلتهت بحب شاب في مثل سني أو

أصغر. يريد أن يشوه سمعة أمي بكل سبيل ومع ذلك يزعم

أنه يحبها.

زينب : (تمهره) أوه بدأت في سيرة أمك ولن تنتهي.

بوهارنيه : إنها مظلومة يا زينب. مسكينة.

زينب : خض بنا في حديث آخر.

بوهارنيه : لماذا؟

زينب : يجب أن يراك معي وأنت مرح بشوش لا كئيب حزين.

بوهارنيه : إنه لم يحضر بعد.

- زينب : منتظر حضوره في كل لحظة.  
(يحضر لهما الجرسون النوبي زجاجة البرندي فيتساقيان)
- زينب : نسيت أن أخبرك أنني حجزت للمسيو فوريه تلك المائدة.  
(تشير إلى المائدة رقم ٢)
- بوهارنيه : المجاورة لمائدة بونايرت؟  
زينب : نعم...وشوش هذا الجرسون النوبي.  
(يضحكان)
- (تدخل جاكلين وفرانسواز وزوجاهما الضابطان فيجلسون على المائدة المجاورة)  
(المرأتان تنظران إلى زينب بوهارنيه وتتغامزان بينما استغرق الضابطان في حديث خاص)
- جاكلين : ما رأيك فيها؟  
فرانسواز : لا بأس بها.  
جاكلين : لا تظلميها يا فرانسواز. أليست أجمل من مدام فوريه؟  
فرانسواز : لا يا جاكلين. مدام فوريه أجمل. لو لم يكن لها غير شعرها الطويل الرائع.  
جاكلين : ليس فيها غير شعرها. لكن انظري إلى هذه. انظري إلى عينيها.  
فرانسواز : ليستا أجمل من عيني مدام فوريه.

- جاكسين : كلا أنت متحيزة ضد السمر.
- فرانسواز : وأنت متحيزة ضد الشقر.
- جاكسين : لكن يا فرانسواز لماذا نظري جمالها ونسب جمالنا نحن؟
- فرانسواز : لأن القائد الكبير لم يستطع أن يرى ما فينا من الفتنة.
- جاكسين : لعلنا لم نحسن كيف نغازله.
- فرانسواز : أنت يا جاكسين التي أياستنا منه. قلت إنه لا أرب له في النساء.
- جاكسين : لقد تبين اليوم أنه يريد حقا أن يكون مثل يوليوس قيصر.
- (يحضر الجرسون الشراب لهم فينقطع حديثهم ويشربون)
- زوج جاكسين : لقد شغلنا عنكما. فيم كنتمما تتحدثان؟
- زوج فرانسواز : عن يوليوس قيصر أظن. سمعتكما تذكرا يوليوس قيصر.
- فرانسواز : كنا نتحدث عن بونابرت.
- جاكسين : (مستدركة) وعن هذه البنت المصرية التي يقال إنه أحبها أو تزوجها أو اتخذها خلية. الأقوال متضاربة ولا أحد يعلم الحقيقة.
- فرانسواز : وعن تلك العشيقة الأولى التي تركت زوجها وراحت له.
- زوج فرانسواز : مدام فوريه.
- فرانسواز : نعم.
- زوج جاكسين : لا حديث لكما إلا عن بونابرت ومغامراته الغرامية.
- زوج فرانسواز : شأن النساء جميعا. لا يلذ لهن غير هذا الحديث.

- جاكلين : كلاً لسنا كسائر النساء في ذلك. كانت لنا معه تجربة خاصة.
- الزوجان : تجربة خاصة؟ مع بونابرت؟
- فرانسواز : نعم... احكمها أنت يا جاكلين.
- جاكلين : أنا خجلانة.
- فرانسواز : وأنا أيضا خجلانة.
- الزوجان : احكيا.....ماذا حدث؟ يجب أن نعلم كل شيء.
- جاكلين : اطمئنا....واحمداً ربكما. الذي خطر ببالكما لم يقع.
- الزوجان : فماذا وقع؟ احكيا.
- جاكلين : أراد ذات يوم وأنتما غائبان في بعض عمليات الأقاليم أن يغازلنا أنا وفرانسواز فقلنا له هيهات. ترسل أزواجنا إلى ميدان القتال لتغازلنا في غيبتهم؟
- فرانسواز : لعله كان يريد أن يتخذنا خليلتين له إحداها شقراء والأخرى سمراء كما فعل مع مدام فوريه وهذه البنت المصرية.
- جاكلين : لكن من حسن حظكما أنكما تزوجتما امرأتين عاملتين.
- فرانسواز : صالحتين مستقيمتين.
- جاكلين : ضحنا في سبيلكما بكل شيء.
- فرانسواز : بالجاه والسلطان.
- جاكلين : والعظمة والشهرة.

(تصيح الموسيقى بلحن المارسييز ويدخل دارجفيل كأنه  
يوسع الطريق ثم يدخل نابليون ومعه بولين فيعبران  
المسرح من الشمال إلى اليمين والعيون تتطلع إليهما حتى  
يجلسا على المائدة رقم ١)

(يرتكز الضوء على المائدة رقم ٣)

زينب : إنه ينظر إلينا. افعل شيئاً يا بوهارينه.

بوهارنيه : ماذا أفعل؟

زينب : قبلي. كلا. ليس الآن....

بوهارنيه : متى؟

زينب : بعد قليل حتى لا يشعر أنها مفتعلة.

(ينتقل الضوء إلى المائدة رقم ١)

(الجرسون ينصرف عنها بعد أن وضع عليها زجاجة

البرندي والأقداح)

بولين : عينك لا تتحولان عنها ماذا تريد منها بعد؟

نابليون : هذا الشاب الوقح. ألا ترين ماذا يصنع؟

بولين : أتغار من هذا الولد التافه؟

نابليون : التافه. لعلك أنت يا بولين التي تغارين عليه.

بولين : هذا شيء مضحك.

نابليون : مضحك؟

- بولين : جدا. هيه. لأنك رأيتني ذات يوم أتودد إليه؟ إنما كنت أريد فقط أن أستثير غيرتك حتى لا يفتر حيك لي. هأنذا اعترفت لك بسري اليوم.
- نابليون : لعل هذا هو سرها أيضا فيما تفعله الآن.
- بولين : كلا...أنا كنت أحبك أما هي فتنقم منك.
- نابليون : تنقم مني لأنها لا تزال تحبني.
- بولين : تحبك أو لا تحبك ما شأني؟
- نابليون : أنت كنت السبب يا بولين.
- بولين : كنت السبب في ماذا؟
- نابليون : في كل ما حدث. أخفيت عني ذلك اليوم أنها حامل. لن أغفرها كل أبدا.
- بولين : قلت لك إنني ما كنت أعلم. لم تخبرني.
- بولين : غير معقول. كانت تخبرك بكل شيء.
- بولين : إلا هذا الحمل. أخفته عني.
- نابليون : حتى لو أخفته عنك. لا يمكن أن يخفي عليك.... في الشهر السادس.
- بولين : فكيف خفي عليك أنت؟
- نابليون : أنا لست امرأة.
- بولين : لا تلق اللوم عليّ. عد إليهما إن شئت.

نابليون	: الآن. فات الأوان.
بولين	: كلا ما فات الأوان.
نابليون	: لن ترضى.
بولين	: احتفل بزواجها كما طلبت منك.
نابليون	: لا أستطيع.
بولين	: ماذا يمنعك. هيه لا بد أنك تعترم أمرا تكتمه عن الجميع.
نابليون	: أي أمر؟
بولين	: الرحيل فجأة.
نابليون	: إلى أين؟
بولين	: إلى فرنسا.
نابليون	: صه. إياك أن تتحدثي قبل هذا لأحد.
بولين	: هذا إذن صحيح؟
نابليون	: كلا ولكن مثل هذه الوشاية إذا انتشرت في الناس فسيكون لها أثر خطير على مركزنا في هذه البلاد وربما تندلع الثورات علينا من كل ماكان.
	(يدخل فوريه أشعت أغبر في هيئة سيئة وخلفه دارجفيل كأنه يحاول أنه يمنعه)
دارجفيل	: مسيو فوريه... مسيو فوريه.
فوريه	: ماذا تريد؟

- دارجفيل : أين تريد أن تجلس؟
- فوريه : ما شأنك؟ سأجلس أينما يعجبني (ينظر إلى زينب فتومئ له
- إلى المائدة رقم ٢)
- دارجفيل : تعال معي... سأجلسك في مكان ممتاز.
- فوريه : كلا سأجلس في تلك المائدة (يشير إلى المائدة رقم ٢ القريبة
- من مائدة نابليون)
- دارجفيل : يجب أن تطيعني يا مسيو فوريه.
- فوريه : أطيعك أنت؟ من تكون؟
- دارجفيل : أنا المدير العام لحديقة تيفولي.
- فوريه : (يتفلل احتقارا) وأنا قد اشتريتك يا مدير عام حديقة تيفولي.
- دارجفيل : اشتريتي؟
- فوريه : بهذه التذكرة (يستقر بصره على نابليون وبولين) أجل بهذه
- التذكرة اشتريت حديقة تيفولي كلها وهذا الملهى بما فيه
- وبمن فيه من رجال خائنين وغير خائنين ونساء خائنات وغير
- خائنات. (يجلس إلى المائدة)
- دارجفيل : قم من هنا.
- فوريه : هيه. أتريد أن أشتريك مرة ثانية؟
- (يتضحك الحاضرون من كل جانب وهم يتطلعون إلى
- ما يدور)

---

دارجفيل	: هذه المائدة محجوزة.
فوريه	: محجوزة لمن؟ لمدام فوريه؟
(يتجاوب المكان بالضحك)	
نابليون	: (مناديا) ميسو دارجفيل.
دارجفيل	: نعم يا سيدي الجنرال.
نابليون	: اترك المسيو فوريه في مأذنته.
دارجفيل	: يا سيدي إنه غل.
نابليون	: هذا أمر.
دارجفيل	: مطاع يا سيدي (ينسحب).
فوريه	: كرم كبير يا سيدي القائد العام. الملازم فوريه يشكرك من صميم القلب.
نابليون	: عفوا يا مسيو فوريه. هذا واجب.
فوريه	: لكن لماذا لا تكمل جميلك مع مسيو فوريه؟
نابليون	: ماذا يريد مسيو فوريه؟
فوريه	: تعيد إليه مدام فوريه.
(يضج المكان بالضحك والهمهمة)	
(بولين تحاول القيام للانصراف فيمنعها نابليون)	
(دارجفيل يعود إلى فوريه ومعه عدد من حرس الملهى)	
دارجفيل	: أنت تخل بالنظام. يجب طردك.

---

- فوريه : دعوني. لن أخل بالنظام مرة أخرى. سأترك لكم هذا العالم كله. سأخذ تعسيلة. (يضع رأسه بين ذراعيه على المائدة)
- لعلي أن أحلم بها في المنام. (يسكن وينام)
- (موسيقى الرقص كانت تسمع خافتة من داخل الملهى)
- زينب : (منتشية من نجاح الدور الذي قام به فوريه) هلم يا بوهارنيه نرقص (تهض)
- بوهارنيه : هلم. (يرقصان في وسط التراس)
- (نابليون ينظر إليهما في إعجاب وغيظ)
- (بولين تنسل من جانبه فتدنو من أحد الجنود الواقفين في طرف التراس فتساره بحديث طويل وتومئ له خفية إلى زينب ثم يخرج الجندي منطلقا وتعود بولين إلى مكاتها)
- (ينتهي الرقص ويعود بوهارنيه وزينب إلى مائدتهما)
- نابليون : لماذا قمت إلى ذلك الجندي؟
- بولين : هل رأيتني؟ لقد كنت مشغولا برقصها مع بوهارنيه.
- نابليون : ماذا طلبت من ذلك الجندي؟
- بولين : سترى الآن.
- نابليون : بخصوص زينب؟
- بولين : نعم أتخاف عليها أنت؟
- نابليون : أخاف على سمعتي وأبوها من أصدقائي.

بولين	: أعجبك ما فعلته الليلة إذ سلطت علينا فوريه؟
نابليون	: ربما كان هذا من بورهانيه.
بولين	: منها من بورهانيه. هما الآن شيء واحد.
نابليون	: بولين. يجب أن نسيطر على أعصابنا حتى لا يفلت منا زمام الأمر.
بولين	: لا تخف. أنا مسيطرة على أعصابي.
	(يعود الجندي ومعه ثلاث نسوة بيدوواضحاً من مظهرهن أنهن من محترفات البغاء. يومئ لهن خفية إلى زينب فيتقدمن من نحو مائدتها فتجلس اثنتان على الكرسيين الخاليتين في المائدة وتبقى الثالثة واقفة)
الأولى	: (لزينب) مساء النور يا طبق بنور يا بدر البذور.
الثانية	: يا سلام على جمالها وعلى كمالها.
الثالثة	: صلاة النبي... صلاة النبي أحسن.
	(يتأفف بوهارنيه من سوقيتهن ولكن زينب وتومئ له أن يتجلد)
زينب	: تلزم خدمة يا هوانم؟
الأولى	: هوانم. أصبحنا هوانم. يا هوانم.
الثانية	: الأدب زينة يا عنابة.
الثالثة	: والنسب والحسب.

زينب	: لا بد حصل خطأ في العنوان.
الأولى	: العنوان مضبوط يا أختي. المائدة رقم ٣.
الثانية	: والقمر. لا أحد يخطئ القمر.
	(تشير إلى بورهانيه)
الثالثة	: بطة. لا تسرق الخواجة من أختك. عيب.
الثانية	: صحيح. نحن الآن أخوات. غاب عن بالي.
الأولى	: أخوات من أين وهي هكذا ألا فرنكه؟
الثالثة	: شيلي التوب الذي عليها تجديها مثلنا بنت عرب.
زينب	: من غير شيل ولا حك يا أخواني أنا بنت عرب مثلكن تماما.
	جمعنا الحظ العاثر ورمانا بين هؤلاء الخواجات. والله يتوب علينا وعلى أمثالنا من الضائعات.
	(ينظر بعضهن إلى بعض مدهوشات مما سمعن من زينب)
الأولى	: كلامك يا أختي مثل الشهد. لكنك لست مثلنا. أنت من بيت عريق أصيل.
زينب	: يا عنابة يا أختي..
الأولى	: وتعرف اسمعي يا بنات. يا حلاوتها.
زينب	: الإنسان يا عنابه بعمله لا بحسبه ولا بنسبه.
	(يزداد عجبهن وحيرتهن لا يدرين ماذا يصنعن)

---

الثانية	: لا مؤاخذة.. ما اسمك يا شابة؟
زينب	: زينب.
الثانية	: وأبوك.
زينب	: خليل.
الثالثة	: خليل من؟
زينب	: خليل البكري نقيب الأشراف اليوم.
الأولى	: يا عيني عليها. قالت لنا كل حاجة.
الثانية	: لا عابت فينا.
الثالثة	: ولا ردت علينا بكلمة جارحة.
الأولى	: يا حبيبي يا زينب.
الثانية	: يا قمورة. يا بنت الأكاير.
الأولى	: (في لوعة وحرقة) لم يا رب؟
الثالثة	: لم حكمت عليها بما حكمت علينا.
الثانية	: أليس فينا نحن الكفاية؟
زينب	: (تمسح بمنديلها دموعهن) يا أخواتي لا تعترضن على الله.
	ادعونه لنا. بالتوبة والمغفرة.
الأولى	: قولي لنا يا شابة هذا العسكري العليج الذي سلطنا عليك
	ما ذا بينك وبينه؟
	(تشير إلى العسكري فيهرب العسكري)

---

---

زينب	: هو لا ذنب له... هو مأمور.
الأولى	: ومن الذي أمره؟
زينب	: تلك الفرنجية الجالسة مع ساري عسكر.
الثالثة	: هو ذا ساري عسكر؟ بونابرت؟ السلطان الكبير؟
زينب	: نعم.
الأولى	: هذا المسخوط.
الثانية	: كنا نظنه بطول وعرض.
الثالثة	: قصير مكير مثل فرعون موسى.
الأولى	: ومن أين لك أن فرعون موسى قصير؟
الثالثة	: مما يصفونه لنا في الأساطير.
	(تتطلع العيون إلهن وإلى نابليون وبولين)
الأولى	: يا رب.
الثانية	: متى ترزقنا بموسى؟
الثالثة	: يخلصنا منه.
الأولى	: يا رب.
	(يبدو على نابليون الانفعال فيصفق)
زينب	: يلوح لي يا أخواتي أنه سيأمر بطردكم.
الثلاثاء	: ماذا تصنع؟
	(تتهامس زينب مع النسوة الثلاث كأنما تشرح لهن شيئا

---

وتتفق معهن على خطة)

- نابليون : (لبولين) كل هذا منك.
- بولين : مني أم منها؟
- نابليون : أنت التي جئت بهؤلاء البغايا.
- (يدخل دارجفيل فيهمس له نابليون بكلام فيتقدم نحو النسوة الثلاث ومعه رجاله).
- دارجفيل : اخرجن من هنا.
- الثلاثاء : كلا لن نخرج... من تكون؟
- دارجفيل : أنا مدير الملهى.
- الثلاثاء : ونحن لن ندخل هنا من غير دعوة.
- دارجفيل : منذا دعاكن؟
- الثلاثاء : تلك المرأة التي مع ساري عسكر. سلمها... هي التي استأجرتنا هنا المهمة.
- دارجفيل : ساري عسكر هو الذي أمر بإخراجكن فإما أن تخرجن بالمعروف أو....
- الثلاثاء : كلا لن نخرج حتى نقبض أجورنا.
- نابليون : أعطهن يا دارجفيل.
- (يعطيهم دارجفيل أجورهن فيودعن زينب ويتهيان للخروج).

الأولى	: (تقارب من فوريه وتوقظه) مسيو فوريه.
فوريه	: (يستيقظ) بولين. بولين.
الأولى	: بولين من؟
فوريه	: يا هذه لماذا ايقظتني من حلبي الجميل. لقد كنت معها. لقد كنت معي. كنت معها.. كنت معي.. كنت معي..
الثلاث	: من هي؟
فوريه	: مدام فوريه.
الثلاث	: وأين هي الآن؟
فوريه	: هناك. هناك. هناك.
الثلاث	: أين؟
فوريه	: في المائدة رقم "١" (بيكي)
	(دارجفيل ورجاله يسوقون النسوة الثلاث حتى يخرجوا بهن)
	(ترقص زينب مع بوهارنيه رقصة حامية ونابليون وبولين ينظران إليهما في غيظ)
زينب	: (بعد انتهاء الرقصة) اذهب الآن إلى مدام فوريه فاطلها للرقص.
بوهارنيه	: ربما ترفض.

: كالا لا تستطيع أن ترفض.

(يتقدم بوهارنيه إلى بولين يطلبها للرقص فترقص معه)  
(ينظر نابليون نحو زينب فكأنها تطمعه في مراقبتها  
فيتقدم إليها ولكنها تعرض عنه وتتقدم إلى فوريه فتأخذ  
بيدة تدعوه لمراقبتها فيستجيب فرحا ويأخذان في  
الرقص)

(نابليون يعود إلى مكانه وجلان ولكنه يتجلد ويومئ إلى  
سكرتيره بوريين فيجلس إلى جانبه ويفتح حقيبة أوراقه  
فيراجعها مع بوريين متغافلا عما يدور حوله كأنه في خلوة  
مع بوريين)

(تنتهي الرقصة فتعود بولين إلى مكانها فتجد نابليون  
يتجاهلها مستغرقا في عمله وتواصل زينب رقها مع فوريه  
حتى يتداعيا من أثر السكر ومن الإعياء فيسقطا على  
الأرض)

(ستار)

## الفصل الرابع

"في بيت محمد الألفى بك الذي كان يسكنه نابليون بالأزبكية  
السلامك الذي اتخذه مكتبا له يستقبل فيه رجاله وضيوفه  
ويصرف فيه أمور الحكم، وعن يمينه ممر في الحديقة يصله بالبيت  
الذي لا يظهر على المسرح غير جانب صغير منه"  
الوقت: الصباح الباكر.

(حين يرفع الستار تجد جاكلين وفرانسواز واقفتين في الممر  
تتطلعان)

- فرانسواز : أين هو؟ قال الخادم النوبي إنه يتربص في الحديقة.  
جاكلين : الآن يظهر.  
فرانسواز : أليس أفضل لو انتظرناه داخل المنزل؟  
جاكلين : كلا... ربما يخرج لشأنه ولا نراه.  
فرانسواز : انظري. هو ذاك.  
جاكلين : هل رأنا؟  
فرانسواز : نعم.  
جاكلين : فسيقبل إذن في الحال.  
فرانسواز : لكنه ابتعد عنا يا جاكلين.  
جاكلين : ليبدو إلينا من خلف تلك الشجرة؟

---

فرانسواز	: أنا خائفة.
جاكسين	: من زوجل إذا علم؟
فرانسواز	: بل منه هو.
جاكسين	: تشجعي. لن يأكلنا على كل حال.
	(يظهر كليبر)
كليبر	: هل تكذبني عناي. أم أرى زهرتين ناضرتين في حديقتي هذا الصباح.
فرانسواز	: (هاتفه) يا إلهي شاعر....
جاكسين	: أجل ما كنا نعلم يا سيدي القائد العام أنك شاعر غزل.
كليبر	: (يعود إلى وقاره) لا تؤاخذني.... كانت هفوة مني.
جاكسين	: هذه ليست هفوة. هذه تحية عذبة.
فرانسواز	: أم ترانا لا نستحقها يا سيدي الجنرال.
كليبر	: بل تستحقان أكثر. ولكني فوجئت بوجود كما فأنطقني ما أنطقني.
جاكسين	: أجمل الغزل، ما يرتجل.
كليبر	: (يتوقر أكثر) هل من خدمة؟
جاكسين	: كنا نريد أن نكلمك في أمرنا قبل اليوم.
فرانسواز	: ولكننا كنا نهابك.... ونخشاك.
كليبر	: أنا تحت أمركما.

---

جاكولين	: بل نحن تحت أمرك.
كليير	: عفوا...ماذا تريدان؟
فرانسواز	: لا نريد منك شيئا.. نريد فقط أن نخدمك.
جاكولين	: لا تسيئ فهم غرضنا، نحن متزوجتان.
كليير	: أعلم ذلك.
جاكولين	: وتعرف زوجينا؟
كليير	: لا، لم يتح لي هذا الشرف بعد.
فرانسواز	: هذا أفضل؟
كليير	: أفضل؟
جاكولين	: حتى لا تشعر نحونا بأي حرج. لقد رأينا من واجبنا أن نتولى تدبير منزلك.
فرانسواز	: ونقوم لك بكل شيء.
جاكولين	: حتى تشعر بالهدوء والاستقرار.
كليير	: أشكركما. لكن عندي أنا الطباخ والسفرجي والخدم.
جاكولين	: نحن نعلم ذلك ولكنك فرنسي لا يعجبك إلا المطبخ الفرنسي.
فرانسواز	: والنظام الفرنسي.
جاكولين	: وكنا قد خدمنا سلفك من قبل.
كليير	: بونابرت؟
جاكولين	: نعم. وفي هذا البيت.

فرانسواز	: ولكننا لم نستطع أن نستمر.
كليير	: لماذا؟
جاكلين	: كنا لا نستلطفه. كان يتعالى علينا.
فرانسواز	: ولا يحترمنا الاحترام الكافي.
كليير	: هل أنتما قريبتان؟
الاثنتان	: أختان شقيقتان.
كليير	: عجيب.
فرانسواز	: لأنني شقراء وهي سمراء؟
جاكلين	: أمنا سمراء وأبونا أشقر.
فرانسواز	: ونسكن في منزلين متجاورين.
جاكلين	: ففي وسعنا أن تجيء إحدانا إليك.
فرانسواز	: وتقوم الأخرى بتدبير المنزلين.
جاكلين	: فنرضيك أنت وترضين الزوجين.
فرانسواز	: ولكي يتم العدل بيننا على السواء.
جاكلين	: سيأتيك يوما السمراء ويوما الشقراء.
فرانسواز	: موافق يا سيدي الجنرال؟
كليير	: موافق.
جاكلين	: نبدأ من الغد؟
كبيير	: من الغد.

فرانسواز : إلى الغد.

كليبر : إلى الغد.

جاكلين : إلى بعد غد.

كليبر : إلى بعد غد.

### (تخرجان)

كليبر : (في رضي وابتهاج) أه... أين كانتا من قبل؟ كان الكورسيكي

يحجزعني كل شيء. كل شيء. كل شيء. (يصعد إلى

السلاملك فيجلس إلى مكتبه) كانتا لا لطفانه. كاني تعالى

عليهما ولا تحترمهما الاحترام الكالفي. ترى ماذا تعنيان؟ لا بد

أنه كان مشغولا عنهما بجوزفين وبولين وزينب.

(تظهر زينب في هيئة وهندام غير أنيق وعلى وجهها أمارات

الحزن والانكسار والتوحش)

زينب : جنرال كليبر. جنرال كليبر.

(تصعد إلى السلاملك في خطوات سريعة)

كليبر : من؟ زينب؟ ماذا تريدان؟

زينب : كل يوم تسألني ماذا تريدان؟ ألم تفهم بعد ماذا أريد؟

كليبر : وكل يوم تحضرين إلي... ألم تفهمي بعد أن ما تطلبينه

مستحيل.

زينب : كان يقول دائما: ليس عندي مستحيل.

كليبر	: اذهبي فاطميه منه.
زينب	: رحلني إليه.
كليبر	: قلت لك لا أستطيع ترحيلك.
زينب	: كما رحلت مدام فوريه.
كليبر	: هذه عادت أمس.
زينب	: عادت؟
كليبر	: ألم تسمعي بذلك؟ أعادها الإنجليز من نصف الطريق.
زينب	: أعادوها..أين هي؟
كليبر	: أين تكون إلا في بيتها.
	(تخرج زينب منطلقة كالعاصفة وتصطدم في درج لاملك بالجنرال مينو والجنرال دوجا والمسيو بوسيلج الذين يصعدون إذ ذاك إلى السلامك فلا تتوقف لتلومهم أو تعذر إليهم بل تواصل انطلاقها حتى تغيب)
مينو	: (صائحا) ما هذا يا جنرال كليبر؟ كيف تسمح بهذه الفوضى في مكتبك؟
كليبر	: (يطل عليهم) اصعدوا أولا.
	(يصعد الثلاثة ويتبادلون مع كليبر التحية)
كليبر	: ماذا كنت تقول يا جنرال مينو.
مينو	: أنت الآن قائد الحملة في مكان بونابرت العظيم، فكيف

- تسمح بهذه الفوضى في مكتبك؟
- كليبر : تعني هذه المجنونة التي انطلقت من عندي الساعة؟
- مينو : نعم كادت توقعنا على الأرض.
- كليبر : هذه من مخلفات بونايرتك العظيم عليها وعلى صاحبها اللعنة.
- مينو : (يضع أصابعه في أذنيه) كلا أنا ما حضرت من الإسكندرية لأسمع هذا منك.
- كليبر : فماذا كنت تريد أن تسمع؟ الثناء المستطاب. والكلمات العذاب؟
- مينو : نعم.. جئت لأتبادل معكم التهاني بتولى قائدنا العظيم منصب القنصل الأول على رأس الحكومة.
- كليبر : هذا الخبر جدير بالتعزية لا بالتهنئة.
- مينو : أنت تظلمه يا جنرال كليبر. كل مجد يناله قائدنا فهو مجد لنا.
- كليبر : مينو...لا تثر أعصابي. عار عليك وأنت جنرال في عهد الثورة أن تتكلم بمنطق العبيد.
- مينو : (غاضبا) العبيد؟
- كليبر : بل أخس من العبيد.
- مينو : الأحرار إذا أرادوا أن يكونوا عبيدا فهم أخس من العبيد.

- كليبر : هل تسمعان ما يقول؟
- مينو : إن شئتما أن نسمع فلتتجادلا التي هي أحسن.
- بوسيلج : أجل... حتى نستطيع أن نجنى من جدالكما ثمرة طيبة.
- مينو : كأنما لم تمسعا الكلمات المقذعة التي قالها الساعة.
- بوسيلج : إن أردت الحق فأنت يا جنرال مينو الذي بدأت.
- دوجا : اهتمته بالفوضى من أول ما دخلت وقبل أن تسلم عليه.
- بوسيلج : وخاطبته وهو قائد حملتنا اليوم كأنما لا قيمة له إلا أنه في مكان بونابرت العظيم.
- مينو : هيه... نسيت أنكما أيضا صرتما من الناقمين على بونابرت.
- دوجا : ومن حقنا ذلك.
- بوسيلج : بل من واجبنا.
- مينو : لأنه لم يشأ أن يأخذ كما معه إلى فرنسا.
- دوجا : بل لأنه تخلى عنا بكل جبن ونذالة. أخفق في بناء مجده الشخصي هنا فمضى يلتمسه في ميدان جديد.
- بوسيلج : ولكي يتخلص من التبعة في فشل الحملة ويلقها على كاهل غيره.
- كليبر : على كاهلي أنا. ولذلك اختارني خلفا له لا اعترافا بفضلي
- كما زعم بل عقابا لي على عدم خضوعي لدكتاتوريته.
- مينو : إنك تنكر الجميل يا جنرال كليبر.

- كليبر : أي جميل؟ لو لم يدرك حرج موقفنا في هذه البلاد والمتاعب  
الجسيمة التي تواجهنا من كل وجه وتربص الشعب بنا في  
كل وقت لأسندها إلى غيري ممن يمجدونه ويمجدون أفعاله  
كأحسن ما تكون.
- مينو : كأنك تعني يا جنرال كليبر.
- كليبر : أجل. أعنيك وأعني الجنرال ديزيه ومن على شاكلتكما من  
صنائع بونابرت.
- مينو : لو كان يعلم أنك ستجحد صنيعه هكذا...
- كليبر : لولاك أنت؟
- مينو : نعم.
- كليبر : كلا لم يشأ أن يولييك أنت إشفاقا عليك.
- مينو : إنك تبيع لنفسك التحدث عنه كأنما كنت معه عند سفره.
- كليبر : هذا شرف لم يتح لغيرك وقد طلبت منه أن يولييك القيادة  
فاعتذر لك بأنها ليست في صالحك.
- مينو : (مرتبكا) كلا كلا.. من أين عرفت ذلك؟
- كليبر : من عينيك. أكاد أقرأ ذلك في عينيك.
- مينو : اتق شر من أحسنت إليه.
- كليبر : ماذا تقول؟
- مينو : هو مصل عربي شائع.

بوسيلج	: على بونابرت إذن...
كليبر	: أن يتقي شرك أنت.
دوجا	: لأنه أحسن إليك.
بوسيلج	: ولم يحسن إلى أحد منا.
(تدخل بولين ومعها زينب)	
مينو	: ائذن لي أن أنصرف.
كليبر	: كلا بل تبقي حتى ترى بعينك وتسمع بأذنيك بعض البلاوي التي خلفها لنا صاحبك. (يلتفت إلى زينب) أرأيت يا زينب كيف ردها الإنجليز من نصف الطريق.
زينب	: لو كنت مكانها يا جنرال كليبر لما استطاعوا أن يردوني.
كليبر	: ماذا كنت تصنعين لهم؟
زينب	: كنت أشعلت النار في سفنهم فأحرقتها أو نقبتها فأغرقتها.
كليبر	: إنها تهذي يا قوم. لقد جنت.
كليبر	: كلا لست مجنونة. أنا بكامل عقلي. أرسلوني إلى بونابرت، أرسلوني إلى زوجي. لن يستطيع أحد أن يحول بيني وبينه ولا أبالسة الجحيم.
كليبر	: الأبالسة لا يقدرّون ولكن الإنجليز يقدرّون.
كليبر	: إن كنتم تكرهون الإنجليز حقا فأرسلوني لأغرقن لكم سفنهم واحدة بعد واحدة.

ينظر بعضهم إلى بعض في شيء من السخرية وشيء من

(الثناء)

- دوجا : من يدري؟ لعلها تنجح فيما لم ينجح فيه زوجها.
- زينب : بوركت يا جنرال دوجا. أنت دائما رجل حكيم.. سوف أكافئك  
غدا إن شاء الله حين أكون سلطانة.
- كليبر : أما زلت تطمعين في ذلك بعد ما تخلى عنك السلطان الكبير؟
- كليبر : هو ما تخلى عني. أنا التي تخليت عنه في لحظة غضب. ما  
كنت أعلم أنه صادق فيما كان يقول.
- بوسيلج : ماذا كان يقول؟
- زينب : كان يقول إنه لم يستطع أن يحقق مشروعه لأنه بدأه من  
الشرق وكان عليه أن يبدأه من الغرب.
- بوسيلج : أي مشروع؟
- زينب : إمبراطوريته العالمية الكبرى، دولة في الغرب ودولة في الشرق.
- كليبر : أتسمعون يا سادة؟ أتسمع يا جنرال مينو؟
- دوجا : وأنت أين كان يضعك في الشرق أم في الغرب؟
- زينب : على عرش الدولة العربية الكبرى التي سيخضع لها كل  
بلاد الشرق.
- كليبر : إذن فانتظريه هنا حتى يعود.
- كليبر : كلا. يجب أن أكون بجانبه الآن. ولاسيما بعد ما أسقط

حكومة الدير كتوار وصار الحاكم بأمره. لأعينه في كفاحه  
حتى يستولى على الغرب كله ثم أعود معه لبناء دولة الشرق.

كليبر : أتسمعون يا سادة؟ أتسمع يا جنرال مينو؟

مينو : هذا هذيان لا برهان على صدقه.

زينب : هذيان!

مينو : معذرة يا سيدتي. أردت أن أدفع التهمة عن قائدنا ولم  
أقصد أن أسيء إليك.

كليبر : تكلمي الآن يا مدام فوريه- عفوا- يا مودموازيل بليزل. ألم  
تسمعي هذا المشروع من فم بونابرت؟

بولين : بلى وكان يعدني أن يجعلني على عرش الغرب.

مينو : لو صح هذا لكان أخذك معه حين رحل؟

بولين : إنما تركني خشية أن يغضب جوزيفين. لقد خدعني وأثر  
جوزيفين عليّ. آه لو استطعت أن أصل إليه. إذن لفضحته  
في كل مكان.

مينو : لو كنت أعلم أن هذا كان قصدك من سفرك لأبيت أن  
أشترك في أمر ترحيلك.

بولين : جنرال كليبر. الآن عرفت السبب. الجنرال مينو هذا كان  
هو السبب.

مينو : ماذا تعنين؟

- بولين : لا ريب أنك أوعزت لريان السفينة الإيطالية أن يشعر  
الإنجليز بوجودي فيما ليردوني إلى مصر؟
- مينو : ماذا يحملني على ذلك؟
- بولين : حتى لا أفصح صاحبك في باريس. لقد كنت لا أخفي قصدي  
هذا ولا ريب أنك سمعته مني.
- مينو : جنرال كليبر أيرضيك أن تتهمني هذه السيدة أو هذه الأنسة  
في مجلسك؟
- كليبر : أعذرها يا جنرال مينو فقد كانت تود اللحاق بالبطل العاشق  
الذي فقدته.
- بولين : إنني أطالبك الآن يا جنرال كليبر بترحيلي مرة أخرى على يد  
غير هذا الرجل.
- زينب : ورحلني أنا معها لئأتنس ونتعاون في الطريق.
- كليبر : كلا لا أستطيع الآن يا مودموازيل بليزل.
- بولين : لماذا؟
- كليبر : سيظن القنصل الأول أنني تعمدت أن أجرحه.
- بولين : أنت أيضا تخاف منه؟
- كليبر : أنا لا أخاف من أحد. ولكني أر بأنفسي أن أرتكب مثل هذا  
الأمر الصغير.
- بولين : إذن فعليك أن تعطيني النفقة المقررة.

كليبر	: أجمها يا مسيو بوسيلج. هذا من اختصاصك.
بوسيلج	: بأي وجه تستحقينها يا مدموازيل بليزل؟
بولين	: أنا من جيش الشرق.
بوسيلج	: لست مقيدة في جيش الشرق.
بولين	: كنت زوجة لأحد أفرادها.
بوسيلج	: ولكنك تخليت عنه.
بولين	: تخليت عنه لقائده العام.
بوسيلج	: فعلى ذلك القائد أن ينفق عليك من جيبه الخاص.
بولين	: وأين هو الآن مني؟
كليبر	: كان عليه أن يترك لك شيئاً من القناطير المcnطرة التي أخذها معه من مصر.
بولين	: وتركتموه يحمل القناطير المcnطرة معه ثم تبخلونه على مواطنة مثلي بما يقيم أودها؟
بوسيلج	: أنا لست مسئولاً عن تلك القناطير المcnطرة لأنها لم ترد إلى الخزانة العامة.
بولين	: لكنك كنت تصرف لي من الخزانة شهرياً يا مسيو بوسيلج.
بوسيلج	: بأمر خاص من القائد العام وعلى مسؤوليته.
بولين	: أنت اليوم قائدننا العام يا جنرال كليبر.
كليبر	: لكني لست السلطان الكبير لا أخذ شيئاً لنفسي ولا أنفق

على عشيقاتي من الخزانة العامة.	
بولين	: ماذا أصنع إذن؟ من أين أعيش؟
بوسيلج	: هذا ما لا أستطيع الجواب عليه.
دوجا	: ألم تكوني خياطة في كاركاسون حين تزوجك الملازم فوريه؟
بولين	: كلا لن أعود إلى تلك المهنة أبدا. لقد نسيتها.
كليبر	: عودي إذن إلى مسيو فوريه فهو يريدك.
بولين	: بعدما أصبح مدمنا لا يطاق؟
كليبر	: أنت كنت السبب فلو عدت إليه فربما يصلح حاله.
بولين	: كلا لا أستطيع أن أعيش معه.
دوجا	: لم لا تعملين في ملهى التيفولي فإن جمالك يؤهلك لذلك؟
بولين	: ليبتدلي السكارى والمخمورين من الجنود.
دوجا	: أوه. ماذا تريدان إذن. أن تجلسك على عرش الغرب؟
بوسيلج	: هذا ليس في طاقتنا كما تعلمين.
كليبر	: بونابرت وحده هو الذي يستطيع ذلك.
بوسيلج	: لو تخلص من جوزيفين.
بولين	: اسخروا اليوم ما شئتم فولله لو كان هنا ما جرؤ أحدكم أن يتفوه بكلمة (يدخل فوريه)
فوريه	: بونجور يا سيدي القائد العام، بونجور يا سادة.
كليبر	: بونجور. ماذا تريد يا مسيو فوريه؟

- فوريه : زوجتي يا جنرال كليبر. لقد اغتصبها بونابرت مني ثم تركها  
اليوم فأنا أولى بها من غيري.
- بولين : كلا أنا لا أريدك.
- فوريه : هل تريدها أنت يا جنرال كليبر؟
- كليبر : ماذا أصنع بها؟
- فوريه : لتكون مثل سلفك العظيم.
- كليبر : كلا أنا لست مثله.
- فوريه : إذن فمن الذي ورثها من بونابرت؟
- بولين : لم يرثني أحد. أنا لست متاعا.. أنا إنسانة.
- فوريه : وأنا إنسان يا بولين. أنا إنسان (ي بكي) أنا أحبك يا بولين  
ولا أستطيع أن أعيش بغيرك.
- بولين : لكنني لا أحبك ولا أستطيع أن أعيش معك.
- فوريه : ألا تذكرين أيامنا الحلوة في كاركاسون؟ ألا تذكرين يا  
بولين يوم أخذتك معي إلى السفينة فتنكرت في زي ملازم  
جميل ليقبلوك معي في الحملة.
- بولين : كل هذا قد نسيتته فاذهب عني. إنك تخيفني.
- فوريه : لا تخافي. إني سأنسى كل شيء يا بولين. سأسامحك في كل  
شيء.
- بولين : كلا لا آمنك على نفسي أبدا. اذهب عني. اغرب من وجهي.

لا أريد أن أراك. لا أريد أن أراك.	
(يخرج فوريه متداعيا ملثا الخطي وهويبيكي وينتخب)	
: (صوته) عليك اللعنة يا بونابرت. عليك اللعنة يا بونابرت.	فوريه
: أمين.	بولين
: لا حق لك يا بولين. إنه رجلنا وأملنا ومستقبلنا.	زينب
: هميات. قد تخلى عنا يا زينب.	بولين
: لكننا لن نتخلى يا بولين عنه. سنلحق به أنى يكون. لا بد أن نجد سفينة تحملنا إليه.	زينب
: ومن أين ندفع أجر السفينة؟	بولين
: لا تهتمي. أنا التي سأدفع أجرها عني وعنك. هلمي...لا ينبغي أن نعتمد على هؤلاء.	زينب
: ربما ينكرنا هو هناك.	بولين
: حتى لو أنكرنا فإننا لن ننكره. إنه حقنا يا بولين ولن ننزل عن حقنا ما حيينا.	زينب
: لكننا لن نأذن لك بالسفر يا زينب إلا إذا وافق أبوك.	كليير
: ما شأنه بي؟ أنا رشيدة ولست بقاصر.	زينب
: لقد كلمني في ذلك فوعدهت ولن أخل بوعدي.	كليير
: إنه يمنعني من السفر لأنه يريد أن يقتلني.	زينب
: هذا غير معقول.	كليير

- زينب : ألم يكلمك معي الدين ابن عمي في ذلك؟  
كليبر : بلى ولكني ما صدقت كلامه.  
(يدخل معي الدين ومعه أم زينب)  
زينب : ها هي ذي أمي قد جاءتك بنفسها لتؤكد لك.  
كليبر : أحقا يا سيدتي ما تزعمه ابنتك؟  
أم زينب : نعم يا سيدي الجنرال وكان ذلك سبب انفصالي عن السيد.  
كليبر : وهل توافقين أنت على سفرها إلى فرنسا؟  
أم زينب : لا يا سيدي، ولكن سفرها أهون عندي من القتل.  
دوجا : ألا ترسل إلى أبيها لتسمع ما عنده؟  
كليبر : صدقت.. (ينظر أمامه) ها هو ذا والدها قد جاء من تلقاء نفسه.

(يدخل خليل البكري)

- خليل : أجل جئت مسرعا يا سيدي الجنرال لما بلغني أن هؤلاء قد جاءوا يفترون عليّ عندك.  
زينب : كلا يا أبي لا أحد يفترى عليك. أنت حقا تريد أن تقتلني.  
خليل : يا بنتي لا تصدقي ما تقوله أمك. ماذا يدفني إلى ذلك؟  
زينب : تريد أن تتخلص من عارك بزعمك؟  
خليل : كلا يا بنتي لو كان ها صحيفا لأذنت بترحيلك إلى الخارج حيث تنقطع أخبارك وتنطمس آثارك، ولكني حلت دون

سفرك عطفًا مني عليك خشية أن تتشردني في تلك البلاد  
النائية وتلاقي صنوف المذلة والهوان.

زينب : أنسيت يا أبي أن هناك زوجي؟

خليل : الذي أبي أن يحتفل بزواجك هنا، كيف تطمعين أن يحتفل  
به هناك؟

كليبر : كلام سديد.

أم زينب : كلا يا سيدي الجنرال لا يغرنك كلامه الناعم. إنه أقسم  
ليقتلها. سمعته بإذني هاتين.

كليبر : ما أحسب السيد خليل يجرؤ أن يقتل قطة.

أم زينب : لن يقتلها بيده. استأجر جماعة من المجرمين ليتولوا  
ذلك.

خليل : هذا كذب وبهتان. إنها تكيد لي لأنني طلقتهما.

أم زينب : سل ابن أخيه يخبرك.

كليبر : ماذا تقول؟

محي الدين : أجل يا سيدي الجنرال. أنا رأيتهم بعيني يتربصون بها ويقتفون  
خطاها.

خليل : وأنا الذي أوعزت إليهم يا محي؟

محي الدين : لا أدري.

أم زينب : لا أحد غيره يا سيدي الجنرال. ارحمني. إني أبيت مذعورة

- وأصحو مذعورة.
- كليبر : يا سيد خليل أنت صديقنا فلا تضطرنا إلى عمل يغض من مقامك.
- خليل : لا تصدقهم يا سيدي الجنرال.
- كليبر : اسمع. إن مس زينب أي سوء فأنت المسئول.
- خليل : كأنك صدقتهم يا جنرال كليبر وكذبتني.
- كليبر : هذا قرار لا نقاش فيه.
- خليل : إذن فعلها أن تعود إلى الحريم كما كانت.
- زينب : كلا لن أعود إلى العبودية أبدا.
- خليل : يجب أن تلزمها بذلك يا جنرال كليبر. العامة لا يطيقون رؤية فتاة مسلمة تخرج سافرة في الطريق، فأنا غير مسئول عما يصيبها منهم.
- زينب : أجل هو غير مسئول عما يصيبني. لا أريد حماية أحد.
- خليل : ويجب أن تتزوج من ابن عمها محي الدين.
- أم زينب : أجل يا زينب. ابن عمك يريدك وهو أولى الناس بك، وكنت تحبينه كما يحبك.
- زينب : كلا لا أقبل أن يكرهني أحد على ما لا أريد.
- خليل : رأيتم عنادها وتعنتها؟
- محي الدين : ألا تحبينني يا زينب؟

- زينب : أنت تعلم أني أحبك يا محي الدين وأقدرك، ولكني لا أستطيع أن أتزوجك.
- محي الدين : فيم يا زينب؟
- زينب : أنت لا تستطيع أن تجعلني سلطانة. هل تستطيع؟
- محي الدين : لا.
- زينب : ولا أن تعيد وحدة الأمة العربية التي مزقتها الصليبيون والتتار والأتراك والمماليك. هل تستطيع؟
- محي الدين : لا.
- زينب : ولا أن تجعل القاهرة عاصمة الدولة العربية الكبرى التي يدين لها كل بلاد الشرق. هل تستطيع؟
- محي الدين : لا.
- زينب : فكيف تريد أن تتزوجني يا محي الدين؟
- محي الدين : السعادة يا زينب لا تتوقف على هذه المطالب.
- زينب : لكن الحياة تتوقف عليها يا محي الدين، ولا سعادة بغير حياة.
- محي الدين : هذه أوهام يا زينب.
- زينب : كلا ليست بأوهام.
- محي الدين : لن نتحقق أبدا.
- زينب : بل هي آتية لا ريب.

(يستمع الجميع إلى هذا الحوار بينهما مدهوشين

متعجبين)

محي الدين : قد ذهب من مناك بها وتخلي عنها وعنك.

زينب : إن تخلى عنها فهو غريب. ولكني أنا منها وهي مني فلن أتخلي

عنها أبدا. سأظل أنتظر وأنتظر وأنتظر.

محي الدين : إلى متى يا زينب؟

زينب : (كالحاملة) إلى أن يجيء الفارس البطل على فرسه الأدهم

ويومئ بأصبعه فإذا الأمة العربية يجمعها علم واحد. وإذا

القاهرة عاصمتها المزدانة وإذا أنا على عرشها سلطنة...

(ستار الختام)